محمود محمد شاكر

«قصة قلم»

بقلم: عايدة الشريف





KITAB AL-HILAL

الاصدار الاول
يونيو ١٩٥١

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

عبدالحميد حمروش نائب رئيس مجلس الإدارة

مركز الإدارة

دارالهلال ١٦ ش محمد عزالعرب. تليفون: ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

العدد ٥٦٣ - رجب - نوفمبر ١٩٩٧ No. 563-NO-1997

فاكس FAX-3625469

مصطفى نبيل رئيس التحرير

عادل عبدالصمد سكرتير التحرير

أسعار بيع العدد فئة ٥٠٠ قرش

سوريا١٧٠ ليرة - لبنان٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٠٠٠ فلس- الكويت١٥٠٠ فلس- السعودية ١٥ ريالا - البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - دبي / أبوظبي ١٥ درهما - سلطنة عمان ١,٥ ريال

محمود شاكر

قصة قلم

بقلم

عايدة الشريف



دار الهلال

الغلاف للفنان

حلمى التونى

تقديم وتعريف

عايدة الشريف وأيام من البهجة

بقلم: د. محمود محمد الطناحى

أىّ رجل كان محمود محمد شاكر[1] ؟ وأى مجلس كان مجلسه؟ وأى أنسٍ كان يشيع فى هذا المجلس، وأى علم كان يتفجّر فى رحابه؟ .

وللناس أن يتكلموا عن علم محمود شاكر ما شاء الله لهم أن يتكلموا، ولكن الحديث عن مجلسه مما ينبغى الوقوف عنده وتأمله. لقد قلت في بعض ماكتبت إنه لم يحظ أحد من أدباء هذا الجيل بمعشار ما حظى به محمود شاكر من حبّه والالتفاف حوله والأخذ عنه والتأثر به:

لقد كنت فى قوم عليك أشِحَّة

بنفسك إلا أنَّ ما طاح طائح

يودُّون لو خاطوا عليك جلودهم

ولا تدفع الموت النفوس الشحائح

---

(١) فاضت روحه الطاهرة إلي بارئها، في تمام الساعة الخامسة من عصر يوم الخميس ٣ من ربيع الآخر ١٤١٨ هـ، الموافق ٧ من أغسطس ١٩٩٧م، فترك في القلوب حسرة لا تنقضي، وأودع العيون دمعة لا تجف، رحمه الله ورضي عنه .

طوائف من الناس من مختلف البلدان والأعمار والانتماءات ضمهم ذلك البيت[1] المفتوح دائما، والذى خلا من الرسميات والدعوات المضروبة من قبل. يقول الأستاذ فتحي رضوان، في وصف ذلك البيت الشاكرى:

«كان بيته ندوة متصلة لا تنفض، من أعضائها الثابتين: يحيى حقى، إذا حضر من أوربا، وعبدالرحمن بدوى، وحسين ذو الفقار صبرى، وغيرهم وغيرهم، ولم يكن حظى أن أكون عضوا دائما فيها، فقد كنت ألم بهم أحيانا، فأراهم وأرى من العالم العربى كله، ومن العالم الإسلامي على ترامية، شخصيات لا حصر لها، تتباين بعضها عن بعض، فى الزىّ والمظهر والثقافة واللهجة، والشواغل والمطامح، ولكنها تلتقي كلها عند محمود شاكر، تسمع له، وتأخذ عنه، وتقرأ عليه، وتتأثر به، وكلما كان من حظى أن أشهد جانبا من هذه الندوة، أحسست بسعادة غامرة أن يبقى ركن فى بلدى كهذا الركن، ينقطع أصحابه للفكر والدرس والتحدث في أمور لا تجد من يسمع بها، أو يعرف عنها شيئا فى مكان آخر».

وإذا كان الأستاذ فتحى رضوان قد ذكر من عرفهم من أعلام الفكر والأدب الذى كانوا يختلفون إلي بيت محمود شاكر، فإنى ذاكر أيضا من عرفتهم فى هذا المجلس الحاشد، على امتداد الستينات والسبعينات:

---

(١) يسميه الدكتور إحسان عباس: كعبة العلم. انظر جريدة الدستور الأردنية بتاريخ ١٩٩٣/١/٢٢ .

عبدالرحمن صدقى وعلى أدهم، ومحمود حسن اسماعيل، وعلى أحمد باكثير. ومن أعلام العرب: أحمد المانع وناصر الدين الأسد وأحمد راتب النفاخ وإحسان عباس وشاكر الفحام وإحسان النص ومحمد يوسف نجم وإبراهيم شبوح، واسماعيل الأكوع، ومحمد بن شريفة وعبدالسلام الهراس والحبيب اللمسى وعبدالله الغنيم. ومع هؤلاء الأعلام يتسع المجلس أيضا لصغار الطلبة والمعيدين.

ولقد يجتمع الناس فى ندوة أديب من الأدباء، ثم تنفض الندوة وينفرط عقدها، ويذّهب كل فى طريق. ولكن مجلس محمود شاكر يختلف عن غيره من المجالس، بما يشيع فيه من أُنس وود وبهجة، وماتنعقد فيه من صداقات عذبة حميمة، يغذيها وينميها صاحب المجلس، أما المناقشات العلمية والمحاورات الأدبية فلكل أمرىء منها حظ مقسوم، لاينفرد بها صاحب الدار، ولايستبد بها الكبار، فالكل فى هذا المجلس سواء، والكل يتكلم ويشارك، ولم يكن صاحب المجلس يرتاح للأحاديث الجانبية أو ثنائية الحوار، فما يكاد يرى أثنين يتحدثان منفردين حتى يتدخل قائلا:

انتو بتقولوا إيه؟» يريد أن يقطع عليهما طريق الانفراد، ولا شك أنه كان يصدر فى هذا من وحى الحديث الشريف الذى رواه البخارى ومسلم وغيرهما: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر - حتى تختلطوا بالناس - من أجل أن يحزنه».

بل إن مائدة الجمعة، والموائد الأخرى الحافلة، كيوم عاشوراءٍ الذى

كان يوافق مولد صاحب الدار بالتاريخ الهجرى: هذه الموائد كانت تجمع إلى أهل الأدب والفكر بعض أهل الحِرف والصناعات الذين لهم بالبيت وصاحبه صلة وتاريخ، مثل المجلِّد والنجار والحلاق . ومن طريف مايسجل هنا ما ذكره لى أبو فهر - رحمه الله - قال: فى يوم جمعة من الأيام الأولى لثورة يوليو كان يجلس على مائدة الغداء: محمود رشاد مهنا وحسين ذو الفقار صبرى والشيخ أحمد حسن الباقورى ومحمد فؤاد جلال - وكل هؤلاء من الوزراء وكبار المسئولين فى ذلك الوقت - وكان يجلس أيضا على المائدة الأوسطى أنور الحلاق. وفى اليوم التالى اتصل بى الشيخ الباقورى وقال لى: إن محمد فؤاد جلال - وكان وزيرا للشئون الاجتماعية - غاضب من وجود الأوسطى أنور الحلاق معنا على المائدة. وفى الجمعة التالية قلت لمحمد فؤاد جلال: اسمع يافؤاد أنت وزير فى مجلس الوزراء، ولكنك فى بيتى واحد من الناس، تستوى أنت والأوسطى أنور وسواكما من عباد الله!

★★★

دلفت عايدة الشريف إلى هذا المجلس الشاكرى فى عام ١٩٧١، وسرعان ما توثقت صلتها بالأسرة، فأدّت معهم وبصحبتهم فريضة الحج عام ١٩٧٢.

وقد دخلت عايدة الشريف مجلس محمود شاكر ومعها هذا القدر الهائل من الهيبة والخشية والحذر، من تلك الحدة المزعومة فى شخصية محمود شاكر، وهو شعور عرفناه جميعا حين دخلنا بيته لأول مرة،

وحين توثقت صلتنا بالشيخ اكتشفنا زيف هذا الشعور، وكذب تلك المزاعم التى أشاعها بعض خلق الله ليصدوا الناس عنه، وإذا نحن أمام قلب طاهر نقي، يغضب ويثور حين يرى حداً من حدود العلم قد انتهك، ولكنه قريب الرضا ميسور الصفاء، وقد وصفته فى بعض ما كتبت بأنك تراه فى حال غضبه ثائرا فائرا، كسماء مرعدة مبرقة، فإذا ألقت سماؤه بأمطارها، عاد كنسمة هادئة فى إثر ماء طهور، وإذا الذى بينه وبينه عداوة كأنه ولي حميم، ومن الظواهر التى كنا نشاهدها كثيرا أنه يختلف مع أحدهم اختلافا شديدا، يرتفع معه صوته، وتتقاذف كلماته كالسهام الملتهبة؛، وحين يودّعه على باب المصعد يقول له: ابقى تعال الجمعة الجاية».

★★★

أصبحت عايدة الشريف عضوا دائما فى لقاء الجمعة منذ عادت من الحج مع الأسرة الشاكرية عام ١٩٧٢، وكانت عايدة فى ذلك الزمان «وفورة النشاط متوثبة الحركة، مثيرة للجدل والحوار، وكانت لديها قدرة عجيبة على استخراج ما عند الأدباء واستثارة دفين ذكرياتهم، كهذا الذى كانت تستخرجه من عبدالرحمن صدقي ويحيى حقي، من حديث عن تاريخ الأوبرا، وحديث الرواية والقصة، وعطر الأحياء الشعبية الذى كان يفوح من قارورة يحيى حقي. وكان مثل هذا الحديث مما يستجم به الحضور شيئا ما من حديث اللغة والشعر الذى كان يصول فيه شيخنا ويجول، وكنا نحن التراثيين سعداء جدا بما كانت تمدنا به عايدة من

أخبار المسرح والسينما وشجون أهل الفن، ثم ذكرياتها الصادقة والدقيقة مع نجيب محفوظ، وقد عملت معه زمانا فى مؤسسة السينما، وعرفت من خاصة أمره ودقائق حياته ما لايعرفه كثير من المقربين اليه، وكانت حُجة في هذا الجانب، كما كانت حجة فى أخبار الدكتور محمد مندور، وقد تتلمذت عليه فى معهد الفنون المسرحية، ولازمته كثيرا، وقد ضمنت ذلك كله فى كتابها الممتع: شاهدة ربع قرن.

لكن الغريب في أمر عايدة أنها كانت مأخوذة جدا بما تسمعه من قضايا اللغة والشعر وسائر فنون التراث التى كان يموج بها مجلس محمود شاكر، وكانت تستشرف إلى معرفة ذلك العالم العجيب الرحب، عالم التراث، بل إنها - وقد شدتها سخونة الحوار فى هذه القضايا - صرَّحت لى بأنها كانت تود أن تسلك ذلك الطريق التراثى من أول أمرها، وأنها لو أتيح لها مثل هذا المجلس فى مبتدأ حياتها لما رضيت به بديلا، وكنت أقول لها: إنك قد اخترت طريق الشهرة والأضواء، مع الفن وأهله، أما نحن التراثيين ففى ركن قصى من الخريطة الثقافية فى هذا الزمان، وأننا نغدو ونروح يحدّث بعضنا بعضا، لايشعر بنا أحد، وعلي من يسلك طريقنا أن يصبر على العزلة والوحشة، كما قال على بن أبى طالب رضى الله عنه «من أحبنا أهل البيت فَلْيُعِدَّ للفقر جلبابا»، فكانت تقول: لا والله، إن طريقكم يا أهل التراث هو الطريق الصحيح، إنكم تتحدثون فى أشياء كبيرة لا يطيقها إلا أصحاب الجباه العالية، ولا يغرنك مانحن فيه من شهرة وذيوع وأضواء، فهو سراب

خادع وبرق خُلَّب (وكانت تقول: على فكرة، خلب دى سمعتها فى مجلسكم فقط).

أخذت عايدة تتردد على البيت الشاكرى، والتحمت به التحاما شديدا، وبخاصة بعد عودتها من الكويت واستقرارها بالقاهرة، وحين داهمها المرض فى أعوامها الأخيرة لم تجد أرحب من هذا البيت وأكرم، تلوذ به وتلجأ إليه فتجد فى رحابه من مظاهر الكرم ومباهج العلم ما يؤنس وحدتها، ويخفف من آلامها.

وقد بدا لعايدة أن تكتب شيئا عن حياة محمود شاكر ومجلسه، وقد سبق لها شىء من ذلك فيما كتبته فى بعض صحف الخليج، ولكنها أرادت أن توسّع الخطى، وتجمع أطراف الكلام، ولقد استعظمت الطريق واستطالته فى أول الأمر، وكادت تنصرف عنه، ولكنها عادت فاقتحمت الميدان بجسارة وشجاعة، وأخذت تجمع من هنا وتلملم من هناك، تضم الشبيه إلى الشبيه، وتقرن النظير بالنظير، تنشط حينا وتفتر أحيانا، وقد عملت وحدها، لم يُعنها أحد، حتى صاحب الدار لم يكن يكشف لها عما كانت تريده من سيرة حياته وتقلبه فى العالمين، وكان هذا دأبه وعادته، لم يكن يحبّ أن يتحدث عن نفسه.

★★★

كتبت عايدة عن محمود شاكر ما شاء الله لها أن تكتب: حياته وعلمه وخاصة أمره، لكن غالب ما كتبته إنما هو ذكريات متناثرة وخواطر متفرقة، كانت تريد أن تعود إليها بالتحرير والتنقيح، حتى عاجلتها المنية، وليس لما أراد الله راد ولا دافع.

وهذا الذى كتبته (١) عايدة الشريف عن محمود شاكر - مهما يكن رأيك فى مفرداته وصياغته - كان يجب أن يكتبه قرناؤه الذين عرفوه فى فتوته وشبابه، وتلاميذه الذين أفادوا منه فى قوته وعنفوانه، لكن لا هؤلاء كتبوا، ولا أولئك أشاروا، إلا ما كان من صديق عمره ورفيق حياته يحيى حقى، الذى مافتىء يذكر فضل محمود شاكر عليه، وانه هو الذى أذاقه حلاوة العربية، ووقفه على أسرارها ودقائقها (٢)

وكان من أعجب العجب ألا تجد لهذا الرجل الضخم ذكرا إلا فى مقدمات بعض الكتب أو الرسائل الجامعية، شكرا مصنوعا متكلفا، يريد به صاحبه أن يرفع خسيسة، لا أن يذكر علما، لكن محمود شاكر سيظل أثرا ضخما باقيا فى ضمير هذه الأمة: حراسة للعربية، وذوداً عنها، وبصرًا بها، وإضاءة لها.

---

(١) إكتشف شقيقها الكاتب الصحفى يوسف الشريف بعد رحيلها يوم ٣ أبريل ١٩٩٧ أنها خلفت وراءها كتاباً جاهزاً للنشر عن الأستاذ محمود شاكر كانت قد إستكملت سطورة قبل رحيلها بثلاثة شهور .

(٢) للحق والتاريخ أقول: إن كاتب هذا المقال، الفقير محمود محمد الطناحي، من أكثر الناس كتابة عن ذلك الإمام محمود محمد شاكر، ومن ذلك: كتابي مدخل إلي تاريخ نشر التراث العربي، من ص ١٠٣ إلي ١٢١، و: المتنبي. موسوعة عصر التنوير التي أصدرتها دار الهلال بعنوان: أهم مائة كتاب في مائة عام - سنة ١٩٩٢، و: محمود محمد شاكر ومنهجه في تحقيق التراث - مجلة الهلال - فبراير ١٩٩٧، ثم مانثرته فيما دق وجل من كتاباتي وتحقيقاتي.

ثم أشير هنا الي رسالتي ماجستير عن الشيخ: الأول بكلية دار العلوم للباحث محمود إبراهيم الرضواني، بعنوان: أبوفهر محمود محمد شاكر بين الدرس الأدبي والتحقيق. وطبعت بمطبعة الخانجي عام ١٩٩٥، والثانية للباحث عمر حسن القيام بكلية الآداب - جامعة اليرموك - الأردن، بعنوان: محمود محمد شاكر، الرجل والمنهج، وطبعت بمطبعة دار البشير ومؤسسة الرسالة بالأردن عام ١٩٩٧.

إن أحق ما يقال عن محمود شاكر هنا وفى كل مكان هو ما قاله عن أستاذه مصطفى صادق الرافعي، بأن الرافعى «قد صار ميراثا نتوارثه، وأدبا نتدارسه، وحنانا نأوى اليه» (١)

وكذلك ينبغي أن يكون محمود شاكر «ميراثا نتوارثه، وأدبا نتدارسه، وحنانا نأوى إليه».

رحم الله محمود محمد شاكر، ورحم الله عايدة الشريف. وإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

---

(١) هذا أثر من آثار ثقافة الشيخ العربية الإسلامية، فقد جاء هذا اللفظ في خبر ورقة بن نوفل، وقد مر ببلال بن رباح وهو يعذب فقال: والله لئن قتلتموه لأتخذنه حنانا، قال ابن الاثير: الحنان: الرحمة والعطف، والحنان: الرزق والبركة، أراد: لأجعلنّ قبره موضع حنان، أي مظنة من رحمة الله، فأتمسح به متبركا، كما يتمسح بقبور الصالحين الذين قتلوا في سبيل الله من الأمم الماضية. النهاية في غريب الحديث والأثر ١/٤٥٢، والسيرة النبوية لابن هشام ١/٤١٨.

الباب الأول

قبل التعارف

محمود شاكر كما قرأته

فَلَقدْ عُرِفْتَ وما عرفَت حَقيقةً

ولقد جُهِلْتَ وما جُهلتَ خُمُولا

«المتنبى»

الفصل الأول

شخصية متفردة فذة

شخصية فذة فريدة تلك التى عثرت عليها وأنا أجمع مفرداتى الثقافية فانهار بمعرفتى له بنيان الصورة التي كانت قد رسخت فى ادراكي المعرفى عنه على نحو خاطئ ومشوش ، واذا به يتجلى أمامى صرحا إنسانيا وثقافيا شامخا عبر ماقرأته له وعنه ، ومن جديد وجدتنى فى حاجة لأن ابدأ مشوارى المتأنى لمعرفته بشكل سليم وشامل .. فمن أين بدأت ؟.

لقد أحالتنى ضرورات ماكنت بسبيله الى كتاب «المعارك الأدبية» للأستاذ أنور الجندى .. حيث كتب عن المعارك التى لم أعاصرها .. لأنها قامت فى النصف الأول من هذا القرن .. فى هذا الكتاب وقع نظرى على اسم «محمود محمد شاكر» فى أربع معارك اثنتين منهما فى مواجهة الدكتور طه حسين .. الأولى عن كتابه «مع المتنبي» والثانية عن تعارض المقالات ، والثالثة كانت بعنوان «مذهبان فى الأدب» ، وكانت بين أنصار الرافعي وأنصار العقاد . أما الرابعة فقد تصدى فيها لعضو بارز فى المجمع اللغوى ، وكان أحد الثلاثة الذين شكلوا الوفد المصرى برئاسة سعد زغلول للتفاوض مع الانجليز وهو عبد العزيز فهمي، حين انتقد بدعتـه كتابة العربية بحروف لاتينية تشبها بكمال أتاتورك فى تركيا .

تعجبت من ورود هذا الاسم فى معارك هذا الكتاب .. إذ لا هو ممن أسماهم النقاد بأعمدة الأدب والدكتور طه حسين، ومصطفى صادق الرافعى ، ولا هو من مشاهير الأدباء كالعقاد والصحفيين كزكي مبارك أو هيكل أو الزيات .. لقد دلتنى آخر معارك الكتاب أى المعركة بين شباب الأدب وشيوخه ، أن صاحب هذا الاسم لم يزل شابا صغيرا ولكن كيف يتأتى لشاب صغير ـ فى ذلك الوقت ـ أن يسخر من عميد الأدب العربى حقا إن رجال أسرتى ـ نصفهم أزهرى والنصف الآخر درعمى كانوا يشجبون طه حسين فى حواراتهم .. ولكنى كنت أرجع ذلك لانحصار توجهاتهم في الشئون الدينية والتدريس أكثر من انشغالهم بالسياسة واهتمامهم بالأدب . ولكن كيف يفسح كتاب يؤرخ للمعارك الأدبية صفحاته لشاب لايشجب طه حسين فقط بل يسخر منه أيضا .. متهماً إياه بإنه سطا فى كتابه «مع المتنبى» على أفكاره هو شخصيا فى كتاب له عن المتنبى لاسيما عند الكلام عن مولد المتنبى الذى رآه الدكتور طه شاذا .. والظاهر أن هذا الشاب قد التقط فى كتابه غير المعروف شيئا آخر عن مولد المتنبى وبرره وأصّله بمجهود كبير .. لأنه هنا لا يمسك بخناق الدكتور طه فحسب .. بل يسفهه ويشهد القراء علي هذا بقوله : «أى امرىء من القراء فهم شرح الدكتور عن مولد المتنبى الذى نقلناه ، فله عندنا ثلاث نسخ من كتابنا عن المتنبى» . فالتمست العذر لهذا اليافع .. وقلت فورة شباب واعتداد بما سبق به الدكتور طه . فلماذا إذن يترصده في غير ذلك من موضوعات ؟ أى حين تعارض طه حسين الرغبات بينه وبين الأستاذ أحمد أمين فى أن ينشىء مدرسة

للزوجات .. وأن ينشىء هو مدرسة للأزواج .. ولماذا اتهمه بأنه أطال فى تحقير مصر والزراية عليها وعلى أرضها .. هل هو أكثر وطنية من الدكتور طه .. أم أنه يترصد أعمدة الأدب من باب الهواية أو الثقة الزائدة بالنفس أم لعناد مبيت فى طبعه؟

لكن المعركة بين أنصار الرافعى وأنصار العقاد .. تقول غير ذلك، فها هو محمود شاكر .. يرد هجوم الأستاذ سيد قطب على مصطفى صادق الرافعى .. وهو من أعمدة الأدب .. وان كان تجاسر وراجع قطبا سياسيا كبيرا من أقطاب ثورة ١٩١٩ هو عبد العزيز باشا فهمى عندما نادى بكتابة العربية بالحروف اللاتينية ، إذن فهذا الشاب الجسور لم يتكلم من فراغ .. ولابد أن وراء غرابته أشياء وأشياء ربما كانت فى أسرته .. أو محيطه .. أو ملامح دفينة فى ذاته .

رويدا رويدا وبعد أن لفتتنى شخصيته وقراءة أعماله، عندئذ تكشف لى أنه نسيج أصيل قائم بذاته .. فهو مثلا لم ينتصر لفكرة العربية الصحيحة بعد عودته من زيارة للبلاد العربية ، كما حدث لمنصور فهمى وهيكل ومحمود عزمى والمازنى ، ولا هو تغرب إلى اللاتينية أو الساكسونية ثم عاد للعروبة مسايرة للجماهير كما حدث للعقاد وطه حسين ـ فى العبقريات والسيرة وظهور الإسلام ـ ولم يكن من الأدباء الذين حجب جيل العماليق عنهم الضوء ـ كما ظننت فى البداية ـ من أمثال على أدهم وعبد الرحمن صدقى وأحمد أمين .

ذلك أننى بعد اندهاشى لمعرفتى المفاجئة بمحمود شاكر تذكرت

أننى قرأت له مقدمتين لكتابى «حياة الرافعى» لمحمد سعيد العريان ، و«الظاهرة القرآنية» للمفكر الجزائرى مالك بن نبى ترجمة الدكتور عبد الصبور شاهين و ... من جديد أعدت قراءة المقدمتين ، ثم استرجعت ذاكرتى ماقرأته ذات مرة لمقابلة أجريت مع الأستاذ يحيى حقى قال فيها ضمن أشياء كثيرة. إنه قبل لقائه بمحمود شاكر ، كانت الكتابة بالنسبة له خاطرا غير تام الأدوات ، ولكنه من خلال لقاءات كثيرة معه فضلا عن قراءته المستمرة لذخيرة ضخمة من كتب الإرث العربى استطاع محمود شاكر أن يكشف له عن روعة البيان وأسراره .

بعد ذلك عرفت أنه شاعر محقق ، كما عرفته مؤرخا من خلال مقالاته التى كتبها بمجلة «الرسالة» عن وحدة مصر والسودان ، أما المفاجأة التى لم أكن أتوقعها فهى الجانب السياسى الذى اكتشفته من خلال الوثائق التى نشرتها مجلة «الطليعة المصرية» والخاصة ببرنامج الحزب الوطنى الجديد بزعامة فتحى رضوان وكانت بتوقيع محمود شاكر .

وقبل ذلك وبعده تأكد لى أننى أمام شخصية متفردة فذة ، وإن كانت الكلمات التى تتردد عنه على شفاه شعراء وأدباء ، وعلى ألسنة علماء كثيرين هنا وفى العالم العربى والإسلامى تلقى فى النفس شيئا من الرهبة المبهمة عن عالم غريب مغترب حاد التوهج لاذع النبرة ، قوى الحجة خاصة حين يقف عملاقا مدافعا عن العرب والإسلام .

كل هذا جعلنى أشفق على نفسى من لقائه ، فقد قال لى المفكر

الإسلامي الجزائرى مالك بن نبى: إنه لو وجد الجاحظ الآن لترك مكانه عن طيب خاطر لمحمود محمد شاكر ، واختصر لى الدكتور عبد الله الطيب المفكر السودانى رأيه فى أربع كلمات «إنه ضمير عروبة مصر» وأكد لى العالم السعودى عبد الله عسيلان ، «انه إرث العدالة الإسلامية المعاصر وأنه القلعة» .

كنت أيام شغفى بمعرفة هذه الشخصية عضو لجنة القراءة بمؤسسة السينما سنة ٦٥ التي كان يرأسها نجيب محفوظ ، وفى هذه الفترة كان الأستاذ شاكر ينشر أسبوعيا ، رده على مقالات «لويس عوض» على هامش الغفران. شيء من التاريخ التى كانت تنشر فى جريدة الأهرام ، وكان الأستاذ نجيب يتابع هذه الردود بشغف واهتمام بالغ .. يقرأ الحلقة ثم يحيلها تباعا على أعضاء اللجنة ليعرف إن كان رأينا موافقاً لرأيه ، وسألته ذات يوم : هل التقيت بمحمود محمد شاكر حتى تعجب به كل هذا الاعجاب ؟ فقال : «إنه أى شاكر ، كان فى زيارة زميلى الأستاذ يحيى حقى أيام كنا نعمل بمصلحة الفنون، وعندما رحت أصافحه ، استقبلنى متهللا بقوله : واد يانجيب ، بقيت لك خطوتان وتكتب العربية الفصحى ، كانت اطراف أصابعه تتحرك مع كلماته فى شكل دائرى ـ ثم دعانى لزيارته ولكنى خفت على ما أكتب منه ، ذلك أنى لاحظت أن لغة يحيى حقى قد أغرقت فى البلاغة بعد أن توثقت علاقته بمحمود شاكر حتى أنه اذا كتب للعمال فى جريدتهم «التعاون» لم يفهموه .

وقادتنى مصادفات الحياة ، التى لم تكن مصادفات على أى حال ، أننى جلست كعادتى إلىّ أستاذى الدكتور محمد مندور - رحمه الله - ليملى علىّ مقالا كما هى عادته ، ولكن غير العادى فى هذه الجلسة أن ما كان يمليه علىّ موجها إلىّ من شغفت بمعرفته ألا وهو محمود شاكر، يناشده أن يخفف من حدته فى ردوده على الدكتور لويس عوض ، وأن ينأى عن التجريح الشخصى خشية أن يؤدى الأمر إلى فتنة قومية ودينية ، كما يذكره بزمالتهما ، وهنا استأذنت أستاذى فى وقفة لا أعرف كنه هذه الزمالة فأخبرنى... « أنه ومحمود شاكر كانا زميلين فى كلية الآداب ، ولكن شاكر تركها بعد احتدام الخلاف بينه وبين الدكتور طه حسين حول منهج دراسة الأدب العربى والشعر الجاهلى ، وكان رأى الدكتور طه هو تعميم الشك فى الشعر الجاهلى ، وكل ماقيل عن الحياة العربية قبل الإسلام .. وكان رأى الطالب أى زميلى محمود شاكر - فى ذلك الوقت - هو البدء بدراسة النصوص ذاتها ومحاولة إدراك صحتها أو بطلانها وزيفها من خلال فحص النصوص من الداخل ، وذلك قبل طرح قضية الشك فيها ، ثم غلبه شيطانه فلم يترك الجامعة فقط بل غادر مصر كلها وسافر إلى السعودية تحت وهم توثيق ماذهب إليه من رأى فى أصالة الشعر الجاهلى فى بيئته وضابعه» .

ولأنى شعرت من هذا الرد كما لو أن أستاذى مندور يشجب محمود شاكر كفكر وكسلوك .. فقد دفعتنى رغبة التأكد مما شعرت به .. أن أسأله كيف يتصدى الطالب لأستاذه بهذا المنطق العلمى وبهذه الغيرة المحمودة علي العرب ، وأمام انبهارى الذى استشعره د. مندور،

وربما لاختلاف الرجلين إبان رحلة الدراسة الجامعية ، أتانى رده وبصوته شيء من التورية والابهام والغموض ، وبيده إشاحة تدل على ضنه بوقته ولهفته لاكمال المقال .. فلم يقل إلا «أنه اصغر أولاد الشيخ محمد شاكر وأنه جن فى النهاية وترك الجامعة ـ ثم أكمل إملاء المقالة».

عرفت من هذا الحوار العابر ، أنه كانت هناك مداخلات بين حياة محمود شاكر والدكتور طه حسين .. ولكن هل كانت هذه المداخلات هى سبب تربصه به فى كل مايكتب .. لا استطيع الجزم بذلك .. لأن كتاب «معارك أدبية» وإن حوى ستين معركة، فعشرون منها كان طه حسين طرفا فيها .. أى أن شاكر لم يكن شاذا حين تربص بـه فى اثنتين منها .

انطلاق يجلو الصورة

عدت إلى منزلى بعد أن أكملت تدوين المقال .. ووجدتنى مدفوعة للبحث عن والد الأستاذ محمود شاكر .. ذلك أننى شعرت من نطق أستاذى مندور لاسمه أنه شخصية معروفة ، ومن ثم تناولت أقرب منهل وجدته تحت يدى وكان «الموسوعة العربية الميسرة» فقرأت «محمد شاكر ١٨٦٦: ١٩٣٩ عالم دينى وقاض مصرى ولد بجرجا وتعلم بالأزهر ، شغل منصب قاضى قضاة السودان أربعة أعوام ، ومن أعضاء الجمعية التشريعية ١٩١٣ ، ناصر الحركة الوطنية فى أيام سعد ، له مؤلفات وبحوث منها «الإيضاح على متن ايساغوجى» و «من الحماية إلى السيادة» و«القول الفصل» .

وانطلقت من هذه الفقرة ، إلى مزيد من الاقتراب الذى يجلو الصورة ويضيف اليها كثيرا من التفصيلات المهمة والضرورية عن البيئة التى نشأ فى أحضانها من أود التعرف إليه ، وذلك أن المرء عادة عندما يعجب بشخص أو ينكره أو يريد أن يعرفه فإنه يذكر ذلك فى أغلب حواراته مع الأصدقاء إذا كانت هناك مناسبة ، أو يعطف الحوار إليه اذا كان الحوار بعيدا عنه ..،. وفى كل مرة أسلك ذلك حيال أسرة الأستاذ محمود شاكر أعرف الكثير والكثير سواء أكان عن والده أم عن اخوته وأسرته كلها .

فقد قيل لى إن بيت الشيخ محمد شاكر كان منارة لقصاد المعرفة من كل البلاد العربية والإسلامية ، وكان مجلسه حافلا بالعلماء والأدباء ورجال السياسة ، من مختلف الاتجاهات السياسية، وألمح لى الشاعر صلاح عبد الصبور الي خلاف الشيخ محمد شاكر مع الشيخ محمد عبده كان حول تطوير الأزهر وتعديل مناهجه ووجوب انفصال[1] ميزانيته عن وزارة الأوقاف .. وأشار لى مصدر آخر عن موقفين متناقضين للشيخ محمد شاكر فى الجزء الثاني من كتاب «الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر» للدكتور محمد محمد حسين من صفحة

---

(١) دخل الأزهر ورقة لعب في النزاع الثلاثي بين القصر ودار الحماية والقوي الوطنية، وكان من سياسة القصر أن يظل الأزهر تابعا له ـ أي تبعية ميزانيته لوزارة الأوقاف ، يحركه متي شاء ضد الانجليز تارة وضد القوي الوطنية تارة أخري ، وكان الأزهر مثارا للنزاع بين الخديو عباس والإمام الشيخ محمد عبده «عشق الكلمة» ص ٤٢ الأستاذ يحيي حقي .

٠٣٠ ٣٧ ففتحت الكتاب لاطالع بمقالين طويلين بقلم الشيخ محمد شاكر، أولهما نشر بصحيفة الأهرام فى عدد ٥ ديسمبر سنة ١٩٢٢ تحت عنوان «ما شأن الخلافة بعد التغيير» حول وضع الخلافة الإسلامية قبل الحرب وحزن المصريين لاحتلال الأستانة .. وفرحهم بظهور مصطفى كمال - أتاتورك - وتتبعهم أخبار كفاحه وانتصاراته على اليونان ومهاجمة الخليفة المخلوع وحيد الدين لاستسلامه للأسطول الانجليزى .. وثانيهما نشره بجريدة «المقطم» بعد ذلك بأشهر عندما فطن لحقيقة الكماليين ، يصور فيها ماشعر به من خيبة الأمل فيهم فيقول: «خليفة يخلع وخلافة تلغى .. وأموال تصادر ، وأوقاف تضم الى أملاك الدولة وفما معنى هذه العاصفة الهوجاء ، عاصفة الجنون التى تهب على العالم فى مشارق ومغارب من عاصمة الجمهورية التركية بقرارات الجمعية الوطنية فى أنقرة»؟ .

وعندما انهيت قراءتى لهاتين المقالتين «١» قلت للصديق الذى ألمح اليهما إن تناقض الشيخ محمد شاكر لم ينف الصدق عنه بقدر ما أثبته، والدليل أنه عاد الى الحق فور تعرفه على حقيقة الكماليين والإتحاديين على السواء ، وليس فى مقدور إنسان مهما بلغت شفافيته أن يتكهن بالأحداث الخفية التى تحدث على أرض بعيدة عنه كل البعد .. بل أنه ظهرت في هذه الآونة أربعة كتب حول هذا الموضوع اثنان يؤيدان المقال الأول حول كمال أتاتورك وهما «الخلافة وسلطة الأمة» الذى نقله عن التركية عبد الغنى سني ، و«الإسلام وأصول الحكم» لعلى عبد

الرازق، وآخران يعارضانه وهما «الخلافة والإمامة العظمى» لمحمد رشيد رضا، و«النكير على منكرى النعمة من الدين والخلافة والأمة» لمصطفى صبرى .

وقد تأكدت من عدم مبالغتى فيما يخص استمساك الشيخ محمد شاكر بالحقيقة دائما عندما دلنى الدكتور محمود الربيعى على كتاب و«اصدع بما تؤمر» «كلمة حق» حيث وجدته بقلم ابنه العلامة أحمد شاكر وهو من أئمة الحديث والسنة .. وقدم له المحقق المعروف وعضو مجمع الخالدين عبد السلام هارون الذي يمت للاثنين بصلة قرابة «فوالده» الشيخ محمد هارون شقيق والدة الشيخ أحمد شاكر .

فى هذا الكتاب وجدت الشيخ أحمد يراجع مقالا للأستاذ زكى عبد القادر جاء فيه مايمس الرسول صلى الله عليه وسلم ويطلب منه الرجوع عنه .. ويستشهد بموقف حدث مع والده «فحين تقرر إرسال الشيخ طه حسين إلى فرنسا فى بعثة للحصول علي رسالة الدكتوراه ، أراد حضرة صاحب العظمة السلطان حسين كامل رحمه الله أن يكرمه فاستقبله فى قصره ، وحباه هدية، ولما كان من المفروض ـ بعدها ـ أن يؤدى السلطان الصلاة فى مسجد المدبولى القريب من قصر عابدين .. فقد ندبت وزارة الأوقاف خطيبا متكلما مقتدرا ، فأراد هذا الخطيب أن يمدح السلطان بما كرم به الشيخ طه حسين ، فخانته فصاحته فزل زلة لم تقم له قائمة من بعدها ، إذ قال أثناء الخطبة «جاءه الأعمى فما عبس فى وجهه وماتولى» وكان من شهود هذه الصلاة والدى الشيخ محمد

شاكر وكيل الأزهر .. فقام بعد الصلاة يعلن للناس فى المسجد أن صلاتهم باطلة ، وأمرهم أن يعيدوا الصلاة فأعادوها .

ذلك بأن الخطيب كفر بشتم رسول الله صلى الله عليه وسلم تعريضا لا تصريحا ثم ذهب الوالد رحمه الله فورا إلى قصر عابدين وقابل محمود شكرى باشا رحمه الله ، وهو له صديق حميم ، وكان رئيس الديوان اذ ذاك ، وطلب منه أن يرفع الأمر إلى عظمة السلطان وأن يبلغه حكم الشرع فى هذا بوجوب إعادة الصلاة التى بطلت بكفر الخطيب» .

وكاد الأمر أن يقف عند هذا الحد، لولا أن دخل فيه دخلاء السوء .. ممن يحرصون كل الحرص فيما زعموا عن حقوق الأفراد ، ويغلون أشد الغلو فى هضم العلماء حتى يشغلوا بأنفسهم عن نصرة دينهم، وكان خطيب المسجد متصلا ببعض المستشارين الكبار إتصال التابع بالمتبوع يؤدى لهم كثيرا من الخدمات «فأشاروا عليه بأن يرفع دعوى جنحة مباشرة على أبى لأنه سبّه سباً علنياً فى المسجد وفى ديوان السلطان .

عندئذ كان تصميم الوالد وعزمه ، على أنه اذا وصلت القضية إلى المحكمة ، ألا يشهد رجال الأزهر بل أن يطلب ـ حتى ـ ندب مستشرقين ليحددوا بخبرتهم فى لغة العرب دلالة كلام الخطيب من الوجهة العربية أهو تعريض أم لا ؟ ثم يكون الفصل القضائى طبقا لما يقرر الخبراء .

ثم تدخلت الحكومة فى الأمر ، خشية ما قد تفجره هذه القضية من أحداث وأخطار ، وطوى بساطها قبل أن ينظرها القضاء ، ولكن الله لم

يدع لهذا المجرم جرمه في الدنيا ، قبل أن يجزيه جزاءه فى الآخرة ، فأقسم بالله - الكلام للشيخ أحمد - لقد رأيته بعينى رأسى ، بعد بضع سنين وبعد أن كان متعاليا منتفخا ، مستعزا بمن لاذ بهم من العظماء والكبراء ، رأيته مهينا ذليلا ، خادما على باب مسجد من مساجد القاهرة يتلقى نعال المصلين يحفظها ، فى ذلة وصغار ، حتى لقد خجلت أن يرانى وأنا أعرفه وهو يعرفنى ، لا شفقة عليه ، فما كان موضوعا للشفقة ، ولا شماتة فيه فالرجل النبيل يسمو علي الشماتة ، ولكن لما رأيت من عبرة وموعظة .

عفوا لهذا الاستطراد ، الذى ما أتى تحت سن قلمى إلا للتوقف على عجائب القدر ، أن يخوض الشيخ محمد شاكر ، معركة سببها تكريم الشيخ طه لحصوله علي منحة الدكتوراه من فرنسا حول ابن خلدون، وأن يخوض الابن معركة أخرى سببها الدكتور طه حسين و عاد من فرنسا بعد أن درس اللاتينية مع التاريخ ليدرس العربية، ولما كانت هذه السفرة الطويلة قد باعدت بينه وبين العربية ، فقد أراد أن يغطى هذا بالتشكيك فى جذورها على حد قوله «[1]» أنه سيسلك فى بحثه عن العربية مسلك المحدثين من أصحاب العلم والفلسفة فيما يتناولون من العلم والفلسفة ، فيصطنع فى العربية منهجا كالمنهج الذى اصطنعه ديكارت فى مجال الفلسفة» .

ومن خلال ماقاله راح يشك فى الشعر الجاهلى .. فأهاج محمود

---

(١) الأتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر تأليف الدكتور محمد محمد حسن .

شاكر شابا .. فثار وراجعه ثم ترك له لا الجامعة، فقط بل مصر كلها .. وهذه جسارة لم نسمع بمثلها من قبل وقد تساءل الأستاذ كمال النجمى عن هذه الغضبة العجيبة فكتب «هل حدث قط فى تاريخ الأدب العربى .. أو فى تاريخ الأمة العربية من المحيط إلى الخليج .. أن هاجر أديب من وطنه احتجاجا على نفر من مواطنيه زعموا أن الشعر الجاهلى أكثره زائف .. وأنه من وضع الرواة فى العصرين الأموى والعباسى لا من نظم أمرىء القيس وطرفة والنابغة وزهير وسائر ذلك العقد النظيم ، من آباء الشعر العربى فى الجاهلية»؟

ثم يجيب : «نعم .. حدثت هذه الهجرة العجيبة المثيرة .. حدثت مرة واحدة فى تاريخ الأدب العربى وتاريخ الأمة العربية . وكان بطلها هو الكاتب الشاعر اللغوى المحقق الفقيه العلامة الأستاذ محمود محمد شاكر أمتع الله به وأطال بقاءه» .

ويعلق الأستاذ النجمى على غضبة شاب كان يومئذ في التاسعة عشرة من عمره لكرامة الأدب العربى كله شعرا ونثرا ـ ولكن فى جعبته من العلم مايتطلع الى مثله شيخ كبير فى اللغة وعلومها .وملأ عقله من الذكاء مايكاد يحرق أعصابه بقوله : «هذه الحادثة الفذة تفسر كل ماكتبه أو قاله أو عمله الأستاذ محمود شاكر طوال حياته الأدبية الوارفة الظلال .. فهو رجل صعب المراس تفور بالحمية والحفاظ فى منهجه الفكرى وأسلوبه الأدبى .. وموقفه من الحياة والمجتمع .. وله فى جميع أحواله حكم عقله وحده .. ومنهجه الخاص فى النظر إلى بنات أفكار الناس ، أو بنات أعمالهم» .

وقد كشف شاكر عن وجه هذه العلاقة في مقدمته لكتاب الأستاذ «مالك بن بنى» «فصل فى إعجاز القرآن» حيث أوضح أن سبيل إدراك الإعجاز إنما هو من طريق النظر فى كلام من نزل عليهم القرآن .

بل أنه فسّر فزع النبى صلى الله عليه وسلم من الوحى فى أول مرة يوحى إليه فى الغار بأنه لم يكن من منظر الملك كما يذهب إلي ذلك معظم أصحاب السير ، بل يرى أن الفزع كان من سماعه هذا البيان المفارق لبيان البشر فهو يقول «وذلك أنه قد أتاه أمر لا قبل له به، وسمع مقالا لا عهد له بمثله ، وكان رجلا من العرب ، يعرف من كلامها ماتعرف ، وينكر منه ماتنكر وكان هذا الروع الذى أخذه ، أول إحساس فى تاريخ البشر ، بمباينة هذا الذى سمع ، للذى كان يسمع من كلام قومه» .

ياجلال الله !! أللشعر الجاهلى كل هذه المكانة السامية حتى ليكاد يأخذ مكانا مرتكز الثوابت في ثقافتنا العربية «القرآن الكريم والسنة المشرفة» «ألهذا قال رسولنا الكريم يوما لحسان بن ثابت مامعناه - أنشدنا قصيدة جاهلية فقد رفع الله عنا آثامها» .

وكيف تأتى لمحمود شاكر وهو فى التاسعة عشرة أن يتوصل إلى هذا الربط السليم .. حقا ماقاله الأستاذ كمال النجمى عندما ألمح أنه كان فى هذه السن مشروعا للنعوت الستة التى وصف بها وهى الكاتب، الشاكر ، اللغوى ، المحقق ، الفقيه ، العلامة محمود شاكر .

ذلك أن معظم كتابنا الكبار وكما نقرأ لهم الآن ، لا يأبهون للثوابت

الأساسية قط .. بل إنهم يسخرون من الشعر القديم عامة فى قولهم عنتريات فارغة .. أو الشعر الجاهلى خاصة عندما يقهقون ساخرين :

مكــر مفــر مقبل مدبــر معـــا

كجلمود صخر حَطّه السيل من علِ

★★★

لذلك فقد عشت فترة انتظارى للقائه أرسم له بخيالى آلاف الصور .. بل إنى ماقرأت فى هذا الوقت عن كاتب أو شاعر أو فقيه أو لغوى من أعلام العرب إلا تخيلت محمودا شاكرا فيه .. كنت ألجأ إلى الخيالات ليس لاشفاقى على نفسى من لقائه فقط .. وإنما لأنه كان مغيبا فى المعتقل بعد مقالاته الثمانية الشهيرة التى ضمنها الجزء الأول من كتابه «أباطيل وأسمار» ثمانية عشر شهرا من ٣١ اغسطس ١٩٦٥ حتى ديسمبر ١٩٦٧، ودلنى هذا الكتاب أيضا على أنه ظل معتزلا الكتابة من ١٩٥٣ حتى ١٩٦٤ وكان قبل ذلك معتزلا للمجتمع كله .

ورغم أسلوبه البليغ الذى صاغ به هذه المقالات الثمانية فقد وجدته يدين نفسه بشدة لاعتزاله الكتابة للصحافة فظهر لى منه أنه صاحب نفس لوامة .. وهو خلق يستحسنه ديننا الحنيف ، حيث قال : «ليس حسنا أن يعزل كاتب قلمه ! ولكن هكذا قدر الله علىّ أن أفعل، فنحيته عن أناملى ، لكى أفرغ للقراءة والتفكير ، حتى تصرّم على ذلك أكثر من ثلاث عشرة سنة فلما عدت اليه أحمله ، ثقل محمله ، وقد صُدِىء سنه، ورسف فى قيود الإهمال خطوه ، وإذا هوّة سحيقة القرار قد انخسفت

بيني وبينه، كهوة بين حبيبين تمادى بينهما جفاء مستحدث من ملال، ولكني على ذلك كله اليوم: مرغم على حمله ، ومرغم على استحياء ما كان بيني وبينه من حب متضرم ، ومزغم علي أن يكون اعتذارى إليه صادقا ، مهما تكبدت فى سبيل ذلك من مشقة وعنت ، ويشاء الله الذى قدر وقضى أن يكون الرجل الذى جعلت كلامه حجتى على من لامنى ، يوم عزمت علي تعطيل هذا القلم ، هو نفسه الذى أحمل القلم من أجله ، وخبر ذلك أنى كنت أقول يومئذ لمن يلومنى :

إذا كان علمُ النـــــاس ليس بنافعٍ

ولا دافـــعٍ ، فالخُسْـــر للعلماء

قضى الله فينا بالذى هو كـــائنُ

فتـــم ، وضاعت حكمة الحكماء!

والأستاذ شاكر يقصد أن صاحب هذه الأبيات التى كانت حجته للاعتكاف وهو أبو العلاء المعرى ، كانت أيضا السبب فى شق شرنقة إعتكافه ، ليرد على مقالات الدكتور لويس عوض «على هامش الغفران .. شىء من التاريخ» التى نشرها فى الأهرام سنة ١٩٦٤ فهى تدور حول شيخ المعرة ، أبى العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان المعرى رحمه الله عليه .

تخيل قراء «الرسالة» التى رد فيها محمود شاكر علي مقالات الدكتور لويس عوض ، أنهم سيفوزون بأضواء جديدة على أدب أبى العلاء ذلك الرجل الذى نصب نفسه للدفاع عن أمته العربية الإسلامية ..

ضد شبح الغرب وغوله الذى يصبو إلي نهش أمته وفرقتها عن آخرها .. وذلك الرجل الذى له نظر خاص فى نوايا وأفكار الكتاب .. وكتابة لويس عوض بالذات .. من مناداته بالعامية إلى تلمذته على المستشرقين والمبشرين و... فعندما قرأ كتابات لويس عوض عن أبى العلاء .. وجدها جماعا لقضايا الأمة العربية الإسلامية فى صراعها مع الغرب .. فراح يفك جديلة اللثام الذى يلجم خطره ميادين هذا الصراع حيث تناوله فى الفصول المنشورة فى السفر الأول من كتابه «أباطيل وأسمار» بقوله :

«ولهذه الفصول غرض واحد ، وإن تشعبت اليه الطرق . وهذا الغرض هو الدفاع عن أمة برمتها ، هى أمتى العربية الإسلامية ، وجعلت طريقى أن أهتك الأستار المُسدلة التى عمل من ورائها رجال فيما خلا من الزمان ورجال آخرون قد ورثوهم فى زماننا وهمهم جميعا كان أن يحققوا للثقافة الغربية الوثنية كل الغلبة علي عقولنا ، وعلي مجتمعنا ، وعلي حياتنا ، وعلي ثقافتنا وبهذه الغلبة يتم إنهيار الكيان العظيم الذى بناه آباؤنا فى قرون متطاولة وصححوا به فساد الحياة البشرية فى نواحيها الإنسانية والأدبية ، والأخلاقية والعملية ، والعلمية، والفكرية وردوها الي طريق مستقيم علم ذلك من علمه وجهله من جهله ».

ومن الغريب أنه طوال نشر محمود شاكر لهذه المقالات الثمانية ، وجدنا ويا للعجب أن أقلاما كثيرة راجعت ماكتبه دفاعا عن لويس

عوض، دون حتى قراءتها ، بينما لم نجد كاتبا واحدا يؤازر محمود شاكر مع أنه كان صادقا تماما ، كما حدث عندما راجع محمود شاكر الدكتور طه حسين بالجامعة ، مما يرجح القول أن تكتلا فى دهاليز الوسط الأدبي على مايبدو قد حدث ضد كتابات شاكر ، الأمر الذى أدى في النهاية الى إغلاق الرسالة والزج بمحمود شاكر إلى السجن .

هذا ما عرفناه عند طبع محمود شاكر هذه المقالات مع بقية ماكتبه مما لم تنشره الرسالة ، حيث قال : «حين شرعت فى كتابة هذه الفصول «سنة ١٣٨٤ هـ/ ١٩٦٤» كنت قد قدرت لها مقادير ، ونهجت لها نهجا مستتبا ، ظننت أنى بعون الله ، قادر علي أن أمشى فيه وفى دروبه أتهادى لايذعرنى شىء حتى أبلغ نهايته ، ولكن شاء الله غير ماشئت ، وقدر غير ماقدرت وخابت ظنونى واختطفت عن السير فى أوائله فدع عنك بلوغ نهايته ثم كان ما كان ».

والظاهر أن حصارا قد ضرب حول كتابات شاكر طوال حياة د. طه حسين خوفا من سطوته، أضيفت إليها سطوة الدكتور لويس عوض المستشار الثقافى للأهرام أكبر جريدة وأشهرها فى الشرق الأوسط فيا للظلم الذى وقع علي هذا الرجل لمجرد اختلافه فى الرأى !

في انتظار الفرج

على أنه فى انتظارى لخروج محمود شاكر من السجن ..رحت أبحث في الجزء الذى ظهر من «أباطيل وأسمار» وفى غيره من كتبه

ومقدماته لكتب غيره عن شخصية محمود شاكر نفسه ومافعلت به أقدار اختياره لهذه الحياة التى وهبها للدفاع عن حياض العربية وتراثها ، فوجدته قد قال عن مذهبه ومسلكه: «عندما التحقت بأول دور التعليم كان جيل «دنلوب» مستشار وزير معارف مصر أيام الاحتلال قد انتشر واستوي على سوقه ، وتولى هذا الجيل تعليمهم ، وصار له رأى ظاهر ، فى سياسة بلاده فلما انفجر الأمر انفجارا ووقع النزاع بين الفطرة السليمة التى تسكن فى قلوب الشعوب وبين ثقافة المحتلين التى تضرب علي الأعين غشاوة، وعلى القلوب سدا صفيقا من الجهل والغطرسة ، قامت ثورة نة ١٩١٩ . بيد أن هذا الصراع فهم على غير وجهه الصحيح، لأن مهارة المستعمر ودسائسه الخفية ومكره البعيد الغور جعل ظاهر الأمر صراعا بين أحزاب تريد أن تتولى الحكم تحت سلطان هذا المستعمر ، مع أن هذا الصراع فى الحقيقة ، كان صراعا بين حضارتين طال بينهما دهورا طوالا .. وكان صراعا بين العرب ودينهم وآدابهم وثقافتهم وبين أعاجم أوربا ودينهم وثقافتهم .

هكذا نشأ الفتى الذى تربى فى بيئة علمية وطنية وعربية وإسلامية أصيلة وفى نفسه صراع يشده إلى هذه البيئة ويقربه منها استعدادا شخصى ، يتبلور فى شغفه ونهمه بكل مايتعلق بالقراءة وتحصيل تاريخ أمته وآدابها، واختياره موقف الدفاع عنها وعن ثقافتها وبين ثقافة المحتلين وصنائع دنلوب التى كانت تحاول أن تلقى على القلوب غشاوة من الجهل، لكن محمود شاكر كان قد اختار ، وكان عليه أن يتسلح للحرب الضارية الطويلة .. وساعده على خوض غمارها قدرة فائقة على

الاستيعاب وأصالة وعمق فطريان وذاكرة حديدية ، وجدية لاتقبل الوسطية أو الدبلوماسية . مع رغبة شديدة فى التحصيل حتى أنه كان يتوجه بعض دروس الأزهر بعد الفراغ ، من دروس المدرسة الأميرية التى التحق بها وكان بالقسم العلمى ، وقد أحدث له ذلك مشكلة عندما رغب فى دخول كلية الآداب بعد حصوله على البكالوريا ، ومن عجيب الأقدار أن يتحمس له عميد كلية الآداب وكان آنذاك الدكتور طه حسين الذى أقنع الدكتور لطفى السيد مدير الجامعة بإلحاقه بكلية الآداب ، فهو صديق لوالده ويعرف عن الطالب إدراكه لعبقرية اللغة بعد قراءته لسان العرب ، وإعادة قراءة كتاب الأغانى مرات ومرات .. بجانب اطلاعه الواسع فى علوم الفقه والتفسير والحديث والتاريخ مما أهله لأن يعرف طريقة للنشر ويصبح اسما معروفا قبل التحاقه بالجامعة من خلال بحوثه وتحقيقاته وقصائده .

التحاقه بالجامعة
واصدامه بالأستاذ

وعندما التحق الفتى بالجامعة ، دخلها ومعه كذلك ثورة الشباب وأحلامه وتهاويله .. دخلها ومعه أيضا كل ما كتبه المستشرقون من مرجليوث إلى نيلينو إلى جويدى عن الشعر الجاهلى . ويقول عالمنا : إنه عندما جلس فى قاعة الدرس يسمع مصغيا إلى أستاذه الدكتور طه حسين . إلا أنه رغم أستاذيته وأفضاله عليه التى تملأ قلبه ، لم تأسره كلماته التى كان يرددها طعنا وتشكيكا فى الشعر الجاهلى .. بل

انقبض قلبه حيث طفا متن مقال مرجليوث فى الشك فى الشعر الجاهلى الذى كان قد قرأه من زمن مع كتابه عن سيدنا محمد واستسخفهما معا .. طفا كتابا مفتوحا يقرأ المتن بعينه ويسمع الحاشية على المتن بأذنه .. ولكنها حاشية من نوع مبتكر مبتدع جديد مباين للحواشى التى كانت مألوفة يومئذ عند طلبة الأزهر .. وتعجب الطالب لعدم ذكر اسم مرجليوث ولو مرة واحدة على لسان الدكتور طه فأخذته الحيرة حتى لم تدع له ولا لقلبه سكينة فسار على الجمر حافيا .. فهو طالب فى السابعة عشرة من عمره .. وأستاذه الدكتور طه حسين فى السابعة والثلاثين من عمره وله هيبته وهيمنته وله أفضاله عليه أيضا .. فماذا يفعل !! ؟

دارت الأيام والفتى يغدو ويروح وهو يسمع يوما بعد يوم بينما حقيقة معنى الجامعة فى نفسه يتقوض ، وينهار أمام عينيه .. فى خلال ذلك وجد نفسه يقف مجادلا الدكتور طه فى حقيقة منهج الشك ، وأنه لابد من فحص النصوص الجاهلية قبل الحكم عليها بالانتحال أو الوضع ، وما إذا كانت هذه النصوص مجرد شعر إسلامى افتعله الرواة ونسبوه إلى شعراء العصر الجاهلى ، فما أن أفصح عن رأيه حتى انتهره أستاذه وهو ينهى المحاضرة .

وتلفت فتانا فلم يجد أحدا من زملائه يؤيده كما تصور .. بل انفضوا من حوله خوفا من سطوة الدكتور طه أو جهلا بفحوى كلام

الفتى ، ولم يجد من يشد أزره يومئذ إلا الطالب محمود الخضيرى ولم يكن من زملائه فى القسم العربي بل من قسم الفلسفة ، فلا سطوة للدكتور طه عليه .

وهنا أدركت لم كانت تنويهات الدكتور مندور السابقة يوم سألته عن شاكر وذكر لى أنهما كانا زميلين بالقسم العربى أيام احتدام خلافه مع د . طه حسين .. ؟ وربما كان مندور من الطلبة الذين انفضوا من حول محمود شاكر ، رهبة من الدكتور طه وربما كان الأمر على خلاف ما نظن ، ذلك أن مندوراً كان يجمع فى هذه الأيام بين الدراسة فى كلية الآداب وكلية الحقوق .

بعد هذه المواجهة استدعى الدكتور طه حسين فتانا وعاتبه ، إلا أن الخلاف بينهما استحكم وتهاوت هيبة الجامعة فى نفس محمود شاكر بعد طرقات المعاول التى هدمت كل شيء بغتته ، ونفدت قدرته على الصبر .. فانقطع عن الدراسة ، فقد كانت فترة استفحال الخلاف بين محمود شاكر ود . طه حسين .. بكل ما صاحبها من صراع فرض نفسه فى هذه الحقبة على الفكر العربى وأيضا على نفسية الشاب الغيور الذى لم يكن قد تجاوز عامه التاسع عشر .. وهى فترة عارمة من الفوران ، حتى أفضى به احتدامها إلى استحصاد عزيمته على أن يهجر مصر كلها لا الجامعة وحدها .. غير مبال بإتمام دراسته الجامعية .. وعزم أن يسافر إلى مكة والمدينة طلباً للعزلة وتلمساً للحقيقة .

وعندما ذهب أحد أساتذته فى الجامعة وهو المستشرق الايطالى

«نيلينو» إلى مجلس والده فى محاولة لإقناع ابنه بالتعقل والعودة إلى الجامعة وأن يقفز فوق خطأ الدكتور طه حتى ينهى دراسته وكان من شهود هذه الجلسة عشرون ضيفا كلهم يعرفون جموحه ، فرد محمود شاكر على نيلينو : نعم أنا مقتنع بكل ما تقوله عنى وعن تسرعى وتهورى ، ومخاطرتى بمستقبلى ، ولكنى لم أكن كما وصفت إلا لشىء واحد وهو أن معنى الجامعة فى نفسى قد أصبح ركاما فإن استطعت أن تعيد لى البناء كما كان – أى يتراجع الدكتور طه عما ذهب إليه – فأنا أول ساكن يدخله لا يفارقه ، فتعجب نيلينو من هذا الاندفاع وقال : ما هذا ؟ ماذا تعنى ؟ ووجم أستاذه نيلينو ، وأحس الفتى بنظرات الحاضرين فى مجلس والده وكأنها السهام تنفذ فى جميع أعضائه .. وبغتة قال أحد الجالسين وهو الشيخ [1] عبد الوهاب النجار : «إن هذا الفتى كان فى رأسه أربعة وعشرون برجا ، فطاروا ولم يبق إلا برج واحد ، عسى الله أن ينتفع به .. أو يسترد الأبراج التى طارت ».

تأملت مليا موقف مفكرنا شابا . فها هو ذا لم يستسلم لصغر سنه أو يركن إلى كونه لا يزال طالبا قليل الخبرة عديم الحيلة . بل أفضت حماسته وغيرته على أمته العربية إلى أن يتخطى الأخطار فى عنفوان شبابه ، فقذف أحد هذه الأعمدة السامقة التى تبوأت مكانتها على ساحة الثقافة العربية والاسلامية وهو طه حسين بحجر أصاب مرماه ..

---

(١) مؤلف «قصص الأنبياء» الذى طبع عدة مرات واستفاد منه كثير من الباحثين والكتاب توفى سنة ١٩١٤ .

وكأن لسان حاله يقول : إذا كان قدر للعمالقة أن يسيطروا بطول هاماتهم ، فإن الارتفاع فوق هذه الهامات يجعل الرؤية أثقب والتحديق أشد وأنفذ .. وإذا كانوا قد قالوا إنه قد شارك في صنع سعد زغلول زعيما ، تجارب إنسانية وثورة شعبية كثورة سنة ١٩١٩ ، فقد رأى أنه شارك فى صنع أحد أعمدة الفكر فى زمنها - وهو طه حسين - ملامح شخصية سلطت عليها أضواء وأصباغ وديكورات ومؤثرات صوتية .. فانحصر همه فى خلق انطباعات فارغة لا قناعات حقيقية .. وكان لزاما كشفهم وإلقامهم حجرا نافذا .. فكانت مراجعة الطالب محمود شاكر لأستاذه طه حسين وهو من هو .. فقد كان اسم طه حسين هو الجامعة نفسها .

نبهنى هذا المشهد إلى شىء أدق وأعمق .. ذلك أن هذا المشهد صور فتانا واقفا وحيدا بين المتحلقين حوله فى مجلس أبيه ، أحدهم يستصغر كلامه ويحاول إعادته إلى الجامعة ، وذاك يصفه بأن أبراج عقله قد طارت .. أى أنه مجنون ، وثالث ورابع ، وشبه يقين بأنه لن يجد سميعا أو نصيرا .. كيف تحمل هذا كله .. إنها كانت ولا شك محنة لهذا الشاب .. محنة تطحن النفس ، وتضعف الثقة بها حيث قيل «إنه من العسير على المرء أن يؤمن بشىء ، عندما يكون هو الوحيد الذى يعتقد به ، دون أن يستطيع أن يتحدث عنه مع مخلوق» لاسيما ورجلنا كان فى التاسعة عشرة من عمره لا يزيد .. ثم إن محنته هذه ناتجة عن مواجهته لأستاذ يكاد يكون فى سن أبيه .. ليس هذا فقط بل له هيلمان

وسطوة هو الدكتور طه حسين صاحب الجبروت المنصبي .. وألمع أساتذة الجامعة قاطبة .

إن وقع هذا الموقف على نفس هذا الشاب ، كان ولا شك أشد من وقع الحسام المهند ، كما يقولون ويهيأ لي أنه مهما بلغت قدرات هذا الشاب المعرفية لا يمكن أن تشد من أزره .. ولابد أن شاكرا في هذه اللحظات بالذات قد اكتشف إلى أي مدى يمكن للمرء أن ينفصل عن غيره ، أقرانه وأهله وأصدقائه حتى بلده .

ولاشك أن شاكر أدرك في هذه الجلسة أن الإنسان إذا أصابه الألم فإن ألمه هذا لن يمس أحدا غيره .. ولن يحس بعمقه سواه .. لأنه يسبب له وحده نزيفا داخليا لا سيما أنه ما من أحد حوله يمكنه أن يخفف من تدفقه ولو قليلا .. حتى وإن كان ممن يحبهم حبا عظيما كوالده وأصدقائه وأساتذته ، وكان عليه هو وحده مواجهة هذه المحنة والتصدي لها إذا استطاع أو أراد .. ولكن من أين له العزم والمقدرة وهو كان في شبه غيبوبة – كما أتصور – دفعت به إلى حافة الهاوية .. وعلى شفا مفارقة الحياة ؟ .

هيأ لي أن هذا الحادث ، لابد أنه كان بعيد الغور في تصاريف هذه الشخصية ، فهو بمثابة النار التي تعمل شدتها على تخليص الذهب من الشوائب العالقة به .. وأنه لابد أن يلقى بظلاله الكثيفة على حياة هذا الرجل ، كتابته على الأخص .. فكيف لي أن أكتشف أصداء هذا الحادث واستجلي دلالاته ؟ .

لم يكن أمامى إلا استقراء نبذ حياته المتفرقة فى كتبه ومقالاته التى كنت قد ألمحت إليها .. فلم يتبق لى إلا أن أعيد قراءة المقدمات التى قدم بها لكتب الآخرين مثل «حياة الرافعى» والظاهرة القرآنية» .. فعدت إليها أقرأ العناوين ، التقط المعانى ، أخطف السطور ، أطلع على الهوامش .. وأخيرا عدت إلى فهرس الأعلام فى الكتاب الأول . حيث اكتشفت ورود اسم محمود شاكر فى صفحات ١٥ ، ٢١٢ ، ٢١٧ ، ٢٨٠ ، ٢٨٥ ، ٣٣١ مع أنى عندما قرأت الكتاب أول مرة لم ألتفت إلا إلى ما جاء فى صفحات ١٥ ، ٢١٢ ، ٢١٧ ، وهى خاصة بمقالات للرافعى كان قد كتبها بوحى أو بتحريض من رسائل محمود محمد شاكر . فمن المعروف أن الرافعى كان يسكن طنطا بعيدا عن الوسط الأدبى فى القاهرة وما يمور به من أحداث بينما شاكر فى وسطه .. وكان لزاما على شاكر أن يلفت نظر صديقه الرافعى بين الحين والآخر إلى ما قد يغيب عليه .. كواجب على المريد نحو شيخه كما عرفنا من المقدمة الرائعة البليغة التى كتبها محمود شاكر لهذا الكتاب نفسه التى استغرقت سبع صفحات ذكر فيها : «عرفت الرافعى معرفة الرأى أول ما عرفته ثم عرفته معرفة الصحبة فيما بعد ، وعرضت هذا على ذاك فيما بينى وبين نفسى فلم أجد خيراً مما كنت أرى ، وتبدّت لى إنسانية هذا الرجل كأنها نغمة تجاوب أختها فى ذلك الأديب الكاتب الشاعر ، وظفرت بحبيب يحبنى وأحبه .. لأن القلب هو الذى كان يعمل بينى وبينه ، وكان فى أدبه مس هذا القلب ، فمن هنا كنت أتلقى كلامه فأفهم عنه ما يكاد يخفى على من هو أمثل منى بالأدب وأقوم على العلم وأبصر بمواضع الرأى» .

الفصل الثانى

حجر الزاوية فى شخصية شاكر

(قصة الإنتحار)

كنت أود أن أثبت هنا نص رسائل محمود شاكر التي حرض عبرها أستاذه الرافعى لإبداء رأيه فى قضايا شتى لما تحمله من علمه بالفقه والنحو ومن الغيرة على دينه .. لولا أنها تبعدنا عن موضوعنا الأصلى .. تؤكد هذا المعنى ، وأن هذه الرسائل كانت وراء مبادرة الرافعى لكتابة مقالات من عيون الأدب حيث ينهى شاكر أحد رسائله للرافعى - حول تفضيل أحد الكتاب لعبارة جاهلية هى (القتل أنفى للقتل) على قول الله تعالى فى كتابه الحكيم «ولكم فى القصاص حياة» .. استنجد شاكر بالرافعى مستفزا إياه للرد عليه بقوله : «وأعلم أنه لا عذر لك أقولها مخلصا ، يمليها علىّ الحق الذى أعلم إيمانك به .. ثم أعلم أنك ملجأ يعتصم به المؤمنون حين تتناوشهم ذئاب الزندقة الأدبية التى جعلت همها أن تلغ ولوغها فى البيان القرآنى .. ولست أزيدك فإن موقفى موقف المطالب بحقه وحق أصحابه من المؤمنين ، وأذكر حديث رسول

الله صلى الله عليه وسلم : «من سئل علما علمه فكتمه جاء يوم القيامة ملجما بلجام من نار» أو كما قال والسلام عليكم ورحمة الله ثم وقع م . م . ش ..

ويصور العريان حالة الرافعي بعد أن قرأ هذه الرسالة بقوله : «أخذ يردد الحديث الذى ذكره محمود شاكر مرات ومرات وملأ نفسه بمعانيه .. وبعد الاحتشاد رد على الكاتب كما طلب منه شاكر «وقد التفت إلى هذه الرسائل عندما قرأت كتاب الأستاذ محمد سعيد العريان عن الرافعي أول مرة .. أما الذى جد لى عند قراء تى له بحثا عن ظلال محنة شاكر عند مفارقته للجامعة ، فهو ورود اسمه فى فهرس الاعلام فى الصفحات ٢٨٠ ، ٢٨٥ ، ٣٣١ ، ٢١٢ ، ٢١٧ لا سيما أنه استوقفنى يوم قرأت الكتاب لأول مرة لما بهما من رموز ، حيث كتب العريان ما يلى : «وقعت حادثة اهتزت لها نفس الرافعي اهتزازا عنيفا ونقلته من حال إلى حال ، جلست يوما إليه نتحدث فى أحاديثنا فقال إن صديقنا «م» لم يكتب إلينا من زمن .. ليت شعرى ما منعه عنا ؟ إن بى قلقا عليه وفى نفسى أن أراه أو أعرف من خبره» .

وفى صبيحة اليوم التالى طالعتنا الأهرام بخبر غامض .. «أن شابا من الأدباء ، هو ابن شيخ كبير من شيوخ الأزهر ، قد حاول الانتحار بقطع شريان فى يده » .

«وقرأ الرافعي الخبر فأربد وجهه وانفعلت نفسه ، وقال : اقرأ ، إنه هو ..»

قلت : «من تعنى» ؟

قال : صديقنا «م» لقد غلبه شيطانه على دينه آخرة أمره .. غفر الله له .

«فجزعت وطارت نفسى ، وقلت له وأكاد أغص بريقى «م» إنك لتتوهم وإنك مما تفكر فى شأنه ليخيل إليك . إن لصديقنا ديناً ، وإن فيه تحرجا وخشية وما أراه فى أى أحواله يقدم على مثل هذه الجريمة» .

ولكن الرافعى لم يلتفت إلى ما أقول ، وأخذ يحوقل ويسترجع ويستعيذ بالله من غلبة الهوى وفتنة الشيطان ، ثم مد يده إلى مكتبه فكتب رسالة إلى «م» يسأل عن حاله وخبره ويرجو له العافية فى دينه ودنياه ، ثم يطلب إليه أن يصف له ما كان منه ، وما حمله عليه وما آل إليه من أمره ، ولم ينس مع كل أولئك وما تفيض به نفسه من الحزن والألم أن يرجوه الدقة فى وصف المرحلة التى كان فيها بين الحياة والموت ، فإنها المرحلة التي لا يحسن أن يصفها إلا من أحس بها » .

ثم طفق الأستاذ سعيد العريان يتحدث عن «م» فيقول : وصديقنا الأستاذ «م» أديب واسع المعرفة ، له دين ومروءة ، وفيه تحرج وخشية ، وقد نشأ فى بيت له ماض فى الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه والذود عن حرماته ، وهو شاب عزب بعيد الخيال دقيق الحس مرهف الأعصاب ، وعلى أنه يعيش في ظل وارف ونعمة سابغة من سعة خياله ودقة حسه ، وحدة أعصابه متشائم النظرة ، لا تراه إلا رأيت فى وجهه

وعلى طرف لسانه معنى دفينا من معانى الألم ، وما يرى نفسه فى أكثر أحواله إلا غريبا فى هذا العالم وبين هؤلاء الناس ، فإن له من خياله دنيا غير دنيا الناس ، وعالما غير هذا العالم ، يتمثل فيه المثل الأعلى الذى أعياه أن يبلغه على هذه الأرض ، وكانت بينه وبين الرافعى ود وله فى نفســـه مكان ، فكان له ســره ونجواه منـــذ كان فتى يافعا لم يبلغ العشرين ، وكان الرافعى يعتد بصداقته ويقر له ويعجب بدينه وتقواه ويتوقع له مستقبلا مجيدا بين المجاهدين من أهل الأدب ودعاة الإسلام .

ويردف الأستاذ العريان فيكتب : «فلما بلغ الرافعى نبأ شروعه فى الانتحار جزع وتطير ، وضاقت نفسه ، وناله من الهم ما لم ينل لحادث مما لقى فى دنياه .. فمن أجل هذه الحادثة أنشأ مقالاته الستة عن الأنتحار . المنشورة فى «وحى القلم» ولما لم يكن عندئذ يعلم من أحوال صاحبنا ما دفعه إلى هذه المحاولة الطائشة ، فقد أخذ يتكهن وينتحل الأسباب ليبنى عليها الحديث والقصة ، فما جاء جواب الأستاذ «م» إلا بعد المقالة الثالثة ، فأخذ من هذا الجواب مادة الجزء الرابع من هذه المقالات ، وجعل الحديث فى هذا الجزء على لسان «أبى محمد البصرى» وهو يعنى به الأستاذ «م» فهو هو وكلامه كلامه فى جملته ومعناه لم يغير منه الرافعى إلا قليلا من قليل - وقد بدأها كما بدأ سابقاتها بـ «قال المسيب بن رافع .. هذا هو ضيفنا «أبو محمد البصرى» يتخوض الناس ليجىء .. فيحدثنا حديثه فى قتل نفسه والإثم بريـــه ، فلو قيل لى : إن قوس السماء بأحمره وأصفـــره وأزرقه وأخضره قد وقع إلى

الأرض واصطبغ من ألوانـه أو حـالا وأقـذارا ، لكان هذا كـهـذا فى تعاظمه وإنكاره . والعجب منه فـأبو محمد من الرجال الحُمُس الذين لو كفر أحدهم ثم قيل «إنه كفر» لقصر اللفظ أن يبلغ الحقيقة أو يصف شنعتها ، كما يقصر لفظ الجنون عن وصف حكيم تألّى أن يعمل عملا يخرجُ به من الكون .. ونعوذ بالله من خذلانه ، فلقد يكون الرجل المؤمن فى تشـــدده ، وإيغاله فى الدين ، كالذى يصنـع حبلا يفتله فتلا شديدا فيمره على طاق بعد طاق ، ليكون أشد له وأقوى ثم يجاذبه الشيطان حبله ، فإذا هو كان فى الوهن مثل العنكبوت اتخذت بيتا فى سقف حداد»...

هذا بعض ما رواها الأستاذ سعيد العريان عن قصة الاستاذ «م» التى رواها فى كتابه عن الرافعى.. فى الجزء الخاص واستشهاده بالمقالات التى كتبها الرافعى بوحى من رسائل محمود شاكر له . فهل يريد الأستاذ سعيد العريان أن يقول لنا أن السيد «م» هو الأستاذ محمود شاكر ؟ إن هذا غريب بالطبع .. ولكن التعجب هنا يجب ألا يمنعنا من تأمل اتفاق وجوه الشبه بين ما وصف به الأستاذ سعيد العريان «م» فى كتابه عن الرافعى وما وصف به نفسه الاستاذ محمود شاكر نفسه فى كتبه وسائر مقالاته .. وذلك فيما بين الاثنين من صفات شخصية وفنية ونفسية وخصائص الاسلوب .. ونهج البيان.. بل اتفاق فى النشأة فى بيت له ماض فى الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه .

ولأن «م» العزب العف ركز فى رسالته على الصراع الناشىء بين

العزوبة والعفة.. فقد تكهن الرافعى أن نفض إليد من الحياة كما يأتى أحيانا من عمل العقل إذ هو تحكم فى الدين يأتى البعض من عمل هذا العقل إذ هو تحكم في القلب، وأن «م» ربما زاد من حيرته الثقافية أنه قد وقع أسير تجربة حب فاشلة.. لذلك أردف الرافعى العارف بكل أحوال تلميذه وصاحبه «م» الذى تمثل رسالته المقالة الرابعة عن الانتحار بمقالين عن الحب .

هذا وهذا وذاك كله يتضاءل أمام نقطة مهمة ، جاءت على لسان الرافعى «المسيب بن رافع» وعلى لسان الأستاذ «م» أيضا ووجدنا صداها بيانا عيانا عند محمود شاكر - فيما كتبه بعد ذلك بسنين - ألا وهى الزلزلة الدينية - حقا إن عملية وضع الإنسان نهاية لحياته كفر فى حد ذاتها - حتى أن الرافعى وصفها للعريان - كما أسلفنا - بقوله : صديقنا «م» لقد غلبه شيطانه على دينه آخر الأمر غفر الله له، . والمسيب قدم الاستاذ «م» بقوله : هذا هو ضيفنا أبو محمد البصرى يتخوض الناس يجيء فيحدثنا حديثه عن قتل نفسه والإثم بريه، فلو قيل لى : إن قوس السماء بأحمره وأصفره وأزرقه وأخضره قد وقع إلى الأرض واصطبغ من ألوانه أوحالا وأقذارا لكان هذا كهذا فى تعاظمه وإنكاره والعجب منه، فأبو الحسن من الرجال الحمس الذين لو كفر أحدهم ثم قيل «أنه كفر» لقصر اللفظ أن يبلغ الحقيقة أو يصف شنعها .. كما يقصر لفظ الجنون عن وصف حكيم تأبى أن يعمل عملا يخرج به من الكون ..

لذلك ركز الأستاذ «م» أو أبو الحسن البصرى فى كلامه الموجه إلى المسيب أو الرافعى على أنه «ينبغي للمؤمن أن يكون فى كل ساعة كالذى يشعر أنه لم يؤمن إلا منذ ساعة فهو أبدا محترس . «فلو نحن كنا مسلمين إسلام نبينا صلى الله عليه وسلم ، وإسلام المقتدين به، لأدركنا سر الكمال الانسانى وهو أن يقر الإنسان فى عالم نفسه ، ويجعل باطنه كباطن كل شىء إلهى .

هذا كله ما أثاره كتاب العريان عن الرافعى الذى كتب محمود شاكر مقدمته. ترى ماذا جاء في هذا الشأن فى كتاب «الظاهرة القرآنية» لمالك بن نبى الذى كتب مقدمته أيضا ؟.

فى «فصل فى إعجاز القرآن» وجدناه يقول عن الطريق الذى سلكه المؤلف فى وضع كتابه : وقد صهرتنى المحن دهرا طويلا .. فاصطليت بالأسباب التى دعته إلى اتخاذ منهجه – اى مالك بن نبى – فى تأليف هذا الكتاب ، ثم أفضيت إلى الغاية التى أرادها، بعد أن سلكت إليها طرقا مخوفة، وقد قرأت الكتاب وصاحبته، فكنت كلما قرأت منه فصلا أجدنى كالسائر فى دروب قد طال عهدى بها ، وخيل إلى أن مالكا لم يؤلف هذا الكتاب إلا بعد أن سقط فى مثل الفتن التى سقطت فيها من قبل ثم أقال الله عثرته بالهداية .

وعن منهج الكتاب، قال : «وهذا المنهج الذى سلكه مالك ، منهج مستمد أصوله من تأمل طويل فى طبيعة النفس الإنسانية، وفى غريزة التدين فى فطرة البشر ، وفى تاريخ المذاهب والعقائد التى توسم

بالتناقض أحيانا ولكنها تكشف عن مستور التدين في كل إنسان، وفي خلال هذا المنهج تستعلن لك المحنة التي عاناها مالك كما عانيتها أنا»..

أما عندما ذكر الاستاذ مالك قضية الشعر الجاهلي [1] بأدواتها ومناهجها - فقد أكد محمود شاكر أنها تركت في العقل الحديث وفي العالم الإسلامي اثرا لا يمحي إلا بعد جهد جهيد ولذلك أشار على المؤلف : ولا تحاكم مرجليوث وأشياعه إلى رأيك ونظرك بل دع محاكمته لمستشرق مثله هو «أربرى» الذى فنده في خاتمة كتابه «المعلقات السبع» بقوله : إن السفسطة وأخشى أن أقول الغش في بعض الأدلة التي ساقها الاستاذ مرجليوث أمر بين جدا، ولا تليق البتة برجل كان ولا ريب ، من أعظم أئمة العلم في عصره . وهذا حكم شنيع . لا عن مرجليوث وحده ، بل على اشياعه وكهنته وعلي ما جاءوا به من حطام الفكر» .

★★★

ولهذا وذاك ظلت محاولة محمود شاكر تمور في نفسي وفي خاطرى إلى أن تعرفت على شخصيته الآسرة بابتسامتها إقبالا على الحياة وحفاوة بكل من يدخل بيته ، حيث لم يبد كل هذا فكرتي عنه التي كنت

---

(١) فس سنة ١٩٩٦ أب يعد ٧٠ عاما من مصادرة كتاب الشعر الجاهلي للدكتور طه حسين الذى هو صدى لأقوال مارجليوث . أحتفل المجلس الأعلى للثقافة بصدوره وتبارى ٤٠ باحثا في تجلية ما آثاره هذا الكتاب في السياسة والثقافة وما جازه المثقف العربي من استثارة.

قد أيدتها بكثير من البراهين فقط بل أحالتها إلى محض تفلسف وجموح فكر .

ولكن ما أن صدرت الطبعة الثانية من كتابه المتنبى إلا ووجدته يجابه القراء وكل من يهمه [1] الأمر ببيان هام حيث قال : «أعلم أنى قضيت عشر سنوات من شبابى فى حيرة زائفة وضلالة مضنية وشكوك ممزقة حتي خفت على نفسى الهلاك وأن أخسر دنياى وآخرتى . محتقباً إثماً يقذف بى فى عذاب الله بما جنيت فكان كل همي يومئذ أن التمس بصيصا أهتدى به إلى مخرج ينجينى من قبر هذه الظلمات المطبقة علىّ من كل جانب، فمنذ كنت فى السابعة عشرة من عمرى ١٩٢٦ إلى أن بلغت السابعة والعشرين ١٩٣٦ ، كنت منغمسا فى غمار حياة أدبية ، بدأت أحس إحساسا مبهما أنها حياة فاسدة من كل وجه ، يومئذ طويت كل نفسى على عزيمة حذاء ماضية، أن أبدأ وحيدا منفردا رحلة طويلة جدا وبعيدة جدا وشاقة جدا ومثيرة جدا».

ولا شك أن هذا الاعتراف الجلي الواضح الذى أذاعه محمود شاكر هنا.. يعكس فى الأساس آثار الأزمة الثقافية التى ترسبت فى نفسه من انغماره فى الحياة الادبية الفاسدة من كل الوجوه والتى نكأ جرحها أطروحات استاذه طه حسين حول الشك فى الشعر الجاهلى ..حيث مال الميزان واهتزت مثله العليا متمثلة فى هيبة الجامعة أيضا ومكانة استاذه التى احتلت فى قلبه مكانا خاصا كذلك .

---

(١) وكأنه احس بأن كثيرين قبلى قد استشفوا حدوثها أو استنكروها فلفضل أن يقولها بلسان نفسه .

وعندما تسقط المثل العليا يبدأ الانسان فى فقد الثقة بنفسه وفيمن حوله وخصوصا إذا كانت هذه الصور والاشكال من المثل العليا، تتعارض جذريا مع مثل عليا أخرى أكثر رسوخا فى نفسه وهى المثل العليا التى يمثلها دينه وعروبته .

وعلى ما يبدو فقد تطلبت منه الأزمة صراعا قاسيا يتنقل بين الحب والكراهية وبين الحيرة المدمرة التى كانت تستوجب عليه أن يضحى بواحد منهما فكان عليه أن يختار أى الجانبين ، فاختار العروبة والإسلام مضحيا وملقيا - بعد صراع طويل وقلق ناشب فى النفس - بكل أشكال الفساد من حوله وبصورة الجامعة وشخص استاذه الذى يكن له التقدير .

ولا شك أن هذا القلق قد ولد لدى الاستاذ محمود شاكر شعورا غامرا من الإحباط الذى يولد فى كثير من الاحيان شعورا قويا بالعدوان حتى ليمكننا القول إن محاولته الانتحار هى فى جوهرها عدوان موجه إلى الآخر عبر الذات.. فهو حينما كان يحاول قتل نفسه.. كان كمن يحاول قتل من يريد أن يوجه إليه عدوانه عبر فساد المجتمع وصورة الجامعة وشخص أستاذه باعتبارهما الآخر الذى يحتل جزءا من ذاته - حتى ليمكننا ان نعتبر قتل الآخر فى صورة الذات هى قطيعة نفسية سيكولوجية ، أو نفى تلك الذات الأخرى وميلاد آخر جديد مغاير ومختلف وأيضا لذات جديدة مغايرة ومختلفة .

أو قل هى محنة تشبه الموت الذى يعقبه الميلاد ، أو الموت الذى يعقبه البعث.. لا سيما أنه فى هذه الفترة القلقة من حياة الشباب ،

تستبد بهم الرغبة فى الاستقلال عمن يؤثرون عليهم. ويتأثرون بهم سعيا منهم ورغبة فى تأكيد ذواتهم.. حتى إننا يمكن أن نؤكد دون عناء أن عثور محمود شاكر واهتداءه لمنهجه الفكرى التذوقى الخاص به بعد ذلك ، هو النقيض لمنهج استاذه سواء فى الشك أو فى دراسة الأدب العربى كتاريخ .

إذن فالتذوق بلا شك هو ثمرة هذه المحنة وعطاء هذه المشقة القاسية التى عصفت به حتى كادت أن تؤدى به إلى الهلاك .

نهضة عقب كبوة

نعم .. فتتابع وقائع حياة محمود شاكر تقول إنه بعد عودته من بلاد الحجاز ولم يتجاوز العشرين إلا قليلا. وهو السن الذى يكون فيها الإنسان قادرا على إجراء اكتشاف ما، ولأنه كان يلتمس بصيصا يهديه، أو إلى مخرج ينجيه من قبر الظلمات من كل جانب.. وسرعان ما تماست حيرته هذه فى نفسه إلا والتحمت مع موهبته وذكائه وغزارة اطلاعه .. فنجمت فكرة البحث عن منهج خاص به يجد فيه خلاصه .. وهو ما عبر عنها بقوله(١) : «يومئذ طويت نفسى على عزيمة حذاء ماضية أن أبدأ ، وحيدا منفردا ، رحلة طويلة جدا ، وبعيدة جدا ، وشاقة جدا ، ومثيرة جدا ..

«بدأت بإعادة قراءة الشعر العربى كله ، أو ما وقع تحت يدى منه

---

(١) رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا .

يومئذ على الأصح ، قراءة متأنية طويلة الأناة عند كل لفظ ومعنى، كأني أقلبها بعقلي واروزها «أي أزنها مختبرا» بقلبي وأحسها جسا ببصري وببصيرتي وكأني أريد ان أتحسسها بيدي وأستنشيء «أي أشم» ما يفوح منها بأنفي وأسمع دبيب الحياة الخفي فيها بأذني ، ثم أتذوقها تذوقا بعقلي وقلبي وبصيرتي وأناملي وأنفي وسمعي ولساني، كأني أطلب فيهما خبيئا قد اخفاه الشاعر الماكر بفنه وبراعته واتدسس إلى دفين قد سقط من الشاعر عفوا أو سهوا تحت نظم كلماته ومعانيه دون قصد منه أو تعمد أو إرادة» .

ورغم هذه المشقة والضنى فإن محض محصلتها كانت على حد قوله :

«واكتسبت يومئذ بعض الخبرة بلغة الشعر وبفن الشعراء وبراعتهم ، ثم انفتح لي خلال ذلك، باب آخر من النظر ، قلت لنفسي «الشعر كلام صادر عن قلب إنسان مبين عن نفسه.. فكل كلام صادر عن إنسان يريد الإبانة عن نفسه خليق أن أجرى عليه ما أجريته على الشعر من هذا التذوق الشامل الذى وصفته آنفا فأخذ أهبته لتطبيق هذا التذوق على كل كلام ما كان هذا الكلام».

ولأنه ربما استهول طول الرحلة التي سيجتازها .. وعمق وزخم ما سيقرأه استعداداً لها .. أى قراءة كل ما يقع تحت يده من إرث أجداده العظام، هذا الإرث العظيم الضخم المتنوع من تفسير وحديث وفقه، وأصول فقه، وأصول دين وملل ونحل إلى بحر زاخر من الأدب والنقد

والبلاغة والنحو واللغة ، حتى قرأ الفلسفة القديمة والحساب القديم والجغرافيا.. وكل هذا يمثل طريقا وعرا متشعب المسالك محيراً. هل يواتيه الوقت للسير فيه إلى نهايته ؟ أم لا فيتخلى عنه . ولاسيما أنه كان يشعر وهو يكرس حياته لهذا العمل بمعاناة إنسان يضع لنفسه مبادىء سامية ليبشر بها بعد ذلك فى سهولة ويسر .

ذلك أن خطر الانتحار يزداد كثيرا عندما يبدأ صاحبه في التحسن من حالة ما – وهي هنا البحث عن خلاصه بأن يرفض متخوفا حذرا شيئا فشيئا ، أكثر المناهج الادبية والسياسية والإجتماعية التى كانت تقوض كل قائم فى نفسه وفطرته. كما قاله هو فى مقدمته للمتنبى . «إذ يكون الصراع بين الرغبة فى الحياة ومواصلة الرحلة التى بدأت والعزم على التخلى عن مشروعه.. إذ ذاك فى أحد أدواره» .

والشاهد أن إنقاذه من الموت هنا كان مدخله للإقبال لإقباله على تأصيل منهجه وهو أكثر صلابة وقوة ، باعتبار أن التجربة التي لا تميتني تقويني .. بدليل أن الاستاذ «م» هون من سخط المسيب إقدامه عن الانتحار بقوله : «لا يفزعنك أيها الشيخ فان الله تعالي قد يجعل ما يحبه فيما نكره نحن ، وقد نسمى النازلة تنزل بنا خسارة وهى ربح، أونقول مصيبة جاءت لتبديل الحياة، ولا تكون إلا طريقة تيسرت لتجديد الفكر» .

زد على ذلك قول «م» أو محمود شاكر بعد أن أفاق من غيبوبة الانتحار ثم جدد إيمانه: «ولم أكد أفعل حتى احسست كأن قوة الوجود كلها مستقرة فى روحى، وخيّل إلىّ أنى أنا وحدى القوى على هذه

الارض قوة جبالها وصخورها على حين كان جسمى ممددا كالميت لا يتماسك من الضعف. فأيقنت حينئذ ما لم أعرفه قط فى الدنيا ، ولم أشعر به قط فى الحياة، ولم يأتنى به علم قط من الدنيا.. أيقنت أنها معجزة الإيمان الجديد ، المتصل بالله لتوه كايمان الأنبياء دون أن تلمسه شهوة أو يعترض خاطره أو تكدره ذرة واحدة من فكر أرضى دنس .

★★★

قد نكون قد أسهبنا فى التغلغل داخل تفاصيل هذا الحادث ، ومابدر منا ذلك إلا لأننا اعتبرناه حجر الزاوية فى شخصية محمود شاكر ، لأن ما يصنع الكاتب هو جملة تحيزاته حتى لنسأل على منوال ما قاله الاستاذ كمال النجمى سابقا : هل حدث قط فى تاريخ الادب العربى، أو فى تاريخ الأمة العربية من المحيط إلى الخليج أن وضع أديب رأسه على كفه مقابل تغيير الفساد من حوله .

وهكذا اتسعت خطواته ولوجا إلى كل قول كما نفهم من قوله : «فأقدمت إقدام الشاب الجرىء على قراءة كل ما يقع تحت يدى من كتب أسلافنا التى سجلناها آنفا ، عندما تكلمنا عن أثر تكأكؤ هذه الكتب فى كل هذه العلوم حوله . فشك فى قدرته أو موافاته بالوقت الذى ينجزها فيه - وشيئا فشيئا ومع تجدد إيمانه بعد حادثة الإنتحار واحساسه أن قوة الوجود كلها مستقرة فى روحه انفتح له الباب يومئذ على مصراعيه فيقول: «فرأيت عجبا من العجب» ..

وعثرت يومئذ على فيض غزير من مساجلات صامتة خافتة كالهمس ومساجلات ناطقة جهيرة الصوت ، غير أن جميعها إبانة صادقة عن هذه الأنفس والعقول . أمدتني هذه التجربة الجديدة بخبرات جمة متباينة متشعبة ، أتاحت لي أن أجعل منهجي في تذوق الكلام منهجاً جامعا شاملا متشعب الانحاء والاطراف يزداد على تطاول الايام رحابة وسعة ، وحدة ومضاء، ونفاذا وشمولا واستقصاء، أي أن هذه المحاولة قد أدت إلى التطهير والبعث الروحي كما تعبر الدراما اليونانية ولم تكن محاولة إقدامه على الموت من القلب.. لأن المنتحر يضع خطة الانتحار وضعا محكما كما ينتقي خطة التنفيذ بصرف النظر عما تسببه من ألم وعذاب وطريقة محمود شاكر التي جاءت نتيجة لحيرة واتته ربما وهو يحلق ذقنه بالموس ويرى وجهه وقد تكلح في مرآة الحمام التي وجدته اخته فيه على نحو ما سمعت! .

هي حيلة اذن لجأ اليها لاستنجاد نصير ، بعد أن اعترف لنفسه أن كل الاحداث من حوله تتسرب ، وتبتعد عن الحياة العربية والإسلامية التي ينشدها لأمته وإلى أن يُعترف بهذا العبث، فقد أصبح هذا الاعتراف أشد النزعات إيلاما على نفسه، وهو منفرد بهذه الرؤية وحده ، وقد نجحت هذه الحيلة في تحقيق مقاصدها الى حد ما، فقد كتب له الرافعي كما لابد أن انتبه له غيره.. واستطاع بعدها كما قرأنا في اعترافه أن يقف ويتماسك على هذه القنطرة المدوخة .. فعرف أنه بقدر ما يرفض هذا العبث يغني نفسه .

★★★

ولسائل أن يسأل كما تساءلنا متى وقعت هذه المحاولة؟ من الواضح أنها لم تكن رد فعل مباشر لمقاطعته الجامعة - ففيما كتبه في «المتنبي ليتني ما عرفته»: أما مسألتي مع الدكتور طه في الجامعة في ذاتها فغير قادرة أن تنشيء بيني وبين الدكتور طه خصومة، وأيضا لم يكن لها أثر يمكن أن يحرك خصومة، ولا هي بعد جلسة والده التي تلقى فيها ما تلقي ، ذلك أن عمره كان وقتها سبعة عشرة عاماً . فقد قال الاستاذ العريان : كانت مقالة كفر الذبابة التي هي ضمن المقالات التي كتبها الرافعي بوحي من محمود شاكر هي آخر ما أملى على من المقالات ، وذلك في صيف ١٩٣٥ ثم تجافينا بشأن ما .وكان آخر مجلس لنا في قهوة «بول نور» مع الاصدقاء محمود شاكر وزكي مبارك وكامل حبيب والسيد زيادة .. ثم افترقنا بعد منتصف الليل .

ويهيأ لي أن هذا الحادث وقع وهو يضع اللمسات الأخيرة في منهجه أي في أواخر ١٩٣٤ أو بداية ١٩٣٥ .. وهناك سؤال ملح لماذا كان في هذا الوقت بالذات دون غيره ؟

لأنه إذا كان عام ١٩٣٦ كان آخر عام قضاه محمود شاكر - كما قال في اعترافه حيرة زائغة وضلالة مضنية ، فإن عام ١٩٣٦ كان أيضا هو عام صدور العدد الممتاز من المقتطف عن المتنبي : وهو أول عمل طبق فيه شاكر هذا المنهج فنجح نجاحا ساحقا . وقرظه الرافعي وقرظ المقتطف بكلام باذخ نأتي عليه في حينه و.. دعنا نعمل العقل في هذه الحادثة .

وحتى لا نتهم بأننا نأخذ جانب الاستاذ محمود شاكر نسأل عن كنة الحيـــاة الادبية الفاسدة من كل الوجوه التي وضع رأسه فوق كفـــه مقابل تغييرها ؟ لاسيما وأن عمره بالنسبة لعمرنا الآن كان عصر الأنـــوار المتألقة بأمير الشعراء وأمير البيان، ومارد الفكر وكاسح النقد و ..

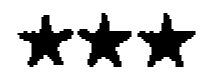
هل كان الاستعمار هو همه ؟ أم فساد المستشرقين ومن لف لفهم لإرثنا هو فزعه ؟ أم المناهج الدراسية التى وضعها دنلوب هى أزمته؟ هل كانت ألاعيب السياسة والقصر ؟ ثم ما هو النظام الصالح الذى كان ينشد محمود شاكر تحقيقه ؟ هل كان يحلم بتكوين قرية نموذجية عربية إسلامية فى القرن العشرين كما تخيل سيد قطب فى أحد كتبه ؟ أم تحقيق نظام شمولى إسلامى أو تحتمى - كما فعلت إليمن فى فترة إنغلاقها - بالعزلة الكاملة عن الحضارة الوافدة بحلوها ومرها ؟ أم هل كان يتصور أن يعيد - بمفرده الأمة العربية إلى سابق أمجادها فى عصـــر الخلفاء الراشدين أو الدولة العباسية في قمة إزدهارها .. أو..؟ أو ... وغاب عنه أن نكبة الأمة العربية جاءت من التوارث - كما يرى البعض - يوم أخذ معاوية الخلافة غصبا ليزيد .)

إن سنة الحياة هى التطور ، والإسلام بناء وتقدم أى حضارة، وقد جاء فى الأثر «ربوا أولادكم لزمان غير زمانكم.. «والاستعمار والمستشرقين والاعيب السياسة والقصر كل أولئك لم يحل دون ارتفاع الآذان والجهر به للصلوات خمس مرات فى إليوم الواحد. ولامنع

المسلمين من إمعان الفكر فى معانى القرآن الكريم الذى يسمعونه صباح مساء.. فلم يفقدوا مع كل ذلك روح الاسلام التى تحول دون الهدم حتى لثقافة الغرب وفقا لما جاء فى الأثر أطلبوا العلم ولو فى الصين» .

إن استقراء كتابات محمود شاكر تنبينا على أن رغبته لم تكن فى التغيير الفجائى.. لأنه رأى بنفسه أن فكرة التغيير سرعان ما ترتد على صاحبها كما ارتدت آراء الدكتور طه حسين فى تعميم الشك فى الشعر الجاهلى حتى كادت تعصف به.. وإنما كان كل أمله فى أن تتمسك الأمة العربية بشكل أفضل بتقإليدها وقيمها العريقة فى مواجهة التحديات الحضارية الوافدة !

فقد وصف فى كتابه «أباطيل وأسمار» ، ما أفزعه وجعله يعيش منذ شبابه صراعا يكاد يمزقه لأنه رأى الأمة العربية تنشق عن كل تاريخها الماضى وتساق إلى مجزرة نصبها لها الإستعمار وهو فرح بها نشوان ...



الفصل الثالث

اسلوب شاكر ومعاركه

يهييء لى أن حصول شاكر على البكالوريا شعبة الرياضيات كانت من عوامل إثراء أسلوبه مع تفوقه فى دراسة العربية .. ذلك أن التماس الذى حدث بين العلمين المختلفين كونا فى نفس شاكر مزيجا فكرياً مبدعاً لا يدانيه فكر فى قوته المخصبة .. ولما ابتل ريق شاكر وامتص حلاوة تفوقه فى رياضة المرحلة الثانوية بروية وتمهل ثم تبعتها حلاوة تفوقه فى دراسة السنة الثانية قسم عربى كانت حصيلتهما إثراء وجدانه عن كل ما حوله ، فقد كتب فى صفحة ١٤ فى منهجه التذوقى حول أسلوب توصله للفرق بين الشعر الجاهلى وغيره يقول : كلما فرغت من ديوان شاعر منهم بدأت صحبة شاعر آخر ... وكلما وجدت الشاعر جاهلى علاقة ما بشاعر جاهلى آخر ، صحبت ديوانه بعده أو معه ملتزما بهذا النظام الذى هدانى إليه ولوعى بالرياضيات فيما أظن .. مما يدل على أن الفن والفكر لا يثرى على أساس الفروض الشكلية .. وإنما على استصفاء منابع الإبداع وهى واحدة فى كل فن

وعلم – أو على حد تعبير محمود شاكر نفسه فى كتابه أباطيل وأسمار : «علمنى كتاب سيبويه يومئذ أن اللغة هى الوجه الآخر للرياضيات العليا» .

وقد وصف الكثيرون أسلوب محمود شاكر ، نختار ، ما قاله تلميذه الدكتور محمود الطناحى حيث كتب : «إن أسلوبه يبهرك جماله فيعجزك عن وصفه ، وغاية ما أستطيع أن أقوله عن هذا الأسلوب الذى لا يشبهه أسلوب لا في القديم ولا فى الحديث إنه أسلوب إنحدر من سلالة كريمة وأن قدرته على التذوق التى واتته بعد دربة طويلة متوارثة ، انطلقت من الشعر الجاهلى الذى هو أنبل كلام للعرب وأشرفه بعد القرآن الكريم ثم استقرت عند القرآن الكريم الذى كان نزوله على النبى العربى حادثة فى تاريخ البشر ، وقد نمت هذه الدربة عند شيخنا بطول مدارسته للقرآن الكريم الذى هو البيان الإلهى الملفوظ وقد أفضى به ذلك إلى الإحساس العميق باللفظ العربى فى ترجيعه ونغمته فى الدلالة والألفاظ والتركيب والصور» .

وأساس البيان عنده هو دقة التذوق إذ يقول : «ونحن أبناء هذا اللسان العربى المبين قد قام أصل حضارتنا على التذوق فى الجاهلية الغابرة وفى الرسلام الباقي بحمد الله وحده وبلغ التذوق بنا مبلغا سنيا فريداً .

وحين بدأ تشققه وتبعثره بدأ معهما التدهور والإدبار فواجبنا اليوم أن نعيد بناء أنفسنا على ما بنيت عليه حضارتنا من دقة التذوق ، وأن

يكون التذوق أساس عملنا الأدبى فى آثار أسلافنا وإن كلمات أخبارهم التى أثرت عنهم بالفحص «الناقد وأن ننفض غيب كلماتهم بالتذوق ونتوسم بالتفرس فى معاطفها ، ثم نستجليها ونسألها ونستخبرها عن هذه السرائر المغيبة المحجوبة فى طواياها» .

ويواصل الدكتور الطناحى تهاونه : وأسلوبَ الشيخ أديب يمتع قارئه ولا يتعالى ، ثم هو أيضا أسلوب أديب يحترم عقل قارئه ، فلا يبهظه باللغو من الكلام ، ثم هو يريحه بكثرة الإحالات إلى ما مضى من الكلام ليجعله على ذكر من القضية التى يعالجها ولا يتركه حتى يعينه بتلك الشروح اللغوية التى تلتحم بالكلام إلتحاماً .

ولعل ما عثرنا عليه فى كتاب شاكر «طبقات فحول الشعراء» ما يثبت ذلك – أى إقباله على التحصيل – حيث يحكى علامتنا عن أيامه قبل دخوله الجامعة فيقول : ففى سنة ١٣٤٣ هجرياً – سنة ١٩٢٥ ميلاديا ، تقريبا – ولاحظ كيف يقدم علامتنا فى كتاباته التاريخ الهجرى تاريخ آبائه وآبائنا .. ثم يضع التاريخ الميلادى بين قوسين لأنه تاريخ الأمة المسيحية والوثنية كما يربط بينهما دائما لا سيما المسيحية الغربية يقول : عاد السيد أمين الخانجى من رحلته إلى العراق وغيره من بلاد العرب ، وقد جمع من نوادر المخطوطات شيئا لا يقدر بثمن ، وكان بينها صناديق فيها أوراق شتى «دشت» وذات يوم أقبلت عليه فى دكانه، فإذا به يخرج لى ورقة حائلة اللون ، وسألنى : أتعرف هذا ؟ فما كدت أقرأ أسطرا حتى عرفت أنها من كتاب طبقات الشعراء .. لأبى

عبد الله محمد بن سلام الجمجي ، وكنت حديث عهد بقراءة الكتاب فاستطرت فرحا بما عرفت ، وقمنا معا إلى هذه الصناديق المبعثرة والأوراق ، نفرزها ورقة ورقة يوما بعد يوم ، حتى جمعنا من أوراق كتاب الطبقات قدراً عظيما ، فلما فرغنا ، أمرني رحمه الله أن آخذها فأرتبها وانقلها ، مخافة عليها من مثل ما كانت فيه ، ومن عوادي البلى عليها ، إذ كانت عتيقة الورق ، وفعلت مقصراً متراخياً ، فلم أتم نقلها ، وبقيت بقية من أوراق المخطوطة لم أنقلها وطال الزمن ، فسألني السيد أمين رحمه الله ، أن أرد إليه الأم العتيقة قبل تمام نقلها ، فرددتها إليه ، ولم أخبره بما كان مني من التقصير والتراخي .

– ودارت بي الأيام وفارقت مصر في سنة ١٣٤٧ (سنة ١٩٢٨) من ثم عدت إليها ، وقد فتر ما بيني وبين الكتب زمنا طال وامتد – أحسب أن هذا الفتور عن النظر في كتابة الكتب لا قراءتها – ثم لقيت أمينا رحمه الله ، فأخذ يستحثني أن أعيد النظر في كتاب الطبقات ، حتى أستطيع أن أعده للنشر ، فتراخيت ما تراخيت وهو يظن أني كنت قد فرغت من نقلها ، وأظن أنا أن النسخة لم تزل في حوزته ، ثم قضى أمين نحبه في يوم الجمعة ١٩ جمادى الأول ١٣٥٨ (٧ يولية ١٩٣٩) وقد جاوز السبعين من عمره ، غفر الله له ورحمة ولم يخبرني أين استقرت الأم العتيقة ، ولما سألت بعض ولده عنها ، لم أجد عند أحد منهم خبرا عنها ، ثم بدأت أبحث عنها في مكانها من دور الكتب العامة والخاصة فلم أعثر عليها حيث ظننت ، وبقيت نسختي التي نقلتها حبيسة في خزانة كتبي هذا الدهر الطويل ، حتى دعاني أخي الأكبر أحمد محمد شاكر ،

رحمه الله . إلى نشر هذه النسخة الناقصة ، فأستجبت له ، واستخرت الله وتوكلت عليه ، ثم بدأت فشرحت كتاب الطبقات ، وفرغت منه ، وتولت «دار المعارف» طبعه ، وكان الفراغ في عصر يوم الأربعاء ٣٠ من ذى الحجة سنة ١٣٧١ هـ (١٠ سبتمبر سنة ١٩٥٢م) .

وبعد ظهور الكتاب في الأسواق ، وبعد إهدائى نسخة منه إلى شيخنا وأستاذنا عبد العزيز الميمنى الراجكوتى .. أطال الله بقاءه ، مضى زمن طويل ثم جاءتني منه رسالة يذكر فيها أنه قرأ في إحدى مجلات المستشرقين مقالة للأستاذ آربرى المستشرق . فيها قراءة جديدة لكتاب الطبقات ، توشك أن تكون شبيهة بنسختي التى نشرتها من كتاب ابن سلام ، فلما اطلعت على المجلة أيقنت أن هذه النسخة التى أشار إليها آربرى هى نسختي التى فقدت خبرها بموت أمين الخانجى ، فبادرت وراسلت صديقنا الدكتور محمد رشاد سالم وكان يومئذ تلميذا لآربرى فى انجلترا ، وسألته أن يوافينى منها بصورة وعلمت أنها فى مكتبة «تشستربتى» ، فجاءتني المصورة ، فإذا هى نسختي وعليها خطى وتوقيعى ، كما أشرت فى التعليق .

ومنذ وصلتنى هذه النسخة المصورة ، جعلت همى أن أعيد طبع الكتاب تاما ، وكان من فضل الله علىّ أن ظفرت أيضا بمصورة أخرى لنسخة المدينة ، شرفها الله وصلى على ساكنها صلاة مباركة .. وظل العزم كامنا حتى أذن الله فمهد لطبع كتاب

الطبقات مرة أخرى على وجه يرضينى بعض الرضى ، والحمد لله أولا وأخيراً » .

وبعد أن قص علينا محمود شاكر قصة مخطوطة كتاب الطبقات ، جاء ببابة يقارن فيها بين المخطوطتين العائدة من لندن ونسخة المدينة من حيث عدد الأوراق وعدد ما فيها من الخروم ، وصفة الخط فيهما مغربيا كان أم مشرقيا ليدل على أن نسخة المدينة مختصرة عن نسخته وهى أشياء دقيقة فى تفاصيلها ، عسيرة التتبع لمن لا يعرف مشقة التحقيق - ولما كان المستشرقون من أوائل الذين قاموا بالتحقيق فقد وضعوا للتحقيق قواعد تسهل لغير العرب عملية تقريب الناقص من حروف المخطوط .. مثل معرفة لغة عصره .. من حيث مفهوم ودلالة الكلمة فى هذا العصر .. وجهة النظر العامة لصاحب المخطوط التى يجب معرفتها من الكتب والمجامع التى تكلمت عن فكره . إلا أن العلماء أصحاب اللسان الضالعين فى معرفة كل هذا بغير طريقة المستشرقين لهم الحق عن جدارة .. فى أن يخرج كل منهم بأسلوبه الخاص .. فى تكملة هذه النواقص .. إلا أن الذين لا يملكون هذه الموهبة .. خضعوا بالكامل لهذه الدروس التى كان قد أنشأها جماعة من أغتام الأعاجم فى زماننا .. فتلقنوها عنهم حفظاً عن ظهر قلب ، فإذا جاء أحدهم كتاب أو وقع فى يده - من عمل أحد الأفذاذ الذين كانت محصلة علمهم تفوق قواعد المستشرقين - نظر ، فإذا كانت القواعد المحفوظة مطبقة فى هامش الكتاب فذاك «محقق» . فإذا لم ير أثرا ظاهرا فى هوامش

الكتاب يطابق المحفوظ من القواعد ، فهو كتاب «غير محقق » كتاب رديء جداً يقولها قائلهم كما وصفه علامتنا محمود شاكر : رافعا قامته مصعرا خده ، زاما شفتيه وأنفه - كهيئة المتفزز المتقذر . بهؤلاء وأشباههم ، تفشى وباء تحقيق الكتب «على هذه القواعد المحفوظة ، وشوه وجه الكتاب العربى هذا السيل الجارف بما تحمل من غثاء وجفاء وقذر هذا عجب !

★★★

ولأنه يصعب على غير المتخصصين إدراك مشقة التحقيق عند الأفذاذ فإليك لمحة منه وليكن فقط مجرد تسمية الكتاب .. فلأن علامتنا قد سمى كتاب ابن سلام الجمحى فى الطبعة الأولى «طبقات فحول الشعراء» فقد عاب ذلك عليه كثير من أفاضل أهل العلم ، بحجة أن اسم الكتاب كان هو «طبقات الشعراء» ..

فما كان منه إلا أن رد على اثنين منهم فقط هما الاستاذ السيد أحمد صقر والدكتور مصطفى مندور فقال : «ومعذرة إلى الأستاذين الجليلين ، إذا خالفت ما آثرا من الرأى ، مرة أخرى لا لأنى غير مقتنع بما ذكرا من الحجة على فساد رأيى وقبح جرأتى بل لأن مصورة المخطوطة ، قد فصلت ما بينى وبينهما وكنت قد قلت فى مقدمة الطبعة السالفة ، حين ذكرت أسباب عدولى عن تسمية الكتاب : «طبقات الشعراء» ما نصه و«آخرها» أنى رأيت على نسختى التى نقلتها بيدى هذا العنوان «طبقات فحول الشعراء» ، فلست أدرى بعد

هذا الزمان الطويل - أى قبل سفرته إلى السعودية سنة ١٩٢٨ م وعودته منها وكر الأيام والسنين ، بعد ذلك إلى سنة ٧٣ .. أكانت هذه الكلمة فى الأم العتيقة ، ثم نقلتها كما هى ، أم ترانى كتبتها من عندى ؟

ولا تظن هنا أن علامتنا يشك فى ذاكرته القوية .. لأنه عاد فقال : وأنا أرجح الأولى ، أى أن العنوان الأول كان «طبقات فحول الشعراء» ويدلل على ذلك بقوله : «لأنى كنت يومئذ صغيرا لم أتجاوز السابعة عشرة من عمرى ولأنى كنت يومئذ فى أول الطلب ، وأجهل من أن أنظرا نظراً صحيحا فى مثل هذا الأمر الدقيق ، المحتاج إلى التميز والبصر» .

«فالآن . وقد ظفرت بمصورة من المخطوطة ، ونشرن صورتها فى أول الأوراق المصورة ، بعد هذه المقدمة ، أجد أن الفصل فى القضية لا يحتاج إلى برهان أدعيه على رأى أراه استنباطاً ، بل ما فى المخطوطة هو الفيصل .. وكنت أتمنى أن تكون المخطوطة ، تحت يدى ، لأن معانيها تكون أدق وأوضح ، والتصوير يخفى بعض ملامح الحروف ، ومع ذلك فإن عنوان الكتاب فى المصورة التى عندى ، فيه وضوح كاف ، سأصفه بقدر ما استطيع من الدقة ، وقد رأيت على عنوان الكتاب تلطيخا أسود أخفى الباء والألف والتاء فى لفظ «كتاب» وبقي واضحا بعده الطاء والباء والقاف والألف من لفظة طبقات ، ثم جاء محو فأخفى جزءا من تاء «طبقات» وبقيت نقطتا التاء ظاهرتين ، وفوق ألف «طبقا»

رأس فاء جليلة واضحة ، وما بعدها محو ، ثم يظهر بعد المحو حوض اللام الممدود هكذا « – » ، وفوق هذا الحوض ظهرت الشين والعين والراء والألف ، من لفظ «الشعراء» فيكون بينا بعد هذا الوصف أن تقرأ ما في المصورة . «طبقات فحول الشعراء» ، وأكاد أقطع اليوم أني قرأتها كذلك لما كانت المخطوطة نفسها في حوزتي سنة ١٩٢٥م وأني لم أكتب على نسختي التي نقلتها بيدي لفظ «طبقات فحول الشعراء» إلا استنادا إلى وضوحها في المخطوطة لأني بيقين كنت يومئذ صغيرا لا أحسن الإجتهاد في الرأي ، وأجهل من أن أنظر نظراً صحيحاً في أمر تغيير تسمية «الكتاب» ..

وها نحن وقد جرنا التداعي .. فبينما كنا ندلل أن محمود شاكر عرف طريقه للنشر، بكلمة من مقدمته لكتابه «طبقات فحول الشعراء» نصل إلى ردود أفعال كتاباته ولذا نعود إلى محمود شاكر وهو على أهبة السفر إلى السعودية – وما أن استقر فيها حوالي عامين .. إلا ويبدأ يتلقى من أهله وأصدقائه لا أساتذته رسائل تطلب منه الصفح عما أغضبه ويعود إلى البلاد – بعد أن كاد أن يتزوج هناك فلم يلبث.. أن حزم حقائبه وعاد إلى الوطن بعد سنتين قضاهما في الحجاز.

لم يكتب الأستاذ شاكر عن هاتين السنتين في أي من كتبه التي تناول فيها أجزاء من سيرته الذاتية، مع أن هاتين السنتين كانتا في حياته بمثابة، رأب الصدع الذي أحدثه تركه للجامعة، ولم الشعث الذي

تناثر عقب جلسة أبيه وهى مرحلة ضرورية. فنستنبط فحواها على هدى ما نعرف عن هذه المرحلة .

أولا : قبل أن يغادر مصر إلى السعودية كان قد انزاح عن كاهله الكثير، ذلك أنه بلا ريب كان قد قرأ فى الصحافة المصرية ، أن كتاب «الشعر الجاهلى» للدكتور طه حسين قد ظهر أواخر سنة ٢٦، وهو الكتاب الذى حوى المحاضرات التى أثارت الحمية والمغيرة فيه على العرب.. وعندما نشرت فصول منه فى الصحف، صدرت مؤلفات فى الرد على الكتاب بأقلام محمد فريد وجدى ومحمد لطفى جمعة (١) وشكيب أرسلان ومحمد أحمد الغمراوى ويوسف الدجوى وعبد المتعال الصعيدى ومحمد عبد المطلب وعبد ربه مفتاح ومصطفى صادق الرافعى وأغلبهم عند علامتنا أساتذة وأصدقاء.

لقد رفع، بنشر كل هذا، عبئا كبيراً عن كاهل علامتنا الشاب الواعد ، بل جعله يتأكد أنه صاحب نظرة ثاقبة وحس دينى لا يخيب ، فها هو ذا الجميع يؤيد آراءه التى طالما واجه بها طه حسين ولكن لم يعرف خبر هذه المواجهة إلا زملاؤه وأساتذته فى الجامعة ثم فى مجلس أبيه.

وامتدت المعركة فى الصحف حتى شهر سبتمبر ، وقامت المظاهرات متوجهة إلى مجلس الوزراء وخرج سعد زغلول ليخطب فيها ويقول : «إن

---

(١) حملت جريدة كوكب الشرق لواء الحملة التى بدأها شكيب أرسلان .. عندما أرسل مقالا من روما ١٩ مارس سنة ١٩٢٦ تحت عنوان «التاريخ لا يكون بالإفتراض ولا بالتحكم» .

مسألة كهذه لا يمكن أن تؤثر فى هذه الأمة المتمسكة بدينها، هبوا أن رجلا يهذى فى الطريق فهل يضير العقلاء شيء من ذلك، إن هذا الدين متين، وليس الذي شك فيه زعيما ولا إماما حتى نخشى على شكه من العامة، فليشك ما شاء، ماذا علينا إذا لم يفهم البقر [١] .»

ولكن الشعب لم يسكت إلا حين تحولت هذه القضية برمتها إلى استجواب في البرلمان وتحقيقات النيابة، فقدم النائب عبد الحميد البنان نائب الجمالية اقتراحا فى ثلاثة أقسام إبادة كتاب الشعر الجاهلى إحالة الدكتور طه حسين إلى النيابة إلغاء وظيفته.

وقد سلم معالى وزير المعارف بالقسم الأول من الاقتراح وتكلم دولة عدلى باشا رئيس الوزراء عن القسم الثانى وجرت بينه وبين دولة سعد زغلول مناقشة اشترك فيها وزير المعارف والحقانية .. انتهت بأن ذكر عدلى أن قرار المجلس بإحالة المؤلف إلى النيابة يكون بمثابة اعتراض على تصرف الحكومة وذكر مسألة الثقة بالوزارة.

وكان جو المجلس مشتعلا فاقترح النائب أحمد ماهر رفع الجلسة عشر دقائق ذهب سعد إلى مكتبه بمجلس النواب وتبعه عدلي ورشدى باشا، وبقيا معه عشر دقائق.. ولكنه كان متعبا فاستقل سيارته إلى داره وأشيع أن كثيرين من النواب سيعرضون مسألة مساس الدكتور طه بالدين كاستجواب لرئيس الوزراء أو ينتظرون إلى أن ينظر المجلس الميزانية.

---

(١) خطبة سعد في الجماهير نشرتها الأهرام في ٧ نوفمبر سنة ١٩٢٦.

ونشرت الأهرام أن النائب عبد الحميد البنان قدم بلاغا إلى النيابة العمومية للتحقيق مع الدكتور طه حسين عما كتبه طعنا على الدين الإسلامي وقد تولى محمد نور بك رئيس نيابة مصر الجديدة حصره فى أربعة أمور.

كل هذا حدث قبل أن يغادر الفتى إلى الحجاز.. أما السنتان اللتان قضاهما هناك وفق استنباطى فتستغرقان مدة تخرج أقرانه وهو معهم حيث توقف عن الاستمرار فى مراجعة الدكتور طه حسين أولا - وثانيا أنه وجد فى عمله كناظر مدرسة تحقيقا لذاته.. ونجح من خلاله فى أن ينسى الماضى ويعيش فى الحاضر.. حتى عادة الحنين والشوق إلى ما هجره من الكتب التى تبحث فى الشعر الجاهلى الذى قد انشق بسببه عن الجامعة وانكب على دراسته فى بيئته، وكان لهذا وذاك مع الغربة أثره فى صقل شخصيته وتحويله من شاب ثائر حاد المزاج إلى شخص صلب العود مطمئن الفؤاد بالنسبة لماضيه، محصن ضد التحسر عليه وقد قر قراره على أن يجعل من نفسه يسعى للكمال والنجاح ما وسعه الجهد !

عودة إلى الوطن

عاد الفتى إلى أرض الوطن واندمج فى الوسط الأدبى ، وخالط أدباء وشعراء ذلك الجيل ابتداءً من أمير الشعراء أحمد شوقى الذى كان يلازمه أياما ولياالى طويلة، إلى أبناء جيله يحيى حقى ومحمود حسن إسماعيل وصديقه العقاد وزكى نجيب محمود وغيرهم كثير

سيأتى ذكرهم فيما ارتبط معهم من أعمال، وتفرغ للكتابة فى الصحافة والمجلات الأدبية مثل الرسالة والثقافة والمقتطف والبلاغ والزمان، ولم تصرفه المقالات المتتابعة عن مواصلة العمل فى جانب من أهم جوانب حياته ، وهو نشر روائع التراث بتحقيق علمى وفق منهج مستقل عرف عنه وتلقاه العلماء بتقدير كبير.

لكن هل أبحرت به سفينة الحياة آمنة هادئة وسط الأنواء والعواصف ؟

الشاهد انه كلما أوغلنا فى عالم «شاكر» نكتشف أن حياة هذا المفكر ما هى إلا سلسلة متصلة من المعارك الضارية ، فعندما أفردت له المقتطف عددا خاصا بمناسبة مرور ألف عام على وفاة المتنبى - كما ألمحنا سابقا - كتب أول دراسة لشخصية المتنبى من خلال آثاره الشعرية واعتبرته فيما بعد مرجعا أساسيا لدراسة شعر المتنبى.. لذلك .. وعندما أصدر الدكتوران عبدالوهاب عزام وطه حسين كتابهما عن المتنبى بعد عام واحد.. ارتفع الجدل والنقاش بين شاكر وغيره مرة أخرى حول الشاعر العباسى العظيم، وقضية الشعر العربى بوجه عام وكان شاكر انذاك فى الثامنة والعشرين من عمره.

وربما كان من القفز فوق الأحداث أن نقول : إن قضية المتنبى بين الرجلين أحدثت معركة حديثة. ذلك أنه عندما أعاد طبع هذه الدراسة مرة أخرى عام ١٩٧٧ مع إضافة أوجه اختلافه ومناقشاته مع الدكتور طه حسين وغيره.. كانت سببا فى فتح ملف هذا الجدل مرة ثالثة، وكتب الدكتور عبد العزيز الدسوقى رئيس تحرير مجلة الثقافة الجديدة، فى

سبتمبر عام ١٩٧٨، يوازن بين كتاب المتنبي للدكتور طه حسين، وكتاب المتنبى للأستاذ محمود شاكر.. فقال معلقا «إنه لشيء محزن أن يصل اللدد فى الخصومة، بين شاكر وطه حدا يجعلنا نسلب طه حسين أخص خصائصه ونتجاهل أجمل قدراته ، ونصفه بأنه رجل جاهل وليس له بصر يتذوق به الشعر» مما أحزن شاكر.. فرد عليه بعدة مقالات نشرت في الرسالة تحت عنوان «المتنبي ليتنى ما عرفته».

مما دعا شاكر إلى توضيح موقفه للدكتور دسوقى فقال : «أما عن مسألتى مع طه حسين فى الجامعة فى ذاتها فهى غير قادرة على أن تنشىء بينى وبين الدكتور طه «خصومة»، وأيضا، لم يكن لها، لا بالفعل ولا بالقوة، فى نفسى أو فى قلبى أو فى عقلى ، أو فى شىء مما أكتب، أثرا يمكن أن يحرك «خصومة» وإذا كنت ممن يخاصم الناس على آرائهم أو ممن يخاصم الآراء نفسها ، فأولى النا س كان بخصومتى هو مرجليوث صاحب المسألة وصاحب المتن.. أما الدكتور طه فلم يكن سوى ناقل لهذه المسألة.. وصاحب حاشية على هذا المتن لا أكثر ولا أقل، ولكن القضية التى نشأت عندى أنا وكانت محاضرة الدكتور سببا فى نشأتها يوم كنت طالبا عنده فى الجامعة، فهى «قضية السطو» على أقوال الناس وآرائهم وأعمالهم.. ثم ادعاء تملكها تملك عزيز مقتدر ثم الاستعلاء بهذا الملك المغصوب والإستطالة به على الناس.. وأبشع من ذلك انه ينكشف أمر هذا الغصب والسطو .. ويتسامع به الناس ويدل الكُتّاب والعلماء على الأصل المغصوب كتابة موثّقة منشورة، فلا يبالى الساطى بشىء من ذلك كله بل يزداد جرأة وتيها عما لم يقل، وكأن

ظهور سطوة فضيلة ترفع من قدره وتنوه به فى المجالس، أما أنا، مع أسفى واعتذارى.. فلم أعد هذا المسلك إلا احتقارا للناس أى احتقار وازدراء بهم وبعقولهم أى ازدراء ، وإنزالهم منزلة من لا يبصر ولا يسمع ولا يعقل ولا يحس».

ثم أنهى المقال بالرد على الاتهام الثانى فقال : «نعم أنا قلت مرارا لا أحصيها فى كتابى وفى مقالاتى عن كتاب الدكتور طه «مع المتنبى» أن الدكتور طه لا بصر له بالشعر «ولكنى لم أقل قط أنه لا بصر له بتذوق الشعر».

والجملتان غير متكافئتين فى المعنى حتى تغنى إحداهما عن الأخرى أو تقوم مقامها.. وأنا أعلم أن أهل زماننا يتساهلون فى كل شىء، ويتساهلون خاصة فى التعبير ، بلا تحديد ولا تحليل لألفاظ اللغة ، وكنت أحب لك أن لا تتابعهم على هذا التساهل. ولكنى أعلم أيضا أن هذه هى أيضا إحدى السنن التى سنها «الأساتذة الكبار» ، فغلبت على الناس وعلى ألسنتهم فأصابت منهم موقعا أغفلهم عن حقيقة الفساد الذى يجره التساهل».

المعروف أن الأستاذ زكى مبارك كان له نفس الرأى بأن طه حسين «لا بصر له بالشعر» وذلك فى أضخم معركة فى تاريخ الأدب العربى بين زكى مبارك وطه حسين ولكن الناس أيضا تنسى.. أو قل لا تقرأ تراثها الحديث.

أما عندما ظهرت فى سنة ١٩٤٣ الدعوات الهدامة، للدين ، والأخلاق واللغة التى صدرت عن دعوة هدم الدين.. ككتاب «فى الشعر

الجاهلي» لطه حسين فقد ظهرت بعض الكتب .. في الرد عليه وكان الأستاذ شاكر هو أول من رد عليه وهو لايزال طالبا.. أما دعوة هدم الأخلاق فقد شملت الشرق كله لا مصر وحدها.. فتزلزلت نظمنا القديمة كالحفاظ على الأسرة.. كما يلاحظ أن الآباء فقدوا سلطانهم على الأسرة.. زد على ذلك موجة الإسراف والتبذير وانتشار المخدرات.. ثم انتشرت الصور العارية في المجلات، من مجلة الهلال فنازلا - أو فصاعدا إن شئت لا أدري - كما قال الدكتور كامل حسين مؤلف «كتاب الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر» .. وانحرف على أثر كل ذلك التقاليد.. الشعر أيضا، كما طغت الرواية على سائر فنون الأدب حتى أهملت الشعر أو كادت.. وقد نبه إلى خطر هذا الانحراف بعض الكتاب، فأخذوا يلفتون إليه الأنظار فمن ذلك مقال لتوفيق دياب عنوانه «الأدب الماجن مفسد للناشئين»، كما أشار الأستاذ الغمراوي في نقده التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي للقصص الفاضحة التي يترجمها طه حسين من آن لآخر يلهي بها كثيرا من النشء ويضل بها كثيرا.

الفصل الرابع

تفنيد شاكر الدعوة إلى العامية

وكانت إحدى الشعب من الدعوات الهدامة فى ذلك الوقت تتجه إلى اللغة العربية تريد أن تفرق المجتمعين عليها بمختلف الحيل والأساليب، تحت ستار من الرغبة فى الاصلاح وفى مسايرة الزمان الذى دخلت فيه الأجهزة الحديثة» فقد بدأت هذه الدعوة فى أواخر سنة ١٨٨١ حين اقترح أحـدهم كتابة العلوم بلغة الحديثه.مما دعا رجال الفكر إلى بحث اقتراحه .. وفى ذلك الوقت كتب حافظ إبراهيم قصيدته المشهورة ، التى يقول فيها متحديا بلسان اللغة العربية :

وسـعت كتاب الله لفظا وغـاية

وما ضـقت عن آىٍ به وعظـات

فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة

وتنسـيق أسـماء لمخترعات

أنا البحر فى أحشائه الدر كامن

فهل ساءلوا الغواص عن صدفاتى

بعدها عادت المسألة من جديد سنة ١٩٢٦ .. حين دعا مهندس الرى الانجليزى فى مصر.. وهو السير وليم ولكوكس إلى هجر اللغة العربية، وخطا بهذا الاقتراح خطوة عملية ، فترجم أجزاء من الانجيل إلى ما أسماه «اللغة المصرية» ونوه سلامة موسى بالسير ولكوكس وأيده، فثارت لذلك ثائرة الخاصة والعامة .

ثم بدا أن الدعوة آخذة فى الانتشار، حين سارت اللهجة السوقية فى المسرح الهزلى ، ثم انتقلت إلى المسرح الجدى حين تجرأت عليه فرقة رمسيس الفرعونية الاسم.

ولكن أعجب ما ظهر من ذلك فى هذه الفترة وأغربه، مما لا يخطر على البال، هو أن الدعوة قد استطاعت أن تتسلل متلصصة إلى الحصن الذى قام لحماية اللغة العربية الفصيحة .. والمسمى «بمجمع اللغة العربية» فظهرت فى مجلته الناطقة باسمه سلسلة من المقالات عن «اللهجة العربية العامية» كتبها عضو من أعضاء هذا المجمع اسمه عيسى إسكندر المعلوف، ولعل ما يدعو إلى العجب حقا أن يختار المجمع لعضويته رجلا معروفا بعدائه الصريح للعربية وهو عداء عريق ورثه عن أبيه الذى أعلنه وجهر به حين سجله فى مقال له نشرته «الهلال سنة ١٩٠٢ .

وليس هذا هو كل ما يدعو للعجب من أمر هذا المجمع . فقد تقدم عضو من أبرز أعضائه هو عبد العزيز فهمى – ثالث الثلاثة الذين

شكلوا الوفد المصرى إلى المجمع فى سنة ١٩٤٣ - باقتراح كتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية وشغل المجمع ببحث اقتراحه عدة جلسات ، امتدت ثلاث سنوات ونشر فى الصحف ، وأرسل إلى الهيئات العلمية المختلفة ، وخصصت الحكومة جائزة مقدارها ألف جنيه لأحسن اقتراح فى تيسير الكتابة العربية .

ألا يدعونا ذلك لأن نتساءل : هل أنشىء هذا المجمع لينظم جهود حماة العربية ، أو أنشىء ليكسب الهدم والهدامين صفة شرعية ؟.

وشبيه بموقف مجمع اللغة العربية موقف الجامعة العربية التى أصدرت لجنتها الثقافية فى ١٩٥٥ كتابا فى «اللهجات وأسلوب دراستها» لأنيس فريحه ، وموضع العجب أن الجامعة العربية هى جامعة اللغة العربية ، وأن اللغة العربية المقصودة هى اللغة الفصيحة التى تشترك فيها سائر الدول العربية . وهذه اللغة العربية الفصيحة هى وحدها الجامعة التى لا يستطيع أن ينكرها دعاة الشقاق ولا يستطيع أن يمارى فيها أصحاب الأهواء والأغراض غيهم ، فإذا تفرق الناس فيها وذهب كل بلد بلهجته . لم يستطع بعضهم أن يفهم عن بعض فينفرط عقدهم . وهل وجد الكومنولث إلا نتيجة للغة الانجليزى المشتركة بين دوله ؟ أليس عجيباً أن يستغل منبر الجامعة العربية لهدم الجامعة العربية ؟

أو ليس فى ذلك من التناقض ما يدعو إلى الرثاء ؟» .

وقد أفضت المعركة إزاء الدعوة إلى اللغة العامية .. أو كتابة العربية بالحروف اللاتينية إلى قناعة وطنية وقومية بأنها أخطر معاول الهدم ، لأن الدعوات التى تستهدف هدم الدين والأخلاق قد تضل جيلا من الشباب ، ولكن الأمل فى إنقاذ الجيل القادم سيظل كبيرا مادام القرآن حيا مقروءا وما دام الناس يتذوقون حلاوة أسلوبه وجمال عباراته .. أما هذه الدعوة الخطيرة - أو كتابة العربية بالحروف - اللاتينية فهى ترمى إلى قتل القرآن نفسه - وهيهات .. والحكم عليه بأن يصبح أثرا ميتا كأساطير الأولين التى أصبحت حشو لفائف البردى ، أو بأن يصبح أسلوبه عتيقا بالياً بتحويل أذواق الأجيال الناشئة عنه وتنشئتهم على تذوق ألوان أخرى من الأساليب المستجلبة من الغرب وبينما نجح اليهود فى إحياء لغتهم العبرية الميتة ، واتخاذها لغة للأدب والحياة ، كان بعض المفتونين من العرب ينادون - ولا يزالون - بأن اللغة العربية الفصيحة لغة ميتة ، وينشرون فى ذلك المقالات الطوال المكتوبة «بالعربية الفصحى» التى يزعمون موتها ، والتى يقرؤها أقل الناس حظا من الثقافة فى الصحف فلا يغيب عنه منا شىء ، بل إناً نرى الأميين فى الصباح وفى المساء مجتمعين حول رجل منهم لا تتجاوز ثقافته الإلمام بالقراءة ، يطالع لهم الصحف وهى غير مضبوطة بعلامات الشكل وهم من حوله يستمعون ويفهمون .

وتستطيع أن تحصر هذه الدعوات الهدامة التى تستهدف قتل العربية الفصيحة فى شعب ثلاث كذلك تتناول أولاها اللغة ، فيطالب بعضها بإصلاح قواعدها ، ويطالب بعضها الآخر بالتحول عنها إلى

العامية . وتتناول ثانيتها الكتـــابة فيدعو بعضها إلى إصلاح قواعدها ، ويدعو بعضها الآخر للتحول إلى الحروف اللاتينـية - كما فعل كـمال أتاتورك بالأتراك - وتتناول الشـعبة الثـالثة الأدب فيدعو بعضها إلى حق يراد به الباطل عبر العناية بما يسمونه الأدب الشعبى ، ويقصدون به كل ما هو متداول بغير العربية الفصحى مما يختلف فى البلد الواحد باختلاف القرى وتعدد البيئات .

أما ما يتناول اللغة .. أو محاربة الفصحى والتخلص منها ، أو كتابتها بالحروف اللاتينية الذى تقدم به عبد العزيز فهمى وهو من شيوخ مجمع اللغة العربية - فهو ما اعتبره شاكر وهو على حق فى ذلك - قضية تتعلق بمستقبل الثقافة العربية كلها . الأمر الذى فرض عليه خوض معركة من أعنف معاركه وأشدها ضراوة ضد أنصار هذه الدعوة دفاعا عن اللغة العربية ، فبينما كان قبل هذه الدعوة يكتب بخيوط من الحرير عن الشعر فى مجلة الرسالة عن شاعر الحب والفلوات (ذى الرمة) ومنكرات عمر بن أبى ربيعة الذى أسماه فى هذه المقالات . «صديق إبليس» ، عاد إثر اندلاع هذه المعركة ليكتب بشظايا النار مقالاته عن الحرف اللاتينى والعربية ، من العدد ١٢ : ٣٠٨ : ٣١٠ فى الرسالة .. كانت كالجمر ألقاها فى حلوق المنادين بكتابة اللغة العربية بالحروف اللاتينية .. حتى وئدت هذه الدعوة وسكت أصحابها والمتحمسون لها .

فى مجلة الرسالة فى ١٠ أبريل ١٩٤٤ كتب يقول : «عبد العزيز فهمى رجل كنا نعرفه بالجد والحرص والفقه وطول الباع فى

القانون ، وكنا نظنه رجلا محكم العقل فى جميـع نواحيه لا يتدهور إلى ما ليس له به عهد ولا يرمى بنفسه فى غمرات الرأى إلا على بصيرة وهدى ، فلما قال ما قال عن الحروف العربية في المجمع : ونشرت الصحف قوله ورأيه قلنا : عسى أن يستفيق الرجل ويعود إلى سالف ما عهد فيه من الحكمة والمنطق : وأن يكون ما قال خالصاً لخدمة العربية ..

إن أول التضليل فى رسم العربية باللاتينية أن يضيع على القارىء تبين اشتقاق اللفظ الذى يقرؤه . فإذا عسر عليه ذلك صار اللفظ عنده بمنزلة المجهول الذى لا نسب له ، وصار فرضا عليه أن يعمد إلى رسم المادة الواحدة من اللغة فى جميع صورها التى تكون فى السياق العربى، ثم عليه أن يحاول تقريب الشبه بالذاكرة الواعية ثم عليه أن يحفظ معانى ذلك كله . فإذا كان هذا شأنه فى المادة الواحدة فما ظنك باللغة كلها .. يومئذ تصبح العربية أجهد لطالبها من اللغة الصينية ، نعم ، وإذا ضل عن تبين الاشتقاق والتصريف فقد ضل عن العربية كلها لأنها لم تبن إلا عليهما ، وهى فى هذه الوجهة مخالفة لجميع اللغات التى تكتب بالحرف اللاتينى ، لأن الاشتقاق والتصريف يعرضان لها من قبل بناء الكلمة كلها حتى تختلف الحركات على كل حرف فى كل بناء مشتق أو مصرف ثم يزيد على ذلك ما يدخل الكلمة فى جميع ظروف . الحروف العاملة وغير العاملة ثم علل الإعراب والبناء والحذف ، إلى آخر كل ما يعرفه كل مبتدئ فى اللغة العربية .

وقولـه حل الطلاسم ، فـأى طــلاسم ؟ ، أهى الطلاسم التى تدخل على كل حرف من الحروف فى المــادة الواحــدة ؟ ، ألوانا من الحركات تكتب بـين كل حـــرف وحــرف وفـى أواخــر كل كلمــة وتقف فـواصل متباينات بين حروف مادة واحــدة من لغـــة بنيت على الإشتقاق وعلى الاختـصـار وجـاءت فيـها الجمـوع المختلفة والصـفات والأبنية ذوات المعانى .

أهذه هى الطلاسم أم تلك وأيـهمـا أفسـد لوقت المسلمين وغيرهـم من أهل البلاد العربية ؟ بل أيهما أخزى وأشنع فتكا وشراسة ؟ ، بل أيـهما الذى يغول العقل لا الوقت وحده ؟

ولكنها فتنة ! فتنة ! اغتر بها شيخ صالح فاستغلها من لا يرى حقا ولا حرمة» .

عندمـا قرأ عبد العزيز فـهمى هذا المقال الذى كتبه مـحمـود شاكر أرغى وأزبد وشـتم عـلامتنا بابن « ...» وعندما راجـعه الحـاضـرون بأنه أصغر أبناء الشيخ محمد شاكر أردف «بأنه يشتهى تجريح من هو أكبر منه سنا ، حاسبا أن ذاتيته تعلو بهذا التجريح» .

ذلك مـا عـرفنـاه من كتـاب شقيق مـحمـود شـاكـر ، العـلامـة أحـمد مـحـمـد شـاكـر فى كـتـابه «الكـــتـاب والســنة يجب أن يكونا مـصـدر القــوانين فى مـصـر ومـعـه الشـــرع واللغـة» الذى صـدره بعـبارة «وكلمة الله هى العليا» حيث كتب فى صـفـحـتى ٥٢ ، ٥٣ ومـا بعـدهمـا ولكنى أردت أن يكشـف - عـبـد العـزيز فـهـمى - عن مـقـصـده الحـقـيــقى باقتراحه ، من كلامه وألفاظه ، وأن أنقــد بعض مـا عرض له من مسائل

فى العلم ، ظهر أنه لا يعرف فيها شيئا ، عرض لها عرضا عجيبا ، لو تركه ستر نفسه» .

«أما اقتراحه الميت السخيف - يعذرنى صاحب المعالى فى استعمال هذه اللفظة النابية ، فقد حاولت جهدى أن أجد خيرا منها فى موضعها ، ما عجزتنى المحاولة» .

«ثم إنى لم أر فى استعمالها بأسا ، بعد أن وصف هو بها الرسم العربى عشرات المرات فى كتابه - فما أبالى أن لا أرد عليه ، اكتفاء بما قيل من قبل ، وثقة منى أن لا تقوم له قائمة من بعد » .

وأنا أعلم أن معاليه سينطلق فى أثرى كما انطلق فى أثر الذين من قبلى ، ثائرا عنيفا ، مستعليا مستكبرا ، كأن لم يسمع كلمة الحق ، وأنه سيرمينى كما رمى أخى السيد محمود محمد شاكر «بأنه يشتهى تجريح من هو أكبر منه سنا ، حاسبا أن ذاتيته تعلو بهذا التجريح ولكن لا أبالى » .

معركته مع سيد قطب والأخوان

ومرت سنوات ثمانية على معركة شاكر مع عبد العزيز باشا فهمى ليدخل معركة أخرى فى مواجهة الأستاذ سيد قطب ، الذى كتب يزعم أنه ليس من الصواب بدء الحديث (الكلام) بعبارة : السلام عليكم .. وإنما الأصح عربياً أن يقال : سلام عليكم ويكون الرد هو وعليكم السلام .. بألف ولام التعريف . فنشر الأستاذ رده فى جريدة الأخوان المسلمين نفسها .. بأربع مقالات . اثنتين منهما بعنوان «حكم بلا بينة» العدد ٢٣ ، ٤٨ والآخريين بعنوان «تاريخ بلا إيمان» العدد ١٣٨ ، ١٤٥

وفحواها أن هذا القول زعم باطل وأن المسلمين يقولون خمس مرات فى اليوم على الأقل فى تشهدهم فى الصلاة «السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته .. كما استشهد ببيت من شعر جرير هو :

يا أم ناجية السلام عليكم   قبل الرحيل وقبل عزل العزل

وبعد هذه المعركة مع سيد قطب .. نشبت معركة أخرى - بعد سنة - مع جماعة الأخوان المسلمين قاطبة وليس سيد قطب وحده : ذلك أن الإخوان كانوا فى دعواهم يقولون أن الإسلام لم يحكم به إلا فى عهد أبى بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب . فكتب بعضهم فى هذا المعنى الذى يهاجمون به ضمنيا الدولة الأموية .

وقد سخط الأستاذ محمود شاكر على هذا المفهوم الضيق لنظرة الأخوان إلى دول الخلافة .. «وكان يتحدث بذلك مع بعض أصدقائه مستنكرا هذه الدعوة فقال له الأصدقاء ولماذا لا ترد على من كتب هذا ، فقال وأين أرد ، وقد أغلقت الرسالة ١٩٥٢» قالوا فى مجلة المسلمون ذاتها .. فقال ولكن لهذا وضع خاص فإنى كنت أستنكف أخذ أجر مقالاتى فى الصحف والمجلات إلا أنى لن أكتب فى هذه المجلة إلا بأجر فوافقوا على ذلك فكتب الأستاذ شاكر أربع مقالات :

اثنتين منها بعنوان : «لا تسبوا أصحابى» العدد ٢٤٦ ، ٢٥٥ سنة ١٩٥٢

والاثنتين الأخريين «السنة والمفترون المسلمون» العدد ٣٥١ ، ٣٥٩ سنة ١٩٥٢» أيضا رد فيها على من هاجموا حكم بنى أميه ، بدعوى أنه

غير إسلامى ، ومما قاله : إن محمد بن الحنفيه أخا الحسين بن على بن أبى طالب ، كان يتناول الطعام حينما بلغه موت معاويه ، فسقطت اللقمة من يده فسأل : فمن بويع بعده بالخلافه ؟ قالوا : يزيد ابنه ... فقال : فتى قريش وفارسها ، وعاد لتناول طعامه قرير العين مع أن يزيد هو نفسه الذى قُتل الحسين فى عهده .

وقد استدل علامتنا بهذه الحادثة ، على أن الخلافات السياسية بين على بن أبى طالب وأبنائه من جهة وبين معاوية وأبنائه من جهة أخرى لم تمنع أحدهم من أن يكون حسن الرأى فى الآخر ، ولم يذهب أحدهم إلى تكفير الآخر على نحو ما يفعل الأخوان المسلمون الآن .

ثم تساءل : ألم يكن عمر بن عبد العزيز بن مروان - الملقب بالخليفة الخامس للخلفاء الراشدين ، أمويا ؟ وعبد الملك بن مروان نفسه ألم يكن فقيها سديد الرأى ألم يكن أمويا أيضا ؟ وهل أول من ضرب الدنانير العربية وأبطل استعمال الدنانير الهيرقليه إلا أموى ؟ ثم قال : أما عما قالوه من أن الإسلام لم يحكم إلا فى عهدين فقط هما : عهد الصديق أبى بكر ، وعمر بن الخطاب رضى الله عنهما .. بأن من يقول ذلك يدخلنا فى صراع سياسى لا نحتاجه .. ونحن لا نملك إخراج أحد من الإسلام .. وعلى ذلك فإن هذه المقولة إساءة للاسلام وليست دفاعا عنه.

★★★

هذه اللمحات مع استطراداتها المطولة فى محاولتنا رسم صورة

هذا الرجل، تؤكد أنه حقا يعيش منذ شبابه صراعا يكاد يمزقه كلما رأى الأمة العربية تنشق على كل تاريخها الماضى وتساق إلى مجزرة نصبها الغرب لها وهى نشوى بها فرحة. ولقد ملأت هذه الحقيقة عالم هذا الرجل فوهب حياته وكتبه ومعاركه التى خاضها والتى تشعبت طرقها إلى هتك الأستار المسدلة على الأشباح الغربية الخبيثة التى تريد أن تنقض على مجتمعنا العربى المسلم.. وتدك البناء العظيم الذى بناه آباؤنا فى قرون متعاقبة وصححوا به فساد الحياة البشرية فى نواحيها الانسانية والأدبية والأخلاقية والعلمية والعملية والفكرية.

ورغم قوة حجة هذا العملاق الذى يقف مدافعا عن العرب والإسلام بنبرة لاذعة: فإننى أبصرت بعض الضوء وسط هذا العالم أنار لى الطريق إلى محرابه ، خلاصته أنه إذا كان جيل العمالقة قد حال دون وصول الضوء إلى من بعدهم فغيم عليهم: عبدالرحمن صدقى - على أدهم، مع أقرانهما - فإن هذا الغيم كان واحة هادئة للذين أتوا معهم أو بعدهم على اختلاف مشاربهم ، وقد اهتديت إلى هذه الملاحظة من خلال ما كتبه هؤلاء المثقفون أنفسهم ، فحينما تقرأ السيرة الذاتية ليحيى حقى والتى تصدرت أعماله الكاملة تجده يقول:

«وأثناء عملى بديوان وزارة الخارجية. كانت الكتابة بالنسبة لى خاطرا غير تام الأدوات.. ولكن عندما توثقت صلتى بالمحقق البحاثة الأستاذ محمود شاكر، وقرأت عليه عددا من أمهات كتب الأدب العربى القديم ودواوين الشعر.. انفتح الطريق أمامى ومنذ ذلك الحين وأنا شديد الاهتمام باللغة العربية وأسرارها وبيانها وسحرها».

وقال لى الشاعر العظيم الراحل محمود حسن اسماعيل.. الذى قامت علاقة وطيدة وصداقة بينه وبينه علامتنا محمود شاكر منذ ١٩٣٦.. انه يعد الأستاذ شاكر إماما عليما بأسرار البيان العربى فى شعره ونثره ومرجعا حيا للثقافة العربية فى مجموعها.. وأنه كان يأنس له.. بل إنه كان الإنسان الوحيد الذى يسمح له أن يصوب له أى بيت من أشعاره.. وعندما قلت له كأنه لك كإزرا باردند بالنسبة لأليوت - قال: أنصحك عندما تعرفينه ألا تتفوهى بمثل هذه التشبيهات الأجنبية فهو يمجها ويعنف قائلها».

وعندما سألته عن تأثير شاكر عليه.. قال: «لا استطيع تحديد أبعاد ما حزته من صداقتى لمحمود.. لقد زج بى إلى الشعر الجاهلى، وأمالنى مع الشعر الأموى، وطوح بى مع الشعر العباسى، فأحاطنى بلحمة الشعر العربى وسداه جميعا.. وأستطيع القول أن شعرى قبل معرفتى بمحمود كان نبعا هادئا فجعله بحرا متلاطما». فعرفت من هذا وذلك كيف كانت تلك الرابطة القوية بين الرجلين وكذلك من قصيدة الأستاذ محمود حسن اسماعيل، فى تقديمه لقصيدة شاكر «القوس العذراء» بخطه الموسيقى الجميل.

وهاتان الحقيقتان المضيئتان - حقى، وإسماعيل، تتناقضان مع الحقائق المظلمة مع الدكاترة طه حسين، ولويس عوض، وعلى جواد الطاهر ، وإن دلت نتائجهما على شىء فإنما تدل على أن محمود شاكر كان نورا دافئا لكل صالح وأصيل، وأنه النار الكاوية لكل زائف أو جاهل ببواطن الأمور.

وهذا كله يدل على أن هذا العالم لم يشغله فى حياته، إلا البحث والاستكشاف فإذا حدق فى صورة ما، ووقعت عيناه على شائبة ما، اندفع كالاعصار لاستلالها من الصورة حتى تظل الصورة نقية، كما أنه رجل رد الفعل أيضا. وحقا إن كل الأعمال والأفعال الانسانية هى ردود أفعال بشكل أو بآخر، ولكننا نجد أن رد الفعل عند محمود شاكر يكاد يكون محركه الأول ومستفزه على الكتابة ولو كان في حالة عزلة.. فمن المعروف أن اعتزاله الكتابة سنة ١٩٥٣ كان بدستور موثق فى أربع مقالات متتالية لمجلة الرسالة. اشهد فيها قراءه ومثقفى عصره على هذا الاحتجاج والاحتجاب من الواقع الفكرى والثقافى.

ففى مقالته الأولى في ٥ يناير ١٩٥٣ وكانت بعنوان «فيم أكتب» لايرى أى اتجاه أو إصلاح للعالم العربى أو الاسلام» الذى اهملته أو استبعدته الأمم المختلفة بأساليبها الظاهرة والخفية، ذلك أن عصرنا كما يراه محمود شاكر وكما نحياه «مهد له جبابرة الدعاة لا أقول منذ عام أو عامين بل منذ أكثر من مائة عام حطم كل شيء قليلا قليلا حتى خر البناء كله». فهو يعزف عن الكتابة لهذه الأسباب ولأنه يجد نفسه فجأة فى موج متلاطم من الضلالات تتقاذفه ضلالات العلم المكذوب، وضلال الرأى المدلس، وضلالات السياسة الخادعة، فبأى لسان أستطيع أن أفتق للناس أسماعا غير الأسماع الذى طمسها الكذب المسموع؟ وبأى قلم استطيع أن أسلخ عن العيون غشاوة صفيقة لبسها الكذب المكتوب.

المقالة الثانية أبصر طريقك «......» ١٩ يناير ١٩٥٣ يرصد فيها

مقاصد أعداء العرب والاسلام.. فيرى ان خطتهم كانت هى «دك الحياة الإسلامية كلها، بناء هذه الحياة علمها، آدابها، أخلاقها، تاريخها، لغتها، ماضيها، وفى خلال ذلك ينشأ بناء جديد لهذه الحياة بعلم غير العلم وأدب غير الأدب.

أما الرسالة الثالثة: باطل مشرق «.......» ٢٦ يناير ١٩٥٣، يشخص فيها جوهر الحياة المعاصرة، ويصفها بأنها مثل «الباطل المشرق المضيء له فتنة تنادى كفتنة وجه الحسناء الخبيث المنبت تأخذ بعين الناظر فيقبل عليها ملقيا بنفسه فى مهالك هذا الجمال الآسر، واذا المنبت الخبيث ذرة مستهلكة فى هذا التيار المترقرق من فتنة الحسن والهوى.

الرابعة والأخيرة بعنوان غرارة ملقاة « ٢٣ فبراير١٩٥٣ ينتهى إلى أن «.......» الحياة إحساس محض والحس حر مطلق فأيما مذهب أو جماعة أو دولة حاولت ان تدمج بالختل حسا فى حس أو تطابق بالخديعة إحساسا فى إحساس فلا غاية لها الا استعباد أحرار الحياة وتدمير سر النشأة وتخريب بنيان الله بأخس الأسلحة، بالكذب والتغرير والختل والخديعة والعبث، انهم يريدون أن يجعلوا المذهب أو الجامعة طاغوتا يعبده المضللون داعين متضرعين ألا إنهم هم المفسدون ولكن لايشعرون».

وتكشف هذه الرسائل عن الخط الفكرى العام للأستاذ محمود شاكر للواقع الثقافى العربى المعاصر الذى يرى فى تشخيصه له، أنه يفقد هويته تدريجيا وتتغير بنيته شيئا فشيئا بفعل أساليب مقصودة وموجهة، حتى تصبح الهوية غير ذات الهوية، والبنية غير ذات البنية..

وهذه الرسائل تظهر فيها إلى حد ما إرهاصات منهجه الفكرى أو تحليله لتاريخ الأمة الاسلامية كما تجلى فى «الطريق الى ثقافتنا» وهو التحليل الذى ظهر بشكل منهجى أكثر فى رصده للتغيرات السياسية والثقافية بفعل صراع الأمة الإسلامية مع الغرب الإستعمارى.

وهكذا عندما نشرت البحوث التسعة «على هامش الغفران» للدكتور لويس عوض فى ملحق الأهرام.. ثار وفار ومزق المواثيق والدساتير التى كرست عزلته ، وأمسك بالقلم من جديد فكان كتابه «أباطيل وأسمار» فإذا أضفنا إلى ثورته هذه الثورتين اللتين احتج بهما على المفاهيم الخاطئة، والمآخذ الباطلة التى كتبها كل من الدكاترة طه حسين والدكتور على جواد الطاهر، ولما كانت الطبعتان الثانية والثالثة لكتابه عن «المتنبى فى المقتطف.. والذى صدرت مقدمة طبعته الثانية بكتاب منفصل عن دار الهلال تحت عنوان «رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا». ولولاها أيضا ما خرج «برنامج طبقات فحول الشعراء».

عندئذ نوافق الدكتور عبدالعزيز كامل «لو لم يستفز الأستاذ شاكر لما أغنى المكتبة العربية بهذه الكتب النادرة».

ولعله من الاستطراد المفيد أن نذكر، أن رد فعل شاكر اختلف بالنسبة إلى الرجال الثلاثة ، فبينما هاجم شاكر الدكتور طه حسين.. وكان بينهما فروق فى العمر تبلغ العشرين سنة.. إلا أن الدكتور طه بعث لشاكر ولمجلس أبيه بنيليو ليقنعه بالعدول عن موقفه. وهذا إحساس أب نحو ابنه، بل إن نيلينو ربما نقل للدكتور شروط الطالب شاكر للعودة إلى الجامعة.. وهى أن يعترف الدكتور طه بعملية السطو. مع ذلك فإن شاكر ينبئنا أنه عندما تسلم أول رسالة من والده وهو فى السعودية

وجد والده يقول له: زارني عصر سفرك للسويس الدكتور طه حسين، وأنهى الرسالة، وهذا يعني أن الدكتور طه كان لديه شعور بالذنب تجاه شاكر، ربما لأنه يعرف بينه وبين نفسه كم هو على حق.. ذلك أن الدكتور طه عاد سنة ١٩٣٥ أى بعد تسع سنوات من صدور كتابه فى الشعر الجاهلي سنة ٢٦. فنشر فى جريدة الجهاد مقالات، تشى بأنه رجع عن أقواله السابقة فى الشعر الجاهلى، وببعض ما صارح به شاكر بعد ذلك وصارح به آخرين، من رجوعه عن أقواله السابقة بأن الشعر الجاهلى منحول ولكنه لم يكتب شيئا صريحا يتبرأ به مما قال أو كتب، وهذه كما يقول محمود شاكر كانت عادة «الأساتذة الكبار» يخطئون فى العلن، ويتبرأون من خطئهم فى السر.

كما أن الدكتور طه حسين كان أول من رشح الأستاذ شاكر للمجمع اللغوى.. لذلك فإن شاكر يحمل قدرا من الإجلال لطه حسين.. بل إنه لم يدخن يوما فى حضرته ولم يضع ساقا فوق ساق استخفافا إذا جلس اليه.

هذا ما كان من طه حسين تجاه شاكر، أما لويس عوض، فعندما جمع بحوثه التسعة فى كتاب، ظهر عن دار الهلال بعنوان على هامش الغفران سنة ١٩٦٦.

بين شاكر ولويس عوض

قال فى مقدمته: عندما نشرت هذه البحوث .. تصدى لنقدها ولنقدى المحقق المعروف الاستاذ محمود شاكر على صفحات مجلة «الرسالة» وشاركه فى هذا العبء اساتذة آخرون فى مجلتى الرسالة، والثقافة.. وغيرهما.. ولست أحسب أن كل ماكتبه نقادى عنى كان يدور حول

موضوع الغفران، فقد استطردوا الى وجوه أخرى من انتاجي الأدبى والفكرى خلال ربع قرن كانوا قد صمتوا عنها ذلك الزمان المديد وفى مقدمة هذه الوجوه موقفى القديم من عمود الشعر العربى التقليدى ثم موقفى من تاريخنا الثقافى والفكرى إبان الحملة الفرنسية على مصر، وموقفى من تاريخنا القومى والروحى إبان ثوراتنا الكبرى على روما وبيزنطة، ثم بعض اجتهاداتى.

ومن أراد فكرة مجملة عن صورتى فى ذهن نقادى، فهى أنى، باختصار ، فى يقين بعض أدباء اليسار قائد الفكر اليمينى فى العالم العربى، كما كتب عنى الشاعر المبدع عبدالوهاب البياتى وذلك الناقد اللبنانى الشريف القلم العف البيان حسين مردة، وأنى باختصار فى يقين بعض أدباء اليمين قائد الفكر اليسارى الماركسى الملحد فى العالم العربى. كما كتب عنى نقاد مجلتى «الرسالة» و «الثقافة» وغيرهما. وفى يقين فئة ثالثة أنى آخر قنصل للعالم المسيحى فى مصر منذ الحملة الصليبية، كما كتب عنى الأستاذ محمود شاكر فى كتابه «أباطيل وأسمار» وهو الجزء الأول من مقالاته عنى فى مجلة الرسالة، وفى يقين فئة رابعة»..

«كل هذه المتناقضات كتبت عنى فى فترة «الغفران» أو حولها، ولاشك أنى انتفعت بشىء قليل من نقد نقادى، ولاسيما الأستاذ المحقق محمود شاكر ولولا جموحه وجنوح قلمه لانتفعت من علمه كثيرا».

«ولكنى فى الحق لم أكن إلى حين قريب.. أتصور أنى أمثل هذه

الخطورة فى الثقافة العربية أو على الثقافة العربية بحيث يصدر عنى فى عام واحد ثلاثة كتب هى «الغزو الفكرى» لجلال كشك و«أباطيل وأسمار» «لمحمود شاكر». و«دراسات نقدية فى ضوء المنهج العلمى الواقعى «لحسين مروه» عدا مئات من عرائض الإتهام».

«ولكنى ــ والله أحمد ـ لازلت فى يقين الكثرة الغالبة من المثقفين العرب، ولاسيما المعتدلين منهم، خادما مخلصا من بين خدام الثقافة العربية.. وأنى قد أصيب وقد أخطىء فيما أكتب وفيما أرى، ولكن شططى لا يوصد دونه باب الغفران لأنه من شطط الاجتهاد لا من شطط الضمير..».

ولكن الدكتور لويس عوض عاد بعد هذا الكلام بسنة أى فى عام ١٩٦٧ فوجد أن هذه الكلمات لم تشف نفسه من محمود شاكر ورؤيته فى الحياة المعاصرة ومن غيظه من هؤلاء الذين يصوبونه كلما كتب مقالا مثل الأستاذ عبدالجليل حسن الذى رد عليه عندما علق على كتاب الجبرتى عن الحملة الفرنسية على مصر فقال إن العاهرات المصريات السمراء منهم. والبيضاء كن يتسورن تكنات الجنود الفرنسيين، لأنهن عرفن أن الفرنسيين قاطبة يريدون مطلق المرأة تعليق كان لويس لأنهم جاءوا بمبادىء الثورة الفرنسية التى لاتفرق فى البشرية بين أسود وأبيض.. وأنهم نادوا بحرية المرأة، وقد كتب له الأستاذ عبدالجليل أن كلمة «مطلق» فى قاموس الجبرتى تعنى «أى امرأة» ولكل عصر قاموسه الخاص.. أى أن مطلقه ليست مبادىء الحملة الفرنسية فى تحرير المرأة.

ورغم غيظه أيضا من الأستاذ الدكتور مندور الذى قال هو عنه فى كتابه «مذكرات طالب بعثة»: إنه من غير مندور كنت دخلت باريس حمارا وخرجت حمارا» لذلك فإن الدكتور مندور بعد صدور هذا الكتاب لم يناده إلا بهذا الاسم.. بل إنه صوبه أيضا يوم نقد ديوان صلاح عبدالصبور أحلام الفارس القديم عندما جاء على سهو مطبعى للهمزة فى أحد أبياته.. فكتب لويس عوض.. إن صلاح أجرى عملية السنكوب على الهمزة فلما فتح الدكتور مندور دائرة المعارف أمامى وأمام لويس وجد أن مصطلح سنكوب شعريا هو بحر «الأيامب» المتحرك فى الشعر الإنجليزى، حركتان وسكون وحركتان وسكون ويقابلها موسيقيا قياس ترديد النغم بين وتر وآخر.

وعاد لويس عوض سنة ٦٧ ليصدر كتابه «المحاورات الجديدة» ودليل الرجل الذكى إلى الرجعية والتقدمية» وغيرهما من المذاهب الفكرية من كل صوب ، الذى ارتأى فيه الحوار مع كل المشتغلين بالأدب والفن، وعلى مختلف درجاتهم ومناصبهم، الإعلام منهم وأنصاف الأعلام والنكرات ليصور لنا حقيقة الصراع الفكرى الدائر فى مجتمعنا ـ كما يراه هو ـ ولكى يتحاشى أن ينظر فى أعين هؤلاء جهارا راح يصنع لكل منهم قناعا، أما وصف القناع واسمه فهو رأى لويس عوض الرمزى فى هؤلاء الأدباء.. وأوضح شخصيات الكتاب هم على الزيبق الجوكى الشهير بالزمبرك. الأيديولوجى الفهلوى، ابن ملكوف بن سيركوف، بقال العروبة وصور الأستاذ محمود شاكر تحت قناع «مجاهد بن الشماخ، والمعلم التاسع الذى تخلف عن الحضور بحكم السن هو طه حسين

واحتجز لنفسه قناع المعلم العاشر».. وكان كلما إحتاج الى مشورة بعض الخبراء الأجانب الذين يؤيدون رأيه جاء بهم من قبورهم ثم أعادهم إليها بعد أن يدلوا برأيهم.

وعندما خال أن الأقنعة ستؤدى دورها بدقة احتاج للموضوع الذى ستدور المحاورات حوله، فاختارله قناع «قضية المرأة» ومكانتها خلال العصور وفى مجتمعات مختلفة، ليثبت: أن المرأة الحديثة أقل وقارا من المرأة فى العصور القديمة باعتبار أن هذا الموضوع مواز لموضوع الفكر والفن، ومن الممكن أن تنعكس عليه مواقف شخصياته التى تمثل حركة الأدب والفن فى مصر وهى حركة يراها الدكتور لويس عوض عقيمة بوجه عام، تدور بين قطبين كلاهما زائف اليقين: قطب يمثل انتهازية اليمين والآخر يمثل انتهازية اليسار وبينهما حلف مدنس...» وبين هؤلاء وهؤلاء حكيم صادق الإيمان راسخ العلم هو المعلم العاشر. الذى يواجه مجاهد بن الشماخ أو الأستاذ محمود شاكر بثبات ويقين ـ ومجاهد بن الشماخ اسم استلهمه الدكتور لويس من قصيدة شاكر الملحمية «القوس العذراء» المبنية على شعر للشماخ وهو شاعر مخضرم ـ وجعله العربى التقليدى الذى يهش فى وجه كل جديد متهما إياه بالسذاجة.. ويصيح فى كل وارد.. بأنه من أفعال المبشرين أو أنه مؤامرة صليبية. تذكروا بيزنطة هؤلاء هم أعداؤنا التقليديون، قولوا معى فلتسقط صولون وأهل صولون: إننى سيلفى وأفخر بأنى سلفى.

وبذلك يكون لويس قد فشل، لأنه خلط فى تصويره لشاكر بين

الأصالة التى يدعو إليها عالمنا.. وبين التقليد الذى يتصوره لويس تجديدا.

وقد انقسمت آراء النقاد حيال هذا الكتاب، إلى مؤيدين ومعارضين وربما كان مرجع التأييد أو المعارضين إلى إستشفاف المتصدين لنقد الكتاب لشخصياتهم من وراء الأقنعة.. فانبرى كل يدافع عن نفسه ويدفع التهمة الموجهة إذا كان قد تكلم، ويطالب بالكلمة إذا كان قد أتى به ولم يتكلم إلا أننى لم أقرأ بين كل هذه الردود، رد محمود شاكر، وأكثر الظن أن الأستاذ شاكر اعتبر كتاب لويس عوض برمته.. نكتة يضحك منها.. كما ضحك قبل ذلك من «بلوتولند» وقصائد أخرى «الذى أصدره لويس عوض سنة ١٩٤٧ حين كتب شاكر فى صفحة ٩٠ من كتابه «أباطيل وأسمار» فرغت من المقدمة، وأنا أعدها تحفة، لاستخراجها الضحك من قبضة التقطيب والعبوس فلما أفضيت إلى ما سماه «من شعر الخاصة» وجدتنى قد ظفرت بما فوق المنى، بترياق للهم عجيب فمن يومئذ خف «أجاكس عوض» على قلبى جدا، ورأيته ذخيرة تصان وطرفه عزيزة لاتمتهن..».

واسم أجاكس عوض أسئلة الأستاذ شاكر بدوره من مقال للويس عوض فى وداع الدكتور مندور، حين شبه مندورا بأخيل، محاصر طروادة، وشبه نفسه بأجاكس، وهو كما صوره هوميروس فى شعره مخلوق جرىء شديد البطش ولكن بلا عقل وبلا حكمة، ثم زعم أنه ومندور.. أى أخيل وأجاكس خرجا فى صباح الحياة إلى قصر الربة

أثينا، صانعة الدروع، لتصنع لنا دروع الفكر وتملأ جعابنا بسهام الحرية.. وفى صباح الحياة عدنا معا لنحاصر طروادة، مدينة الموت، ذات الأبراج السوداء والأبراج العالية.. وهو يرمز بطروادة هنا إلى مصر ورجعية الفكر فيها، ويزعم الدكتور لويس أو أجاكس أنه خاض ألف معركة ومعركة، وأنه نازل الأبطال، وصارع الأهوال، فلم يلن له عزم ولم تنكسر له إرادة حتى إن مندورا ناداه وهو فى فراش الموت وقال له: «يا أخى إلبس دروعك، وتأهب لنخرج معا فى غزوة جديدة عظيمة، ولنطلب فى هذه المرة الملك ميداس نفسه، ذا الجعارين الذهبية الكثيرة» وهو بلاشك لايعنى الأستاذ شاكر وإنما يعنى رئيس الجمهورية العربية المتحدة يومئذ فى سنة ١٩٦٥.. الذى يصبر على لويس عوض وأمثاله. وإن كان شاكر يرى أنهم أساءوا لهذا الصبر، لأن ضررهم يتعداهم إلى جماهير الناس. وقد عرفت أن رئيس الجمهورية العربية المتحدة يومئذ فى سنة ١٩٦٥ قد اعتقل أجاكس، ومجاهد بن الشماخ .. أى لويس عوض، وشاكر الذى اعتقل مرتين الأولى لمدة تسعة أشهر فى الفترة معها بين ٩ فبراير ١٩٥٩ إلي أكتوبر منها والثانية لمدة ثمانية وعشرين شهرا من ٣١ أغسطس ١٩٦٥ وحتى ٣٠ ديسمبر ١٩٦٧ (٣٠ رمضان ١٣٧٨ هـ).

وحول هذا التشابه بين لويس عوض، والأستاذ محمود محمد شاكر كتب الدكتور شكرى عياد.. صديق الطرفين.. شهادة بمجلة أدب ونقد مايو ١٩٩٠ استهلها بقوله: «للويس عوض فى عقلي وقلبى مكانة لاتضارعها إلا مكانة خصمه اللدود محمود محمد شاكر».

أذكر حين توثقت معرفتى به قلت لأستاذنا محمود شاكر: أتعرف أنك ـ على شدة عداوتك للويس عوض ـ تشبهه أو يشبهك من نواح كثيرة؟

اجابنى بحركة عنيفة، أى بالفعل المنعكس قائلا: أعوذ بالله!.

وأعدت القول نفسه للويس عوض، فأشاح بوجهه ولم يتكلم، لم أكن أفكر ـ بالطبع ـ فى أن أجمع بين الرجلين، ولكنه مجرد خاطر مجنون.

يقولون إن الماء والنار لايجتمعان فهل يجتمع النقيضان ؟

لقد طاف بخاطرى الشبه العميق بين الرجلين لأن كلاهما اعتقل نحوا من ثلاث سنوات.. مع أن محمود شاكر كان وقتئذ على خلاف مع الإخوان، ولويس عوض بعيد عن التنظيمات الشيوعية.

كلا الرجلين عالم فنان فى معظم ما كتب. ولابد للعالم من قدر من الخيال يسيطر على عمل الفنان... فلويس تدفعه نزعته العالمية إلى فروض موغلة فى الخيال، أما محمود شاكر فيتحاشى الوقوع في ذلك بوقوفه الطويل أمام النصوص الأدبية متذوقا ومفسرا و.... و....

لقد كان إخلاص لويس لنزعته العالمية الليبرالية توقعه غالبا فى المأزق، بألوان من الأذى، بينما لايعد هجوم محمود شاكر، بالقياس إلينا سوى دعابة من تلك الدعابات اللاذعة التى يمارسها الأدباء.

★★★

هذا عن رد فعل لويس عوض، أما رد الدكتور جواد على الطاهر، على كتاب «طبقات فحول الشعراء» فقد كان هادئا.. وكأنه يشكر

الأستاذ محمود شاكر على حسن صنيعه.. إذ كتب فى باب ثابت له فى مجلة «الفيصل السعودية العدد ٩٦ مقال بعنوان «وأنت تقرأ» عن محمود شاكر، استهلها بقوله: «لى رأى أوردته فى أكثر من مناسبة، وبحضور أكثر من صديق، وهو رأى ثابت كان - ولايزال - قائما حيث هو، ولم يحل حائل عن تثبيته أى توجيه نقد محمود شاكر له فى كتابه برنامج طبقات فحول الشعراء - لأنه ليس رأيا خاصا لمنفعة خاصة، وإنما هو فى مصلحة العلم وخدمة اللغة.. وإذا كان المثل الذى يوضح الرأى ويوجبه هو الشيخ محمود شاكر - فقد تكون له أمثلة أخرى يعرفها السامعون أو القارئون».

ثم يروح ويجيىء وكأنه يلقى محاضرة أكاديمية على طلبة مبهورين ببلاغته ليقول: «الشيخ محمود شاكر نادر المثال، ومنقطع النظير فى الباقى من السلف فى فهم النص العربى وتفهم وفك مغاليقه، وبلوغ أسراره و.... و...... ولقد اقترحت ذات يوم فى أوائل سنة ١٩٧٠م، دعوة الشيخ محمود شاكر أستاذا زائرا فى قسم اللغة العربية من كلية الآداب بجامعة بغداد، وفى ذهنى أن ننتفع به نحن الأساتذة قبل الطلبة.. أجل ولكن ما كاد الاقتراح يخرج عن أسلة اللسان حتى جوبه بسؤال لا معنى له: ما شهادة الشيخ محمود شاكر؟، ..

حتى جاء اختيار الشيخ محمود شاكر عضوا عاملا فى مجمع اللغة بالقاهرة شهادة لمن يطلب الشهادة.

والمقال مليىء بالغمز واللمز وكان بودى تحليله.. والخروج منه

بصورة تضاهيها في كتبه لولا أن هذا يخرجنا عن موضوعنا الأصلى.

ونحن بالطبع لا نعرف إجابة محمود شاكر على من يبحث له عن وظيفة ولكنى أعرف أن العلماء هم الذين يشد إليهم الرحال، وليس العالم هو الذى يدور بعلمه على الجامعات يحمل علمه ويعرضه لعله أو عساه أنه يجد وظيفة.. ثم إنى قرأت للأستاذ جواد فى المقال نفسه حول حزازات الجامعيين تجاهه عندما قال: «لنعاقب الجيل القائم على المسئولية فى الجامعة.. ولاشك فى أنهم يعرفون قدر الرجل ـ شاكر ـ حق المعرفة، ولا يكاد يوجد بينهم من لم يزره في بيته وينتفع بعلمه أو رأيه ويجد جوابا حاضرا لمسألته.. ويعرفون أكثر من ذلك السيل الذى يجرى نحو بيته من طلبة الماجستير أو الدكتوراه ليجدوا عنده ما لا يجدونه عند أساتذتهم الدكاترة المشرفين، ثم إن الأستاذ شاكر نفسه قد أجاب على من يبحث له عن عمل وهو الدكتور جواد على فى «البرنامج» نفسه الذى رد به عليه.. فعندما قال له الدكتور جواد: ليس لمحقق ـ كائنا من كان ـ أن يحكم منطقه فى اسم الكتاب الذى يوكل إليه. فرد الأستاذ شاكر: ليس صحيحا أن أحدا «وكل إليّ» تحقيق كتاب «طبقات فحول الشعراء» وأنا لا أرضى هذا لنفسي، ولا أرضاه لأحد من أهل العلم.. فلا حضرته.. وكل إليّ «تحقيق الكتاب» ولا دار المعارف ولا أى هيئة علمية أو دولة أيضا «تكل إليّ» تحقيق هذا الكتاب أو غيره، بل العكس هو الصحيح، بأن أهل العلم هم الذين يكلون إلى دار المعارف وإلى غير دار المعارف، طبع ما كتبوه أو حققوه.

★ ★ ★

عبقرى فى التفكير
فذ فى تحقيق التراث

كل هذه الأحداث والمواقف التى صادفتنى فى طريق البحث عن ماهية هذا الرجل أكدت أن الأستاذ محمود محمد شاكر رجل موسوعى فى المعرفة وعبقرى فى التفكير وحبر فذ فى تحقيق التراث، جعلته من الرموز التى تفخر بها الأمة فى حاضرها وأن يتسم فكره بالعمق والأصالة وطول النفس، وله نظرات يختلف فيها مع بعض الكتاب والمفكرين الإسلاميين أرى ـ مع الكثرة ـ أنه أقرب إلي الحق فيها من مخالفيه.

كل هذا جعلنى أتهيبه يوما بعد يوم.. ولم تتعارض هذه الهيبة وتقديرى له تقديرا لا حد له.. ولن يثبطنى عائق عن سعيى لمعرفة المزيد عن شخصيته، ليقينى أن هذا الإصرار، هو السبيل الصحيح الذى يصل بى إلى اللقاء الذى أحلم به.

ورغم أنى عشت تحديه ومراجعته للدكتور عبدالغفار مكاوى على صفحات مجلة المجلة، سنة ١٩٦٩ حول مفهوم جوته للأدب العربى بوجل شديد، فإنى لم انقطع عن الإلحاح على الأصدقاء الذين يعرفونه أن يصطحبونى إليه.. وعندما طال هذا التسويف منهم.. بحثت فى «دليل التليفون» فلم أعثر على رقم تليفونه.. ولما كان أحد تلامذته الشاعر الحسانى حسن عبدالله زميلا سابقا لى بلجنة القراءة بمؤسسة السينما فقد رجوته أن يصطحبنى معه إلى الأستاذ شاكر ولكنه رفض فى تصميم.. وعندما سألته لماذا هذا التعنت الأخير وقد ألححت أنت نفسك

بأن أصحبك لأستاذك العقاد واعتذرت لك برفض والدى؟ قال هناك اختلاف بين الرجلين وسكت.

ولا أعرف لماذا أشعل هذا الرفض جذوة الرغبة فى التعرف على الأستاذ شاكر، ذلك أنى اعتبرت أعماله وآثاره، ليست بديلة عن معرفته، هو، هو الذى نفخ فيها من روحه. كما أنه لا أحد يعرف مفتاح شخصية ما إلا بعد أن يعايشها ويحيط بعاداتها، وأساليبها، وميولها، حقا إن كل ما قرأته مما أودعه كتاباته من حياته، وتجاربه التى أوصلته إلى ماهو عليه من قدرات وحتى معرفتى بالمؤثرات التى أثرت فيه والمحن والشدائد التى مرت به ومر بها حين كان يؤمن وحده برأى يخالف فيه من حوله، بل وأزماته النفسية التى اعترضت طريقه حتى آمن إيمان المقتدين.

لكن هذا كله لم يقدم لى وصفا كاملا.. لبيئته ووسطه وظروفه حتى يمكننى الاعتماد عليها فى نتيجة كنت توصلت إليها من قبل وأردت أن أجد ما يؤيدها وهى أن حياته انعكست على أعماله، حتى يمكننا أن نعد شاكرا من الكتاب والشعراء الذين تتخذ حياتهم ميزانا لأعمالهم وآثارهم، لأنه لم يضف إلى هذا النبذ الشخصية فى كتبه.. أى تجربة من الخارج ولا أى حادثة من شأنها أن تضع لثاما بين القارىء وبين حقائق حياته... كما نجده فى الترجمات الذاتية التى تظهر فى شكل رواية.

وما أن بدأت أعلن للمحيط الثقافى من حولى عن عزمى مقابلة

الأستاذ محمود محمد شاكر.. حتى أشفقوا عليّ من هذا اللقاء.. وبدأوا يصكون أذنى بدندنات صاخبة.. إنه منغلق على الإسلام.. يكره الثقافة الغربية والمثقفين بها، ويربط فى أحكامه دوما بين المسيحية والوثنية فى مقابل الثقافة العربية والإسلامية.. ثم إنه سلفى رجعى مغرور يعانى من مرض العظمة، ليس لديه كف عن التعبير السريع عما يرى.. هل تابعت مواقفه من الدكتور طه حسين و.... و...... كل هذا أحبطنى بعض الوقت، لكنى كلما أمعنت فى هذه الكلمات ضاهيتها بما قرأت له وعنه ذابت إحباطاتى التى شعرت بها لأول وهلة.

★ ★ ★

التهمة الأولى التى التصقت بشاكر، إزاء عدم حبه للمسيحيين بدليل نقده القاسى للدكتور لويس عوض، عندما كتب عن أبي العلاء المعرى «وسامي داود» الذى كتب عن المظاهرات التى انفجرت بها الجامعة احتجاجا على الكتب التى يدرسها قسم اللغة الانجليزية، والمليئة بالعيب والشتم فى الإسلام وسيدنا محمد.. وأسعد حليم عندما قدم على صفحات جريدة الأخبار... خبرا مهما جدا، عن موافقة مجلس اللوردات البريطانى على تعديل قوانين الشذوذ الجنسى، وإباحته لبالغى الرشد، ثم يذكر كثيرا من الشخصيات التى مارست هذا الشذوذ، فكان ممن ذكرهم «كتشنر الرجل الذى كان له دوره المشبوه فى السودان، وفى مصر، والذى أقيم مستشفى لتخليده فى شبرا، والأستاذ زاهر رياض، عندما كتب عن الدين الإسلامى والحبشة، وقبلهم وقبلهم جورجى زيدان.. بما كتبه من روايات تزيف التاريخ الإسلامى، كذلك مجلته

الهلال التى كانت تستقطب كل موضوع يخالف الإسلام ككتاب اللغة العربية بالحروف اللاتينية ورفع الحجاب».

والحق أن المتأمل في حياة الأستاذ شاكر يستطيع ببساطة أن ينفض هذه التهمة عن الرجل.. لأنه... لم يأت بقدر من المنقبية والشمائلية قدر كلامه عن الأستاذ فؤاد صروف... صاحب المقتطف.. كما أنه لم يهد كتبه لأحد.. لا لوالده أو والدته أو لأحد من إخوته أو أساتذته وأصدقائه.. وأما قصيدة القوس العذراء والعهدة على الأستاذ الغضبان والذى كتب أن القصيدة، كانت عندما التقى شاكر بصاحب دار المعارف شفيق مترى... وهنا نجد أن الفن ـ مجازا ـ يصل بين الأرواح المؤتلفة.

بل إنه من شدة حبه للدكتور مجدى وهبه العلمانى الفكر ـ فإنه دوما يداعبه: كنت أتمنى أن تصحبنى فى الجنة، والله يا مجدى لولا علمانيتك اللعينة، ثم أننى لم أر الأستاذ وديع فلسطين يهل على مجلس محمود شاكر إلا ووجدته يحتضنه ويقبله، وقد ذكر الأستاذ نسيم مجلى المدافع الأول عن لويس عوض ـ فى كتابه عن مفهوم شاكر للأصالة القومية ـ عن النبل والعظمة وفيض حنان محمود شاكر وهو يستقبله فى بيته ويشعره بأنه من أفراد هذه الأسرة العريقة الكريمة.

وبعد تبرئته من التهمة الأولى: نأتى إلى التهمة الثانية، وهى كراهيته لثقافة الغرب وأنه، لا يأنس لأصحاب هذه الثقافة، فنجدها باطلة بدليل أنه استشهد كثيرا بكلمات «ت س اليوت» ونجد مصداقا لذلك، محاضرته فى السعودية، فعندما أراد أن يحدد كلمة ثقافة قال: وقد

أراد بعض الغربيين أن يجمعها فى سياق واحد فقال: إن ثقافة الشعب ودين الشعب، مظهران مختلفان لشيء واحد لأن الثقافة فى جوهرها، تجسيد لدين الشعب، وقال أيضا: «إن السير إلى الإيمان الدينى عن طريق الاجتذاب الثقافى ظاهرة طبيعية مقبولة»... ثم أردف شاكر بما استهل به حديثه... فقال: وهو تعبير صحيح فى جوهره يجمع هذه المميزات المبعثرة فى إطار واحد، ويجعل تمييز ثقافة عن ثقافة واضحا من خلال النظر فى أصول التدين الذى هو فطره فى طبيعة الإنسان حامل الثقافة ومؤديها إلى من بعده، زد على ذلك أنه كثيرا ما يرجع إلى تعريفات توينبى التاريخية.

أما الأستاذ يحيى حقى وهو رجل يتذوق الأدب الغربى عامة، والفرنسى خاصة، فلا يفوته حديث تليفزيونى ولا إذاعى إلا وذكر الأستاذ شاكر.. وشمولية وتعددية ثقافته وأنه ـ شاكر ـ هو الذى هيأه للكتابة أصلا.. حتى إن الأستاذ الصحفى مفيد فوزى.. والمذيعة ليلى رستم ذهبا.. يتفاوضان معه على حديث يتمم حديث الأستاذ يحيى حقى.. لكن شاكر اعتذر رائيا أن كل ما يرسل على شاشات التليفزيون للفرجة فقط وليس للتثقيف».

زد على ذلك .. أننى تأكدت من الكلمات التى طالما رددها من أنه لا يخاصم الناس لأفكارهم.. حتى لو كانوا ذوى ثقافة غربية.. فقد وجدته وفى رده على الدكتور عبدالعزيز الدسوقى «المتنبى ليتنى ماعرفته»، أن يصف كتابه التفكير العلمى للدكتور فؤاد زكريا بأنه جيد، وبعد ان يورد مقاطعا يستحسنها منه يستدرك قائلا: التفكير العملى مع أن صاحبه

رجل يفخر بأنه علمانى، أننى عندما عرفت أنه أخذ امتياز «مجلة العصور» من الأستاذ إسماعيل مظهر، لتصدر أسبوعية بعد أن كانت شهرية.. تعجبت.. كيف يأخذ امتياز مجلة متحررة كالعصور ومن رجل متحرر الفكر كالأستاذ إسماعيل مظهر الذى يصدر فى جل كتاباته عن الدارونية «التي تخالف ديننا الحنيف الذى قال فى سورة الرحمن «خلق الإنسان من صلصال كالفخار» وداروين يقول أن أصل الإنسان هو القرد، والقرد في فكر علماء المسلمين إنسان متقهقر.. وليس الإنسان قرد متطور.. فقيل لى إنهما صديقان حميمان وستقرأين عندما تلتقين به إهداءات الأستاذ إسماعيل مظهر على كتبه المهداة للأستاذ شاكر، ثم إنه قد ذكر اسم صديقه يعقوب صروف.. من بين رجال الماسونية فى مصر... وهى جمعية سرية يكرهها محمود شاكر بلا ريب.. فهل نطلق على شاكر المثل القائل «وعين الرضا عن كل عيب كليلة»... أم أنه حقا لا يخاصم الناس على أفكارهم ولا يفسد الخلاف عنده ودا.... ربما، وربما، أن المثل يقول قل لى من أصدقاؤك أقل لك من أنت.

الثقافة العربية الإسلامية
مقابل الثقافة الغربية الوثنية

أما الذى حيرنى فى كتاباته للوهلة الأولى، فهو مقابلته دوما بين الثقافة الغربية الوثنية وبين الثقافة العربية الإسلامية، مع أن العرب قلة فى الإسلام.. ذلك أن المسيحية حاربت الوثنية، بل إنه بعد ما تم إيمان الرومان واليونان بالمسيحية.. وضعوا كتب الوثنية تحت «قبة»... وهى

الكتب التى طلبها هارون الرشيد من شارلمان.. كرد لهديته «المزولة» أو الساعة.. ثم ترجمها العباسيون وظهرت آثارها فى عصر المأمون.. الذى كان محنة للأئمة أجمعين حيث ثار السؤال.... هل القرآن قديم أم جديد؟

فلماذا يربط الأستاذ دوما بين المسيحية والوثنية؟... لدرجة أنه إذا اضطر أن يستحضر تحت سن قلمه كلمة ذات دلالة وثنية لتعبير «الربة أثينا» التى أمرت أجاكس «عوض» أى لويس عوض.. أن يحرر طروادة.. فإنه يردف كلمة «الربة» بعبارة و«أنا أستغفر الله من ذكر هذه اللفظة الأخيرة، وخطها بالقلم فإن الله قد عافانا من عبادة الأوثان، وخلعنا من أعناقنا ربقة العبودية لغير الله الأحد.. الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد..»

لقد وجدت عند شاكر نفسه.. أسباب ابتعاده عن هذا الأدب الغربى بشكل مبدئى، فقد كتب فى رده على الأستاذ سامى داود.. الذى كتب فى رثاء الدكتور مندور عن دوره الرائد فى الجامعة ـ فقد كان مندور يدرس للأستاذ سامى داود، رغم أنه كان مسيحيا دخل القسم العربى بكلية الآداب، لأنه كان محبا للدكتور طه حسين عندما قال: خلت الجامعة من الحماسة، وكتب شاكر معلقا على هذا الخطأ اللغوى» وهذا المصدر اكتسبه من دراسته فى قسم اللغة العربية!! «الحماسة». لم نعرف من المعارك، إلا معركة تدور حول كتاب لبرناردشو يقرؤه طلبة قسم اللغة الانجليزية، فتأتى بمحافل الرجعية «خذ بالك جدا!!» تعتدى على كلية الآداب، وتقتحم مكتب عميدها، وقبيح بالمرء أن يكون كذابا، وقديما كان يقال: وإذا كنت كذوبا فكن ذكورا». فالمعركة التى يذكرها

سامي داود وهو إنسان مترفق جدا، ناعم الملمس جدا، لم تكن حول كتاب نكرة لبرناردشو، ولم ينفرد بها هذا الكتاب وحده فيحسن إذن أن نقص القصة، ليقف القارىء على الروابط التى تربط هؤلاء الناس بعضهم ببعض.

كانا كتابين يدرسان معا، فى سنة واحدة، أحدهما هو «جان دارك» لبرناردشو وفى سياق أحاديث هذه القصة، مقالة لرجل يقال له «كوشون» ذكر أن جان دارك كانت تبعث بكتبها إلى ملك الانجليز، لكى يخضع لأمر الله الذى أوحى إليها، فيعود إلى جزيرته، وإلا باء بغضب من الله، وأنها هى ستنزل عليهم غضبه، ثم يقول ما نصه: «ألا فاعلموا أن إرسال هذه الكتب عادة جرى عليها قديما محمد عدو المسيح».. ثم مضى يصف أمر هذه الفرنسية المتنبئة فقال: وبمثل هذا قام عربى جمال، فطارد المسيح وكنيسة المسيح حتى طردهما جميعا من أورشليم، ثم مضى يضرب فى الأرض، فيبث فيها الفزع والخراب.. حتى إذا بلغ مغربها قام جبل الأبواب وهى جبال البرانس دونه وقامت رحمة الله، وحيل بين فرنسا وبينه، فنجت من لعنة الله، فما صنع هذا الجمال العربى فى بداية أمره أكثر مما صنعت هذه الفتاة؟ جاءه الوحى من جبريل، وجاءها من القديسة كاترينة، والقديسة مرجريت، والمبارك ميخائيل وأذن فى الناس بأنه رسول الله، وكتب الكتب إلى الملوك باسم الله، ثم يقول بعد قليل «إنا والحمد لله الآن بخير، فليس فى الدنيا إلا محمد ومخدوعوه وإلا الفتاة جان ومخدوعوها، ولكن كيف يكون الحال، إذا خالت كل فتاة أنها جان، وخال كل رجل أنه محمد؟

ثم تأتى بعد ذلك أسطر قالها رجل من رجال القصة يقال له «ورك» فزعم أنه حج إلى بيت المقدس، ورأى بعض أتباع محمد صلى الله عليه وسلم، قال: «فلم أجدهم من سوء الأدب بالمكانة التى أفهمونيها قبل، بل وجدت لهم أدبا لا يقل من بعض الوجوه عن أدبنا».

★★★

ويردف الأستاذ شاكر... «وبالطبع هذا شيء لايثير سامى داود أو أجاكس عوض إذا سمعه أو قرأه، ولكنه آثار «الرجعية» أى المسلمين، ولكن استغفر الله مما خط القلم، وصلي الله على محمد صلاة طيبة نامية مباركة، ولعن الله من يقول فى رسوله أو في أحد من رسله مثل هذا القول.. ثم نسأل هذا الآدمى المتحدث سامى داود «أترضى هذا؟ وإذا قلت: إنى لم أكن أعرف! فيقال لك: فما الذى أدخلك فيما لاتعلم، حتى صيرت نفسك مؤرخا لفترة من الفترات التى عشتها فى الجامعة.. ومع ذلك فأنا أسألك، إذا كنت قد جعلت نفسك في كلمتك مؤرخا، وجعلت نفسك ممن كان يقود شباب الجامعة، لتجمع الزعماء بالدماء ليقودوا معارك الحرية» أفلم تكن حقيقا بأن تعرف حقيقة ما أثار كلية الآداب وكلية الحقوق وغيرهما، حتى جاءوا يطالبون بإلغاء تدريس هذين الكتابين.. وأنت أيها الزعيم الشاب قد سميتهم «غزاة» جاءوا ليشتبكوا مع طلاب كلية الآداب فى معركة سخيفة تافهة!!».

«ولكنى محدثك، إذا لم تكن تذكر، بمن فرض هذين الكتابين على طلبة قسم اللغة الإنجليزية، أتعرف أم تتنكر أنك تعرف أيضا؟، رجلا كان يقال له «كريستوفر سكيف» كان مبشرا جاسوسا بريطانيا محترفا،

وكان شرلتانا كصاحبك ـ يقصد لويس عوض ـ وقحا سيء الأدب، وكان قد ألف جماعة يقال لها «جماعة إخوان الحرية» أمرها مشهور في محاكمات الثورة، وكان يختار من الطلبة وغير الطلبة لهذه الجماعة شيعة وأعوانا، ويجعل للجماعة ظاهرا وباطنا: فالظاهر أن أكثره ممن يحمل أسماء مسلمة، والباطن «لا داعي لذكره» فأنت أعلم به ولا بأس، إذا كنت قد نسيت، أن أذكرك بأن صاحبك «أجاكس عوض» أهدى إليه كتابه بلوتولند وقصائد أخرى»».

ومن المعروف أن الأستاذ شاكر كان قد أشار إلى هذا الديوان، كبداية للكتابة بالعامية.. باعتباره أول الطريق لهدم اللغة العربية، وقد فصل ذلك في كتابه «أباطيل وأسمار».

ولكن حساسية محمود شاكر الفائقة هذه تدل على كره مبدئي.. ولكنها إلى الآن لم تجب على جمعه بين المسيحية والوثنية.. فأخذت أشحذ فكري على نسق منهجه التذوقي.. وعدت إلى قراءاتي السابقة في الأدب الغربي وبالفعل وجدت أن كثيرا من مسرحياته ورواياته بالذات، تحمل إشعاعا من فكر الوثنية أو الأسطورية،، بل لقد نبهتني هذه الروايات بظلال حل لغز جمع التوراة إلى الإنجيل في الكتاب المقدس، ولماذا والتوراة ملأى بالأساطير التي إن كان البعض يرى فيها رموزا لنشأة الوحي منها إصحاحات كثيرة، لا أرى فيها مايدعو إليه دين سماوي، وإنما هي أقرب إلى الأساطير والوثنية التي ظهرت في المسرح اليوناني القديم مثل أوديب الذي تزوج أمه، وفيدرا التي عشقت ابن زوجها وغيرها وقد انعكس هذا النهج متداخلا مع ذاك في كثير

على القصص الغربية التى سبق لى قراءتها، عند مورافيا، ثم الصور الجميلة لسيمون دى بوفوار، ولن أنسى القصص التى قرأتها للدكتور طه حسين فى استهلال مجلة الكاتب المصرى التى كان يشرف عليها ويحاول أن يغرى القراء بقراءة مثل هذه القصص التى تدعو إلى زواج المحارم، ويمكن الرجوع مثلا إلى عدد أبريل ١٩٤٦ من مجلة الكاتب المصرى والذى نشر بها ملخص لقصة بعنوان : «الساحرة المسحورة» ليرى الدليل على ما نقول ، الذى يدعونا إلى تأمله التعاطف معه بدعوى إنها صروف الحياة، وأقول لهم: وأين موقف ديننا الحنيف منها وقد نهى عنها، إن كل شريف يمر بمثل هذه القصص وهو مشمئز.. وإذا تعاطف معها فليعرف إذن تأثير الأعلام السيىء على نفوسنا، حيث يجعل المرء يتعاطف مع مجرم بل يكاد يحذره من البوليس الذى يتتبعه، ويسخر من رجل متدين يشيح بوجهه عن راقصة متجردة.

ولم يفت ذلك الذى كان ينشره الدكتور طه حسين على بعض كتاب ذلك العهد، فظهرت المقالات التى تهاجم ما نسميه اليوم «الأدب الماجن» فرأينا مثلا الأستاذ توفيق دياب يكتب عن ذلك، كما أن الأستاذ محمد أحمد الغمراوى قد أشار إلى هذه القصص، وذلك فى رده الذى كتبه «النقد التحليلى لكتاب فى الأدب الجاهلى»، فقال: «وخذ إليك مثلا تلك القصص الفرنسية التى يترجمها صاحب الكتاب من آن لآن يلهى بها كثيراً من النشء ويضل بها كثيرا . هل ترى بينها وبين روح هذه الأمة صلة؟ أو بينها وبين روح هذه اللغة صله؟ وإذا لم يكن فيها شىء يجدد من عناصر الفضيلة والطهارة الروحية فى هذه الأمة يعينها على سبيل

العزة التى تريد؟ إنّا لا نظن أحدا دخل تلك القصص وخرج منها وهو أقرب إلى الفضيلة والعفاف منه قبل بدئها . وهذا أهون ما يمكن أن يقال عنها ولو كنا ضاربين مثلا لضربنا «الزنبقة الحمراء» فإن فيها من المعانى ما كنا نظن أن أستاذا يستحى أن ينقله للناس، أو أن مجلة مثل الهلال تتنزه عن نشره عليهم. . ولكنا نأبى أن نشير بأكثر من هذا إلى تلك القصص عامة وإلى هذه القصة خاصة، وإلا لكنا شركاء فى إثم النشر أو إثم التلخيص.

وما صنعه الدكتور طه فى القصص الماجنة يشبه صنيعه فى «حديث الأربعاء» حيث اختار النماذج الشاذة من أدباء العصر العباسى.. وترك أبا تمام والبحترى والشريف الرضى، ومهيار الديلمى والمتنبى والمعرى.

نستطيع بعد هذا أن نؤكد أن شاكر لا يكره الحضارة الغربية.. بقدر ما يكره أن نكتفى باصطباغ ما أبدعوه وأن نغمض عيوننا عن وسيلتهم للوصول إليه فالغرب لم يكتسب نهضته هذه، إلا بعد أن أولوا آثارهم اليونانية مزيدا من العناية والدراسة، حتى أزكت هذه الآثار، وكشفت جوهرها ، أى أن هذا العصر لم يتجاوز هذه الآثار إلا بعد أن اتكأ عليها، وأدخلها فى صميم بنيته.

وإذا أردنا أن ننتفع بتجارب الغرب، فلابد أن نسلك ما سلكوه من الرجوع إلى إرثنا ورجالنا، وفكرنا وآدابنا مهما أوغل فى القدم ثم نستخرج من تراثنا – هذا – ما تهدينا إليه عقولنا، وافق الذى عند الغرب أم لم يوافق – وإذا لم يوافق ذلك الذى عند الغرب.. فإن هذا

الخلاف سيكون في صالحنا لأنه سيشق لنا الطريق المستقيم إلى حضارتنا نحن.. فإن الضد يميز الشيء والبذرة في تربة ما يختلف ثماره عنه في غيرها - المهم أن يوافق صريح عقولنا ولابد أننا سنرضاه ونستحسنه نحن بعيوننا، وعقولنا وسنجد فيه إن شاء الله كفاية لحاجتنا الفكرية والأدبية، وهذا مطلب عزيز وصعب. لن نناله إلا بالصبر والمجاهدة.. التى تعتبر كتابات محمود شاكر نموذجا منها.. وبها يشق الطريق لمن بعده.. إن هو قطع لامبالاته وانتبه ..

تهمتا السلفية والرجعية

بقيت لدى أخيرا من الأوصاف التى التصقت بمحمود شاكر تهمتا السلفية، والرجعية لذلك سأحتكم لشاكر نفسه فى تفصيلها يقول : «فمن معسكر الصراع بين الحضارة الغازية وبين الحضارة الإسلامية أو بقاياها يومئذ.. ظهرت كلمة «السلفيين» مقرونة بتبغيضها إلى العامة، وتصويرها فى صورة منكرة تكرهها النفوس لأنها تشق عليها ، ثم بدأت الكلمة تدخل في محيط الصراع الإجتماعي فمن أول ما أذكر من ذلك أن التخلف الكريه المسمى «سلامة موسى» صنيعة المبشر «ويلككس» ، كان أكثر الناس استعمالا للفظ «السلفيين» للدلالة على التأخر والتشدد والتخلف، في مقابل الدعوة التى أرسلها يغوى بها من اصطنعوه.. أى بعد دخول ثورة سنة ١٩١٩ ، فى انهيارها وانفصالها عن حقيقة الشعب الذى أشعل نارها ..

ولكن هذه اللفظة «السلفية» كانت شديدة على الألسنة، لا تلين بها كل اللين ، فبعد قليل - ولا أدرى كيف كان ذلك، لأن الأمر يعتمد على

التتبع التاريخى للعبارات يوما يوما، وشهرا شهرا، كما أرى – بعد قليل رأينا لفظ «الرجعيين» يحل محل السلفيين فجأة ، وهو لفظ سهل على لسان العامة وغير العامة، وإذا بنا نراه مستعملا على ألسنة ضرب من الكتاب أمثال التالف الغبى «سلامة موسى» ، من صبيان «التبشير» وسفهائه الذين يسافهون عنه وعلى ألسنة أصحاب الصحف من نصارى لبنان المقيمين فى مصر، والمسئولين على صحافتها يومئذ، ثم لم نلبث إلا قليلا حتى رأينا هذا اللفظ ينتقل للدلالة على الحياة الإسلامية كلها، واشتق له مصدر هو «الرجعية» يستعمله الكتاب إذا أرادوا التورية عن «الإسلام» تهربا من أن تنالهم تهمة الطعن فى دين الدولة، واستشرى الأمر زمانا طويلا ، فصار كل من أنكر شيئا على هذه الحضارة الأوربية المسيحية الوثنية، المقترنة بالغزو العسكرى والغزو السياسى لبلادنا من أخلاق أو فكر، أو عادة ، أو طريقة للحياة «كما يقول توينبى» صار ينبذ بأنه «رجعي» وظل هذا هو معنى «رجعى» إلى نحو من سنة ١٩٤٣ ، حين بدأت الحركة الشيوعية فى الظهور، فاستخدمت اللفظ على الأنظمة التي كانت تقاومها، لما فيها من الفساد والتعفن ، وإن كان اللفظ عندهم أيضا دالا على مثل ما كان يدل عليه أعوان الاستعمار والتبشير بالحضارة المسيحية الوثنية الغربية».

هذا بعض ما فصله رجلنا عن التهمتين اللتين ألصقتا به .. وبكل من يتمسك بدينه. أما حكاية .. كرهه للمستشرقين .. مع أن هؤلاء المستشرقين ، كانوا من الرواد فى الكشف عن تراثنا – كما كنا نحن بالنسبة للفلسفة اليونانية ، فإننى أرى محمود شاكر لا يسحب حكمه

على مطلق المستشرقين ذلك أننى أراه فى مقدمته لكتاب مالك يقول: «ولكن الشعر الجاهلى» قد صب عليه بلاءات كثيرة آخرها وأبلغها فسادا وإفسادا ذلك المنهج الذى ابتدعه مرجليوث لينسف الثقافة، فيزعم أنه شعر مشكوك فى روايته، وأنه مصنوع بعد الإسلام، وهذا المكر الخفى الذى مكره مرجليوث وشيعته، وكهنته، والذى ارتكبوا له من السفسطة والغش والكذب ما ارتكبوا .. كما شهد بذلك رجل من جنسه، هو آربرى، كان يطوى تحت أدلته ومناهجه وحججه، إدراكا لمنزلة الشعر الجاهلى فى شأن اعجاز القرآن، لا إدراكا صحيحا مستبينا ، بل إدراكا خافيا مبهما تخالطه ضغينة مستكينة للعرب والاسلام».

وقد يقول قائل : أن الأستاذ شاكر لم ينصف آربرى لكنى أقول: معه كل الحق .. إذ كيف يفهم من عرف العربية وهو فى الثلاثين من عمره .. معرفة مستدرك مستبين ولد عليها ، ثم لماذا يدرس العربية أصلا ..؟ هل لأنه يريد أن يتباهى على أهل جلدته الذين فاقوه فى معرفة لغتهم؟ .. أم أنه أراد أن ينفع بلاده؟.. فيكون لها جاسوسا وهذه بعض التساؤلات المثارة !.

★★★

أما القول الذى أطلق جزافا على محمود شاكر بأنه يحس شعورا زائدا بنفسه فكتاباته قد دلت على أنها لم تكن عظمة فارغة .. فأنا عندما قرأت كتبه وجدته قد دافع عن هذه الخصيصة التى سترد على خواطر القراء بلا ريب مثل قوله ، الذى يلزم قراءته كاملا واستبيان معانيه بدقة وموضوعية فى مقدمته «فصل فى إعجاز القرآن» «ولسائل

أن يسأل فحدثنى إذن، لم بقي شعر الجاهلية بهذه المنزلة لم يتجاوزها؟ وكيف هذا الذى زعمت عن أئمة العلم من قبلك؟ وكيف أخطأه علماء البلاغه، وهم الذين قصدوا بعلمهم قصد الإبانة عن إعجاز القرآن، وهم أقرب بالتنزيل عهدا منا ومنك؟ وما الذى صد العقول البليغة عن سلوك هذا المنهج، وما نهضت إلا للمراماة دون إعجاز القرآن، فى القديم والحديث؟» .

«وحق عليّ أن أجيب ، ولكن يقتضى جواب هذه المسألة أن أقص قصة أخرى، لا أستوعب القول فى حكايتها تفصيلا، بل أوجز المقال فيها إيجازا مدفوعا عنه الخلل ما أطقت، وعلى سامعها أن يدفع عن نفسه الغفلة ما أطاق !

فأهل الجاهلية ، هم من وصفت لك منزلتهم من البيان، وقدرتهم على تصريفه بألسنتهم، وتمكنهم من تذوقه بأدق حاسة فى قلوبهم ونفوسهم، وعلمهم بأسراره، وتغلغلهم في إدراك الحاجز الفاصل بين ما هو من نحو البشر، وما ليس فى نحو بيانهم، أهل الجاهلية هؤلاء هم الذين جاءهم كتاب من السماء بلسانهم هو فى آيات الله بمنزله عصا موسى، وابراء الأكمه والأبرص فى آيات أنبيائه لتكون تلاوته على أسماعهم برهانا قاهرا يلزمهم بالإقرار له بصحة تنزله من السماء على قلب رجل منهم، وأن هذا الرجل نبى مرسل، عليهم أن يتبعوه فلما كذبوه وأنكروا نبوته، تحداهم أن يأتوا بمثل هذا الذى يسمعون فى نظمه وبيانه.. ولكنهم ألجموا ألسنتهم إلجاما عن معارضته فى بيانه، لأنهم وجدوا فى أنفسهم مفارقته لبيان البشر، وجدانا ألجأهم إلى ترك المعارضة إنصافا

للبيان أن يُجار على حقه، وتنزيها له أن يزرى به جورهم على هذا الحق».

«وعلى الذى تلقوه به من اللدد فى الخصومة والعناد.. لم يلبث أن أستجاب له النفر بعد النفر.. فأقبل كل بليغ منهم مبين، يحفظ ما نزل من القرآن ويتلوه ويتعبد به».

«ثم صار للقرآن فى جزيرة العرب دوى كدوى النحل..».

ثم طار بهم هذا القرآن فى كل وجه، يدعون الناس أسودهم وأحمرهم إلى شهادة ألا إله إلا الله.. وهدى يخرجهم من الظلمات إلى النور. فكان من أمرهم يومئذ ما وصفه ابن سلام فى كتاب «طبقات فحول الشعراء» حين ذكر مقالة عمر بن الخطاب فى أهل الجاهلية: «كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه» فقال ابن سلام تعليقا على ذلك: «فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم، ولهت عن الشعر وروايته، فلما كثر الإسلام، وجاءت الفتوح، واطمأنت العرب فى الأمصار، راجعوا رواية الشعر، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون، ولا كتاب مكتوب. وألفوا ذلك ، وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقل ذلك ، وذهب عليهم منه كثير».

«ولا يغرك ما قال ابن سلام، فتحسب أن أهل الجاهلية الذين هداهم الله للأسلام، طرحوا شعر جاهليتهم دبر آذانهم ، فانصرفوا عنه صما «بكما» وخلعوه من عقولهم وألسنتهم كما خلعوا جاهليتهم، فهذا باطل تكذبه أخبارهم..»..

«وحيث نزل أهل الجاهلية الذين أسلموا ، نزل معهم الذكر الحكيم،

ونزل شعر الجاهلية وتدارسوه، وتناشدوه ، وقوموا به لسان الذين أسلموا من غير العرب».

«واستفاضت بالمسلمين الفتوح، واستفاض معهم شعر جاهليتهم ».

ثم فارت الأرض بالإسلام من حد الصين شرقا إلى حد الأندلس غربا، ومن حد بلاد الروم شمالا إلى حد الهند جنوبا وقامت المساجد فى كل قرية ومدينة وازدحمت فى ساحاتها صفوف عباد الرحمن وتحلقت الحلق فى كل مسجد، وتداعى إليها طلاب العلم فطائفة تتلقى القرآن.. وطائفة تتلقى تفسير الحديث وأخرى تتلقف شعر الجاهلية».

«وبعد دهر نبتت نابتة الشيطان فى أهل كل دين، وجاءوا بالمراء والجدل وأفضت الجرأة يوما برجل فى أواخر دولة بنى أمية، يقال له ، الجعد بن درهم.. كان شيطانا خبيث المذهب، تلقى مذهبه عن رجل من أبناء اليهود، يقال له : «طالوت ، فكذب القرآن فى اتخاذ إبراهيم خليلا، وفى تكليم موسى إلى هذا وشبهه وكان من قوله: إن فصاحة القرآن غير معجزة، وإن الناس قادرون على مثلها وأحسن منها!! فضحى به خالد بن عبدالله القسرى فى عيد الأضحى فى نحو سنة ١٢٤ من الهجرة».

«وكلام الجعد، كما ترى ، استطالة رجل جرىء اللسان، خبيث المنبت بلا حجة من تاريخ أو عقل». ثم يتابع شاكر رؤاه وحجته فيقول :

«ولم تكد دولة بنى العباس ترسى قواعدها حتى دخلت بعض العقول إلى فحص «إعجاز القرآن» من باب غير باب السفه والاستطالة، فقام بالأمر كهف المعتزلة ولسانها أبو إسحق إبراهيم بن سيار النظام، فأتاه

من قبل الرأى والنظر، حتى زعم أن الله قد صرف العرب عن معارضة القرآن، مع قدرتهم عليهم، فكانت هذه الصرفة هى المعجزة ، أما معجزة القرآن فهى فى إخباره، بكل غيب مضى، وكل غيب سيأتى وهذه مقالة لا أصل لها إلا الحيرة والابتهار بهذا الذى أعجز أهل الجاهلية وأسكتهم..».

«ثم كثرت اللجاجة بين هذه الفئات ممن عرفوا باسم المتكلمين ، وكان أمرهم أمر جدال وبسطة لسان، وغلبة حجة، ومناهضة دليل بدليل، حتى صارت مسألة إعجاز القرآن مسألة تستوجب أن ينبرى لها رجل صادق «١».

«ورضى الله عن أبى بكر الباقلانى، فقد جمع فى كتابه خيرا كثيرا واستفتح بسليم فطرته أبوابا كانت قبله مغلقة، وكشف عن وجوه البلاغة حجابا مستورا، ولكنه زل زلة كان لها بعد ذلك آثار متلاحقة وإن لم يقصد بها هو قصد العاقبة التى انتهت إليها».

فالباقلانى عندما هاج على من وازنوا القرآن ببعض الأشعار، من المتكلمين وأصحاب الجدل والملحدين. وهب إلى تسفيه هذه الموازنة .. لاسيما عندما بلغه أن بعض جهالهم يعدل القرآن ببعض الأشعار.. فلم ينتبه فى حماسته فى الرد على هؤلاء إلى منهاجهم قد استغرقهم.. فدعا

(١) إن تفضيل المتكلمين لبعض أشعار الجاهلية فى اختصارها عن القرآن يذكرك بالرسالة التى بعث بها محمود شاكر للأستاذ مصطفى صادق الرافعى والتى كتب عنها مقالته «كلمة مؤمنة فى رد كلمة كافرة» .

هؤلاء و.. هؤلاء.. أن يعمدوا إلى أجود قصيدة يعرفونها من شعر أمرؤ القيس.. وجعل يفصلها وينقدها ويمحو محاسنها ويثبت، ويقف بهم على مواضع خللها.. ثم يأتي حكمه أخيرا: «وقد بينا لك أن هذه القصيدة ونظائرها «الشعر الجاهلى» تتفاوت فى أبياتها تفاوتا بينا فى الجودة».

«وقد طبق منهجه هذا على القرآن فانتهى إلى أن القرآن خالٍ من الاختلاف والتغير، وبراءته من كل ما يلحق كلام الناس من عيب وخلل، وكل ما هو قرين لضعف طبائعهم».

«أما زلة الباقلانى.. فهى أن موازنته هذه اقتصرت نتائجها إلى هتك الستر عن معلقة أمرىء القيس، ليكشف للناس عيبها وخللها، لا ليستخرج منها خصائص بيانها، كيف كانت هذه الخصائص مفارقة لخصائص بيان القرآن .. ولكن هذه الزلة، زل بها من بعده وأخطأوا.. وأخذوا الشعر الجاهلى كله هذا المأخذ، حتى أفضينا به فى العصر الحديث إلى أقبح الشناعة .. يوم فرض الاستعمار .. وأصبح الشباب يتعلم لغته علي أنها درس محدد - فى آخر اليوم الدراسى أما الأنجليزى فكان أول حصة - فثقلت اللغة العربية بهذا التحديد المجرم على كل نفس، ثم لما أنشئت الجامعة، ودخلها هؤلاء الشباب على ما هم فيه من الملل بلغتهم ، ومن الإستهانة بأمرها، طلع قرن الشيطان بفتنة الشعر الجاهلى والتشكيك فى صحته، وطار الشر إلى الصحافة «١» فاتخذت اللغة القديمة كلها، لا الشعر الجاهلى وحده، مادة للهزؤ».

---

(١) أنت ترى أن ليست الصحافة فقط هى التى تهزأ باللغة العربية بل الأعمال الدرامية .. حتى يأتى المثقفين فيها على سبيل السخرية منها .

وينهى الأستاذ شاكر كلامه بقوله : هذا تاريخ مختصر للأسباب التي وقفت بالشعر الجاهلي حيث وقف قديما، فحالت بين علماء البلاغة والمنهج الذى كشفته وبينته، وكان لزاما عليهم وعلينا أن نسلكه لدراسة «إعجاز القرآن» دراسة صحيحة سليمة من الآفات.. أى اختلاف خصائص بيان القرآن، عن خصائص بيان البشر، على اختلاف ألسنتهم .. وأما بعد فعسى أن يكون الله قد ادخر لآخر هذه الأمة، بعض ما يلحقها بفضل أولها وتخرج بهديه الناس عن ضلالتهم.. ورحم الله مالك بن أنس إذ يقول: «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح أولها .. وأنا أعلم أنى قد قصرت فى ذلك كله واختصرت وإن كنت قد أطلت، وأخشى أن أكون أمللت، ولكن عذرى.. أن الرأى فيهما قد شابه ما كدره.. فبذلت جهدى أن أفحص القول .

هذا كله ، بطوله أو قصره.. هو ما بذله شيخنا شاكر فى الشعر الجاهلي وحده.. فما بالك .. بما بذله فى قراءة كل ما يقع تحت يده من كتب أسلافنا .. من تفسير لكتاب الله ، إلى علوم القرآن على اختلافها، إلى دواوين حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وشروحها، إلى ما تفرع عليه من كتب مصطلح الحديث وكتب الرجال والجرح «١» والتعديل إلى كتب الفقهاء فى الفقه، إلى كتب أصول الفقه وأصول الدين «أى علم الكلام، وكتب الملل والنحل ، ثم كتب الأدب وكتب البلاغة، وكتب النحو وكتب اللغة، وكتب التاريخ ، وماشئت بعد ذلك من أبواب العلم ، ويقول

---

(١) هو علم نقد رجال الحديث الشريف .

هو إنــه عـمـد فى رحلتــه هذه إلى الأقـدم فـالأقـدم ، كل إرث آبـائى وأجدادى ، كنت أقرؤه على أنه إبانة منهم عن خبـايا أنفسـهم بلغتهم، على اختلاف أنظارهم وأفكارهم ومنهاجهم ، وشيئا فشيئا انفتح لى الباب يومئذ على مصراعيه ، فرأيت عجبا من العجب، وعثرت يومئذ على فيض غزير من مساجلات صامتة خفية كالهم، ومساجلات ناطقة جهيرة الصوت، غير أن جميعها إبانة صادقة عن هذه الأنفس والعقول».

وهنا اتسـاءل .. اليس من حق شيخنا شاكر وقد وسع علمه كل تلك العلوم ، وثابر وكابد المشقات فى التحصيل والتأصيل، والدفاع الجسور عن دين امته ولغتها وحضارتها بالحجة والبرهان.. اليس من حق ان يثق بنفسه ، لاغرورا كاذبا، وإنما حدبا على الحقيقة التى ضلت بين أهلها.

★★★

على أننى بعد أن كدت انتهى من غربلة وتصفية كل الأوصاف التى قيلت عنه، وجدت خاطرا غريبا يرفع رأسه ويطن فى وجدانى قائلا: لو كان والدك رحمه الله مايزال على قيد الحياة هل كان يأذن لك بزيارة الأستاذ شاكر؟ .. دارت هذه الفرضية العابرة فى ذهنى.. كما دارت كل أحداث حياتى فى ميزان رضا أو سخط أبى فى لحظات قصار. وكأنها فيلم طويل تستغرق أحداثه سنين متطاولة .. ولكن هذه النافورة التى يشكل رذاذها الأحداث التى مرت بى سرعان ما هدأت حتى تمكنت من فرزها واحدة واحدة.. وكان سندى هو أن أول ما عرف عن الأستاذ شاكر فى الحياة العربية هو نقده الشديد لأقوال وأفعال الدكتور

طه حسين وأحسب أن هذه الميزة وحدها ترضى عائلتى الأزهرى نصفها والدرعمي نصفها الآخر.. واللذان قد يختلفان حول كثير من القضايا وفقا لخاصية الدراسة فى كلا الأزهر ودار العلوم لكنهما .. قد ألتقيا في إدانة دعوة طه حسين لانتشار المدارس ومجانيتها رغم ان التعليم كالماء والهواء، ويرياها دعوة هدامة تلبس ثوب الإنسانية، فالنصف الأزهرى كان يرى أن هذه الدعوة لا تخرج عن كونها انتقاما من الأزهر الذى فشل في الحصول على عالميته.. حتى لا يذهب إليه أحد مادامت كل المدارس ستكون بالمجان وليس الأزهر، وحده، والنصف الدرعمى رآها مسايرا لدعوته «لابد من هدم قرطاجة وإن طال الزمن» أى إلغاء كلية دار العلوم والاكتفاء بقسم اللغة العربية بكلية الآداب - التى تمثل فيها بكلمة الزعيم الرومانى أيام عدوان الرومان على أهل قرطاجة «تونس» الآن. وهكذا التقيا بالوجدان الناصع قبل العقل الساطع، فالكتب التى ألفت في الرد على أفكار طه حسين حول هذا الموضوع فى كتابه «مستقبل الثقافة فى مصر» اشارت إلى أن دعوته لنشر المدارس على النظام الأوربى. كان حيلة المؤلف لإلغاء الأزهر الذى لا يستطيع المجاهرة بإلغائه، لأن وقت ذلك لم يحن بعد، فيطالب أولا بأن تشرف الدولة على التعليم الأولى والثانوى فيه مادام مصرا على أن يستقل بهما لنفسه، لأننا لو تركنا الفتيه والأحداث للتعليم الأزهرى الخالص، ولم تشملهم عناية الدولة ورعايتها وملاحظتها الدقيقة المتصلة، عرضناهم لأن يصاغوا صياغه قديمة، وباعدنا بينهم وبين الحياة الحديثة التى لابد لهم من الاتصال بها والاشتراك فيها أنظر على على نحو ما تعرض له

«الفصل الثالث من كتاب الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر «قديم وحديث» .

ولأن أفكار شاكر قائمة بذاتها، فلا أحسب أن والدى رحمه الله كان سيعارض هذه الزيارة .. فكتاباته كما عرضتها أمامكم وأمام نفسى تدل على شعور بالواجب الثقافى تجاه وطننا العربى، ومسئوليته أمام ضميره، وأمام التاريخ ولم تكن هجرته إلى الحجاز ولا محاولته مفارقة الحياة عن شعور سلبى، أما عزلته فهى إيجابية فى نظرى - ومن خلال ما كتب عنها من مقالات - ذلك أنها كانت تنكر المنكر.. ويلتمس فيها هذا العزاء الذى لا يلتمسه إلا عظماء الرجال وذلك أن الخديعة لا تحب العزلة .

وأنا أرى أن كتابات شاكر تمهد هذا الطريق إلى الفلاح وعلى من يقول: إن أداة محمود محمد شاكر هى محض لغة. أدعوه أن يتذكر قوله تعالى «خلق الإنسان علمه البيان» ومن الغريب أن أستمع - عرضا- إلى برنامج «العلم والحياة» وكانت الحلقة عن القواميس ، أن أحد الصحفيين سأل مكتشف الألكترون عن أهم اختراع يفيىء العالم كله إلى ظله - وقد توقع الصحفى أن يقول العالم ، إنه الذرة أو الالكترون أو الليزر ولكنه وجد العالم يقول اللغة وتحديدها .. بمساعدة القواميس .

وهذا العالم محق فيما قاله .. ذلك أننا نسمع كل يوم أن الاختراعات الحديثة كالكمبيوتر مهددة بجرثومه تمحو أثرها فى أقل من الثانية .

أما اللغة فليست مرآة الفكر كما يقول المتحذلقون.. إنما اللغة إبداع العقل والوجدان جميعا، واللغة طريق المعرفة الكاملة، والذين قالوا إنها توفيق من الله تعالى لم يبعدوا عن حقيقة أنها مساوية لأثمن ما فى الإنسان ، للروح التى نفخها الله فيه. بل لا تفسر لضعف شوكة العرب وانحلال همهم إلا لإنحلال لغتهم، والمعانى التائهة البلهاء ضرب من الانحلال ، والشقشقة اللفظية التى تسمى خطأ بلاغة ضرب آخر .

فالكلمة هى البيان و«البيان هو نعمة الله الكبرى التى أنعم بها على عباده من كل جنس ولون . فمن استهان بالكلمة فقد استهان بأفضل آلاء الله على عباده ، وبالنعم الكبرى التى أخرجته من حد البهيمة العجماء ،إلى حد الإنسان الناطق بل إن الثقافة بعلومها وآدابها وفلسفتها، عالة على الكلمة فالكلمة إذن هى كل شىء .

الباب الثانى
اللقاء

الفصل الخامس

بداية اللقاء

أما وقد وقفت بكم على باب ساحته الرحبة ، وأنا أصبو - بما يجوب داخلى من رهبة - إلى الولوج إليه ، والتوغل فى أغواره ، ومجابهته وجها لوجه ، سندى فى ذلك معايشتى لأفكاره وكتاباته وكتابات غيره عنه ، ومددى من فيض مجالسه وتجاربه عبر شهادات أصدقائه وتلاميذ ومريديه ، وزادى ما أدركته عنه من جوهر المبدع الصدوق، فليفتح شيخنا بابه ، ولندلف إلى مفازاته ودوحاته الرحيبة المديدة.

وأبدأ قصة اللقاء من أولها ففي يوم من أواخر شهر نوفمبر من عام ١٩٧٠ ، كنت أتناول الغداء مع والدتي رحمها الله ، وكان لدى إحساس بأن شيئا ما سوف يحدث ، وفعلا بعد فترة قصيرة ، اتصل بي هاتفيا الناقد المعروف الدكتور صبري حافظ ، الذي كان يعلم مدى شغفي لمعرفة الأستاذ محمود شاكر ، وبعد أن أعطاني رقم هاتفه الخاص . أخبرني بأن صديقنا الحساني حسن عبدالله كان عنده أمس فانتظرت إلى يوم الثلاثاء التالي وفي صباح اليوم الموعود ، استجمعت قوتي بل جسارتي وأدرت قرص الهاتف ، طبقا للأرقام التي عرفني إياها الدكتور صبري .. واتخذت من السؤال عن الأستاذ الحساني وسيلتي للحديث مع الأستاذ محمود شاكر . وما أن أجاب حتى أحسست بصوته يرجني ، وكأنه يجابهني شخصيا ، سألته عن الاستاذ الحساني وهل هو موجود ؟ فرد عليّ وقال . لا : إنه يأتي يوم الجمعة .. فقلت : ولكنه كان عند سيادتك الثلاثاء الماضي وكأنه ارتاب في شخصي قال : كانت صدفة ومن أنت ؟ قلت زميلة للحساني بمؤسسة السينما فقال : ولماذا لم نرك ؟ قلت حساني رفض ذلك مع أني أريد أن أكتب عنك .. فقال : دعك من الكتابة هل لك أقدام ؟ قلت نعم ، ولكني لا أعرف العنوان .. فأملاه عليّ بتفصيل دقيق .. وكان ثمن تذكرة المواصلات العامة إليه يومئذ ثلاثين قرشا .. أي غرامة كبيرة .

وفى عصر يوم الجمعة السادس من ديسمبر عام ١٩٧٠ .. أذكر أننى ركبت الاتوبيس رقم «٩٨» من الروضة إلى التحرير ثم آخر رقم «٣٠٠» إلى قبلتى «فى مصر الجديدة شارع الشيخ حسين المرصفى رقم «٣» ولا أستطيع وصف حالة الوجل الذى صاحبنى طول الطريق إليه أو حين مثل أمامى فاتحا لى الباب بنفسه، فإذا بهيئته تطيح بما رسمته له من صور من خلال الروايات التى سمعتها عنه ووصفهم إياه بالشيخ ، فلم يكن معمما ولا ذا لحية طويلة كثيفة ، إذ لقيتها خفيفة، وينطبق عليه بالإجمال ما وصفه به الأستاذ محمود البدوى : « والأستاذ شاكر» طويل فى نحافة ، حاد الصوت والنظرة ، فيه عنف العربى إذا أثير ، ولكن مع صلابته يلقاك بالبشاشة والود ، وما لقيته إلا مبتسما ».

لم ألحظ فى الوهلة الأولى لرؤيته ، إلا بساطته وتواضعه الأصيل بالفعل مع ابتسامته الودودة ، وقدرت أن عمره ، تجاوز الستين بقليل .

ولأن زيارتى له كانت فى الصيف ، فقد وجدت الضيوف الذين سبقونى يجلسون فى شرفة شقته الفسيحة فى الهواء الطلق .. وكانت جلستى فى أول مقعد صادفته .. وكان مكانه الأثير كما عرفت فيما بعد – ولما لم أكن أعرف من الجلساء أحدا .. فقد كنت أخفى خجلى بالنظر إلى الكتب التى لاحظت أنها تملأ جدران الردهة المواجهة لى . مجلدات بأجزاء كثيرة ، وعناوين لم أسمع عنها فى متابعاتى لتاريخ العربية ورجالاتها «الصلة لابن بشكوال » ، «تكملة الصلة لابن الآبار» ، «نفح الطيب للمقرى» ، «المحلى لابن حزم» ، «البداية والنهاية لابن كثير»

«المنتظم فى تاريخ الأمم لابن الجـوزى» ، «الكامل في التـاريخ لابن الأثير» «كتاب النبات لابن حنيفة الدينورى » «طبقات الحفاظ للسيوطى» و .. و . وفجأة .. كأنه ببشاشته . يزيح عنى الخجل بالنظر إلى الكتب ، سـألنى عن لقب «الشـريف» فى اسـمى – فـأعدت على مسـامـعـه وأنا أتلعثم، ما كان يقصه والدى علىّ من أخبار عن شجرة عائلتنا العربية ، وهنا اسـتـوضـحنى عن البلدة التى جـئنا منهـا إلى القـاهرة ، فقلت: «بعضها من أخميم والآخر من «جرجا» فتهلل وجهه وهو يقول : قطعا نحن أقرباء فأنا أيضا من جرجا ، ثم أخذ يشرح للضيوف وجلساء الندوة : أنساب العائلات العربية التى تشعبت فى مصر بتمكن واقتدار ، ولكى أحول دفة الحديث عنى وأنا أواصل النظر إلى مكتبته الهائلة قلت: لم أكن أعرف أن كتب التراث العربى بهذه الضخامة والتنوع ، عندئذ بادر إلى تصويب سؤالى – وتلك عادة عرفت بعد ذلك أنها من ألصق عـاداته قـبل الإجـابة على السؤال – وقـال لى : ليس هناك شئ باسم التراث العربى ثم شرح لى أن كلمة تراث تطلق على نتاج حضارة بادت واندثرت ، ثـم نتناولها بالحديث أو الكتـابة ، أمـا حـضـارتنا العـربيـة فمازالت مستمرة باقية وليست تراثا ثم تعاظمت نبرة صوته وهو يشرح أدق التفاصيل ، ولم يهدأ إلا بعد أن انتهى من تصويب كلمتى – التى قلتها عفوا من شدة خجلى – وبيان وجه الخطأ فيها ، ورأيه فيمن يقول ذلك .. وربما كـان سيطيل أكثـر لولا ظهور أولاده الصـغار فى المكان الذى نجلس فيه .

وللاستاذ محمود شاكر من الأولاد (فـهر) وكان عمره ، يوم كانت

أول زياراتى ، ست سنوات ، و(زلفى) وكان عمرها لا يتجاوز السنة والنصف ، وقد أكد لى صغر سنهما على ملمح من شخصيته ، ألا وهو أن علمه وفكره ، ومكتبته وبحثه ودرسه ، ومعاركه وآلامه ، وزملاءه وتلاميذه ، كل ذلك أخذ شطرا كبيرا من عمره قبل أن يتزوج .. ذلك أن الدكتور مندور قال لى أنه ومحمود شاكر كانا زميلين فى دفعة واحدة . وأولاد شاكر يمكن أن يكونوا أحفاد مندور . مع أن مندور تزوج بعد عودته من بعثته فى فرنسا .

وعندما رددت اسم (فهر) بشفتى بينى وبين نفسى - لأنه الاسم الذى يكنى به ويكتبه على عناوين كتبه ومقالاته (أبو فهر) - أحاول أن أتذكر مكانه بين نسب قريش ، قطع شيخنا علىّ تفكيرى .. وكأنه يقرأ مادار بخلدى : هو قرشى وهو الجد العاشر لمحمد صلى الله عليه وسلم، وهنا أدركت أن شيخنا له فراسة نادرة ، إضافة إلى علم واسع غزير ، فذكرنى بالحديث الشريف «اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله» .

أما اسم ابنته «زلفى » فقد أعادنى إلى مقدمة كتبه لاسيما الظاهرة القرآنية «حيث يستهلها دوما» ، الحمد الله وحده لا شريك له حمدا يقربنا إلى رضوانه ، وصلاة الله وسلامه على نبيه المصطفى من أبناء الرسولين الكريمين إبراهيم وإسماعيل ، صلاة تزلفنا إلى جنته »

وقد أكد لى سلوك الأستاذ شاكر فى هذه الجلسة الأولى ما كتبه

عنه أحد تلامذته وأصدقائه الدكتور محمود الطناحى (١) حيث قال وشيخنا فى مجلسه طيب ودود ، يؤنس جلساءه ، ويجعل لكل منهم نصيبا مفروضا من وده وإقباله ، لا يصطنع وقارا كاذبا ، فيطرب للنادرة المهذبة الحلوة ، ويستزيد منها ويرويها » .

وقد حاولت أن أستأثر به لنفسى - دون مريديه - لأنهل منه وأتوغل فى طيات حياته - بحجة إجراء حوار معه - فذهبت محاولتى أدراج الرياح ، فتأكدت أنه لا يستهويه الإدلاء بالأحاديث ، ولا تغريه الصحافة فى شئ ، مما سبب لى شيئا من الحرج شعر به تلميذه الدكتور ناصر الأسد (٢) ، وكان من حضور الجلسة ، حيث انتحى بى جانبا يحاول أن يخرجنى مما أنا فيه فبدأ يحدثنى هو عن الاستاذ محمود شاكر ... وظروف تعرفه عليه وما وصله من شخصه وعلمه فقال : «كنت بصحبة زميلى الدكتور محمد يوسف نجم ، يوم زرته عام ١٩٥٥ بعد انتهائى من إعداد الماچستير وبداية إعداد رسالة «الدكتوراه» فأبدى رغبة فى أن تستمر المودة بيننا ، فتأكدت أن صداقة سريعة قد نشبت بيننا . وقد

---

(١) للتفصيل راجع الرحلة الرابعة مرحلة الأفذاذ من كتابه «مدخل إلي تاريخ نشر التراث العربي» .

(٢) كانت رسالة الدكتور ناصر لـ «الدكتوراه» عن الشعر الجاهلي - وقيل أن بصمات شاكر واضحة عليها ، ووقت إدلائه بهذا الكلام كان سكرتيرا للمنظمة العربية للثقافة والعلوم ، وهو رئيس المجمع الملكي الأردني ومؤسس الجامعة الأردنية ومديرها السابق .

أفدت من مجالس محمود شاكر مالم أفده من مجالس أخرى -ى جميع مراحل حياتى ، لا استثنى من ذلك مرحلة دراستى فى الجامعة فليس مبلغ علمه هذا الأسلوب الفريد الذى لا تخطئ فيه شخصية كاتبه مهما يكن الموضوع - فقها كان أم شعرا أو نحوا - فهو يصرخ دالا على صاحبه ، ونبض كل عبارة فيه بأصالة الكاتب وتفرده » .

وإذا كنت قد قرأت له «المتنبى» و«أباطيل وأسمار «ومقالاته في الرسالة» وبعض تعليقاته وشروحه وحواشيه على الكتب التى حققها ، فأنت فى غنى عن أن يدلك بالأمثلة على خصائص هذا الأسلوب المتميز وإلا فالمطلب عسير وإن كنت من أهل العربية العارفين بالتراث وأهله ، يذكرك أسلوبه بأساليب الأئمة الشامخين من أمثال : الجاحظ ، وأبى حيان التوحيدى ، وابن حزم ، على تفرد كل منهم ، وإنما جمعتهم الأصالة والامتياز » .

وبقدر ما لفتت هذه الكلمات نظرى إلى أن العطاء الفكرى لهذا الرجل لم يكن من خلال كتبه ومعاركه ، بل من خلال تلامذته المنتشرين فى الأرض العربية والإسلامية ، والتى كانت قبل استجلاب التليفزيون لمصر سنة ١٩٦٠ .. أما الآن فإن مجمل الزوار هم الذين يشكلون لون الجلسة. فإذا كانت الغالبية من العلماء والدارسين .. تألق الأستاذ محمود شاكر وحلق فى آفاق العلم أما إذا كانوا أناسا عاديين أقارب وأسر - حيث صار كل مريد يصطحب زوجته فإنها تصير جلسة مسامرات عادية موشاة بالعلم .. وفى كلا الحالتين كان الاستاذ محمود

شاكر يتنقل بين جلسائه ، يداعب هذا ويشاكس ذاك .. فى تحبب ، ولأنى كنت جديدة على الجلسة فقد خصنى الاستاذ بقدر من الاهتمام آثار حفيظة البعض .. لاسيما وقد لبى طلبى فى أن أستعير العدد الممتاز للمقتطف الذى حوى دراسته عن المتنبى ، وأذكر أنى يوم زرته خرجت من منزله ليلا متوجهة لميعاد سابق مع أسرة الشاعر صلاح عبدالصبور وأخبرتهم بزيارتى للاستاذ محمود شاكر .. وشاهدوا معى عدد المقتطف ، هنأنى صلاح لأننى حزت اعجاب الاستاذ ورضاه ، وعندما استفهمت قال لأن الأستاذ شاكر لا يعير كتبه ، فالذى يريد أن يقرأ فى كتاب نادر أو مخطوط وحيد لديه .. عليه أن يذهب إلى بيته للإطلاع على ما يريده .. ثم يعيد الكتاب إلى المكتبة قبل المغادرة .

والحق أن ما أبداه الشاعر صلاح عبدالصبور أسعدنى .. وأستأنست به على أن لدى الأستاذ محمود شاكر ثقة مبكرة بى .. فكان علىَّ أن أثبت جدارتى بهذه الثقة .. وفى سبيل ذلك عكفت أقرأه بعناية فائقة . وبكل مـا أوتيت من قوة رحت أحيط بالكتاب من أطرافه أى من النفثة القديمة ، التى أستروحها احتفاء بقدومه على الكتابة عن المتنبى :

ذكرتك بين ثنايا السطور	وأضمرت قلبى بين الكلم
ولست أبوح بما قد كتمت	ولو حز فى النفس حد الألم
تمزقنى .. ما حييت - المنى	فأرقع ما مزقت بالظلم
فكم كتم الليل من سرنا	وفى الليل أسرار من قد كتم
تشابه فى كتم ما نستسر	سواد الدجى ، وسواد القلم

إلى أن وصلت إلى البيتين اللذين كثف بهما وقع شخصية وشعر المتنبى على نفسه :

فدتك نفوس الحاسدين ، فانها ... معذبة فى حضرة ومغيب

وفى تعب من يحسد الشمس ضوؤها

ويجهد أن يأتى لهـــا بضريب

محمود محمد شاكر

٣ شوال ١٣٥٤

٢١ ديسمبر ١٩٣٥

وقد استوقفنى أن الاستاذ محمود شاكر ، قد أثبت تاريخ هذين البيتين ولم يثبت تاريخ إنشاده للأبيات الخمس التى تكون «نفثة قديمة» فغيب علينا ما إذا كانت هذه الأبيات تتبع «ديوان البغضاء » الذى كان يصدر تحت شعاره جل شعره الذى سبق نشره فى المجلات والصحف .. أم أنها قصيدة ذات طابع خاص وسرى للغاية لا يمكن البوح به ، وأنها حقا «نفثة قديمة » .

*

الفصل السادس

معركة مع البحر المتلاطم

لم يكف الأسبوع الذى تخيلته امتحان قدرات للإحاطة بهذا السفر الانسانى فى دقته وتفرده ووفرته ، فأعطيت لنفسى مهلة للدراسة والفحص وأخذت أقرأ ما يساعدنى ثم توقفت مليا عند سبب إيراده للأبيات الخمسة الغزلية التى عنونها بـ «نفثة قديمة» ورحت أساوق بينها وبين ما جاء فى الفصل الثالث عشر حول حب المتنبى «لخولة» أخت سيف الدولة ، لا سيما وقد شعرت أن التقاطه لهذا الحب ، قد جعل الأستاذ فؤاد صروف يذكره وكأنه فكرة طائرة ليست ثابتة على قواعدها .. قلت لنفسى لو أن الأستاذ صروف التفت إلى «نفثة قديمة» ما جاء كلامه عابرا هكذا ولقال لنفسه إن شاكر كتب المتنبى فى ظلال تجربة حب كبير ، قر عزمه على كتمانها عن المحيطين به حتى لو كبده لهيبها اللاهث ما لا يطيق أو ما عاناه ، وهو يكتب بالمداد القاتم هذا البحث الشاق عن المتنبى .

لم أقل لنفسى يومهـــا إن هذه الأبيات التى عبرت عن حبه الدفين ، تشى بأنه أسقط تجربته الذاتية على المتنبى وحبه لخولة ، بقدر ما قلت إن هذا الحب هو الذى أعانه فى التقاط حب المتنبى لخولة ، لشدة الشبه فى ظروف عدم معرفة المحيطين بهما «المتنبى وشاكر» .

اتصل بى الأستاذ شاكر خلال الأسبوع المهلة .. ليسألنى : لماذا لم تأت يوم الجمعة الفائت ، فلم أشأ أن أطلعه على عرجى فى قراءة المتنبى بل قلت له - وكان هذا صحيحا - : إن فى باقة مريديك من بادرنى بالعداء فاستفهم : من ؟ قلت له : سيدتان - ولأنى لا أتذكر أسماء من يعادوننى - فقد وصفتهما له ، فما كان منه إلا أن انفجر فى الضحك وهو ينادى : «أم أفهر .. أم فهر .. تعالى واسمعى ماذا تقول عايدة ؟» تناولت الهاتف واستوضحتنى من ؟ فأعدت على مسامعها ما قلته للأستاذ .. فما كان منها هى الأخرى إلا أن انخرطت فى الضحك .. ثم أردفت .. إن هذا لا يجعلك تحجمين عن المجىء .. تعالى وغيظهما تعالى يوم الجمعة صباحا ..

بعد أن تأكدت من استيعابى النسبى للمتنبى كان ذهابى للأستاذ شاكر مبكرة حيث وجدت بيته فى هدوء تام ، لأن الاصدقاء والتلاميذ والمريدين لم يكونوا قد حضروا بعد ، انفردت به وسلمته عدد المقتطف ، فسألنى : هل فهمته جيدا ، قلت : لقد اجتهدت كثيرا رغم أنى قرأت لك وعنك قبل ذلك - إلا أن أسلوبك قد صعب على هذه المرة .. لماذا لا تكتب للناس العاديين .. لابد أن جمهورك سيتضاعف كثيرا .. فأجابنى وفى صوته شىء من السخرية وهو يقول : «إنه لا يشوقنى أن يكون لى جمهور قراء بقدر رغبتى فى أن يكون لى قلة من القراء ، يعرفون قدرى ويفهمون ما أكتب» لقد كتبت فى الرسالة يوما مقالا تحت عنوان «لمن أكتب» لكننى عندما عدت إلى الرسالة وجدت أن مقال «لمن أكتب» لا يخص أسلوبه ، وأنما هو الحلم الذى ينتظره الاستاذ محمود شاكر أن

يوافيه الزمن بفارس شجاع يجعل كلام علامتنا وكل المخلصين معه ، نبراساً فى البحث عن سعادة هذه الأمة العربية الاسلامية .

يومها - وبعدم الكف - الذى يصدم فى العادة كل ما يتحاور معى لأول مرة سمعتنى أقول - وكأن صوتى يأتى من آخر قائلا : وأين تضع نفسك ممن حكمه الله سبحانه وتعالى ، وقد أنزل القرآن على آيات مكية ومدنية وفقا لعقلية الناس فى البلدين ؟ .

تلقى الأستاذ محمود موجتى الهادرة هذه ، بالسخرية اللامبالية .. وهو يقول إن الأختلاف بين الآيات .. لم يأت بسبب ما أتفلسف به .

ولم يفسره لى «١» ، فقد استأذننى فى أن يتخفف من «البدلة» التى يرتديها لأنه عائد من صلاة الجمعة - وهو للعلم لا يرتدى البيجاما «والروب دى شامبر» كالعقاد مثلا بل يفضل الجلباب والعباءة شتاء - أما عندمـــا يذهب إلى بلاد الجزيرة العربية ، فإنه يخرج بالجلباب أيضا .

عاد لى زمن الفهم .. فعرفت أننى تجاسرت على كاتب كبير ، ومن ثم ابتلعت كل الآراء التى كنت قد كونتها عن شخصيته العقلية والنفسية والخلقية ، فمن غير اللائق أن أقول له : إنه إنما بذل كل هذا الجهد الشاق فى كتابته عن المتنبى إلا ليقول للخلق أنه أقدر من العقاد

---

(١) عندما كان الرسول في مكة ، نزلت الآيات المكية التي تتعلق في الأغلب بأمور العقيدة والتعاليم الدينية .. أما حين انتقل الرسول إلي المدينة جاءت الآيات والسور التي تتعلق بالأحكام والقواعد .

وصديقه الرافعى و د . طه حسين وكل من كتب من الكبار قبله ، عبر الفهم العميق للعربية والسيطرة على أدواتها ومعرفة سليقتها ، خاصة وأنه بهذا البحث ومقدمته الشعرية يجمع بين قدرة النقد ، وقدرته على تفكيك القصيدة وإعادة تركيبها والخلق الشعرى فى شخص واحد .
خجلت أيضا أن أجابهه بأن قصيدته الغزلية هي التى جعلته يهتدى إلى حب المتنبى لخوله .. فقد كانت الجلسة الأولى بعد التعارف .

جلست في بهو البيت أتأمل مفرداته .. إنه ليس فخما أو متسعا بقدر ما هو شديد التنسيق والنظافة «يشف ويرف» كما سبق ووصفه الأستاذ يحيى حقى .. وأستطيع وصفه بالأجمال بأنه مكتبة بها بيت .. حيث الكتب تغطى جميع الجدران ، وتزحف إلى كل الأركان .. إلا البهو الذى أجلس فيه حيث الكتب متراصة حول المقعد الأثير لدى الأستاذ محمود شاكر .. وفى مواجهته حامل عليه التليفزيون . علقت على الجدران لوحات مختلفة الأحجام لآيات الذكر الحكيم .. وفى زاويتى الردهة .. لوحتان تحتويان على قصيدتين بمناسبة مولد ابنه فهر أبريل ١٩٦٤ م والثانية بمناسبة مولد ابنته زلفى سنة ١٩٦٩ م ، أما الأولى فمطلعها :

تحية مثل عبير الزهـــــر تهدى إلى فهر وآل فهر
أنت أبا فهر أديب العصر وابنـك سر لك أى سر

إلى ختامها :

عشت وعاش النجل طول العمر في مأمن من غدرات الزمن

أما الخاصة بزلفي فيقول مطلعها :

زلفـــى أنت بعد فهر		بالســـعد والإقبال

فرعان من بيـت مجد		جم المكـــارم عـالى

إلى ختامها القائل :

ما بين زلـــفى وفهر		كالشمس بعد الهلال

عطية اللـــــــه ربى		الواهــــب المتعـــال

بقيت للعلم والفضــل		والعـــلا والكمـــال

١٩٦٩ م

عندئذ دخل عليّ الأستـاذ شـاكر وقـد ارتدى الجلباب وسـألنى هل ستجلسين هكذا ؟ لماذا لا تعملين شـيئا .. تعالـى ودخل بى إلى حـجرة الطعـام ، رتبى هذه الأطبـاق على المائدة ضـعى الملاعق والشـوك والسكاكين .. عندما دخلت زوجته أم فهر وأرادت أن تساعدنى رفض .. وبعد أن رتبت هدا الكم الكبير من الأطباق .. أخذ بيدى حيث أم فهر فى المطبخ وأمرنى – رغم معارضتها – أن أصنع «السلاطة» ، بعد ذلك عرفت أن الأسـتـاذ مـحـمـود شـاكـر .. إن لم يكن منغـمـرا فى القراءة والكتابة فهو يشارك بالمساعدة فى أعمال البيت الذى لا يسـتخدم عاملا أو عاملة تساعدهم فى تلبية مطالب الضيوف التى لا تنقطع .. وأه لو رأيته يجفف الأوانى الكثيرة بعد الغسل .. إنه يقوم بهذه المهمة فى حذق وجدية كما لو أنه يكتب بحثا دقيقا .

بعد ذلك بدأ جـرس الباب يرن رنات متتالية تـوالى على أثرها

قدوم الزوار وبــدأت مع زوجته فى وضع أشهى المأكولات على المائدة .. ودخل الضيوف وأمرنا الأستاذ شاكر أن نسمى على طعامنا .. ففعلنا .

وقد سعدت كما لم أسعد من قبل فى حياتى لجلوسى إلى هذه المائدة العامرة .. ليس لأطايب طعامها - الذى وصفه الشاعر عبد الرحمن صدقى فى يوم جاء يصحبنى «إنه أكل الجنة» ووصفه آخر بأنه يؤكل ولو كان الأنسان ممتلئا - ولا للمناقشات التى تدور عليها فحسب وإنما للشخصيات الأسرة الجديدة علىّ ، فهذا هو المثقف الموسوعى السعودى «أحمد بن محمد بن مانع» وهو من أحبهم إلى الأستاذ محمود شاكر وأقربهم إلى مجلسه - يستمع إلى كلمات الحاضرين ويناقشها بدقة فكرية لا نظير لها .. الشاعر الفحل محمود حسن اسماعيل يشركه الأستاذ فى الحوار ليخرجه من صمته بحساسية مفرطة ، بعكس ما يفعله مع الأستاذ يحيى حقى حيث مداعباته له تقرب كثيرا من التحرش ، ومع ذلك يتلقاها الأستاذ يحيى بصدر رحب حتى لو كانت أمام مرءوسيه أو أمام جدد من الوافدين على الجلسة قد لا يعرفون كم تحمل هذه المداعبات من عظيم المودة وقدم الإعزاز ، نعم فجلسة الطعام هذه قد يجلس إليها ضيف قد أتى لأول مرة إلى بيت الأستاذ يستزيد من علمه فى مسألة لغوية أو نحوية أو شعرية فيستبقيه الأستاذ على الغداء مع أهله وعشيرته ، فهو يتبنى كل من آنس فيه خيرا لمستقبل العربية . وقد يجلس معنا «عم أنور» حلاق الأستاذ حتى لو كان بالجلسة وزراء سابقون ولاحقون كالدكتور ناصر الأسد وزير التعليم الأردنى ، والدكتور شاكر الفحام وزير التعليم السورى ، والدكتور عبد

الله الغنيم وزير التربية الكويتى .. بل قد يجلس إلى هذه المائدة انسان ليس له بالبيت علاقة ، كمن تعرف بهم الأستاذ فى سجنه ووقف على قدر عوزهم .. مبادراً إلى مساعدتهم مع فقراء الطلبة الذين دخلوا بيته تباعا دون أن يعرف أحد شيئا عن ذلك ..

وعندما يأتى الدكتور محمود الطناحى .. الذى يحضر مع زوجته وأولاده ، وكلما روى طرفة فإن الأستاذ محمود شاكر يأتى بطرفة مشابهة من أحداث حياته .. ثم يلتقط خيط الحديث أولاد أخيه الشيخ على «زهير وعبد الرحمن وعلى» ويغدو الحديث على مائدة طعامه من أمتع ما يكون الحديث .. ولا تخلو مائدته من «الملوخية» ولأنها غير معروفة فى كثير من البلاد العربية .. فهو يمازح ضيوفه العرب بأن يتذوقوها .. وهو دائما يذكر من منهم تردد أو أحجم أو أقبل عليها ، وأم فهر هى التى تضع الأكل فى طبقه ، وتقشر له الفاكهة التى يحبها ، وهو يخب من الحلوى صينية «قرع العسل» .

وغالبا ما ينتهى من طعامه قبل ضيوفه . لذلك فهو يتناول الحلوى متعجلا لكى يشعل سيجارة .. فهو مدخن تليد – أمره الطبيب بالإقلاع فامتنع عنها مدة سنتين ولكن لم يكتب فيها شيئا .. وهو الآن ممتنع عن التدخين ومن ثم فهو لا يكتب شيئا بأمر الطبيب !

وقد يسأل متعجل .. على رسلك .. ها أنت تصفين المائدة وصاحبها وأولاده وضيوفه .. ولم تذكرى شيئا عن كهرمانة البيت أم أولاده التى تتعهد هذا الجمع كل جمعة – كما تصفين الآن ..

زواجه بأم فهر

ولأجل عيون أم فهر أقفز فوق الأحداث والسنين إلى ما كان في أحد أيام عيد ميلاد الأستاذ محمود شاكر سنة ١٩٨٣ .. الذي يوافق يوم عاشوراء ، حيث اصطحبت معي صديقتي الأثيرة الفنانة القديرة كريمة مختار .. التي أخذتها الدهشة مما كان في مجلسنا الحافل هذا .. بمريديه الكثر .. هذا يلقي قصيدة ، والآخر كلمة ، والثالث ذكرى في مناقب محمود شاكر وشمائله ، وكان الأستاذ عامر العقاد يقدم المتحدثين .. وفجأة سمعته يعلن عن رغبة الفنانة كريمة مختار في الكلام ، وأسقط في يدي وربما في يديها .. إنني لم أحدثها قط عن الأستاذ فماذا ستقول ؟ هل خالت أن ما يدور حولها عرض فني .. يجب عليها حياله أن تبرز عبقريتها ؟ وبغتة وصلني صوتها يقول : إنني لم أقض مثل هذه اللحظات الجميلة في حياتي ولم أر مثل ذلك الحب المتدفق من المريدين لشيخهم ، وقد دار في ذهني الآن سؤال : كيف يختار العلماء الأجلاء زوجاتهم ؟ فران الصمت عميقا فوق هامات المريدين وكأن على رءوسهم الطير .. فتوجهت أنظارهم واشرأبت أعناقهم وأصاخت آذانهم .. وبغتة أتانا صوت محمود شاكر بسماحته المعهودة مع الضيوف الجدد على مجلسه ، يقول : أنا من الناس الذين لا يجيدون الكلام .. لأن صنعتي هي الكتابة . ولزواجي بأم فهر قصة «عجيبة» .. ذلك أنني عندما تركت الجامعة كما تعرفون هاجرت إلى السعودية .. وبقيت هناك عامين ، ثم استدرك : لم يكن البترول قد ظهر فيها ومن ثم لم تكن ذات ثراء كما هي الآن «هناك كان لي صديق من

أسـرة كريمة ، هو الأستاذ حسين نصيف ، وكان بيني وبين أسرته مودة ، فحملني صديقي وأهله إلى الزواج وتحقق ذلك بخطبتى التى تمت بمشورتهم عام ١٩٢٩ ، بعدها ألمت بأهلى فى مصر ملمة - لم يذكرها غير أنى أظن أنها كانت وفاة أخته صفية - وبدأت أتلقى رجاء الأهل والأساتذة للعودة ، ورجعت إلى مصر فى العام الذى ولدت فيه أم فهر ....

مرت الأيام وتوالت السنون ويشاء الله أن تتعرف أختى عزيزة بإحدى حفيدات الشيخ حسن الكفراوى شارح الأجرومية «قواعد اللغة» - الذى بنى له الخليفة على بك الكبير - العصر العثمانى - جامع أبو الذهب إمام الأزهر الشريف - وهو المسجد الوحيد فى مصر ، الذى يعلو دكاكين الباعة ، أى أن الصعود له يكون عن طريق الدرج - «ليلقى فيه دروسه .. ولهذا الشيخ الجليل مسجد كبير فى بلدته كفر الشيخ ..

أعلمتنى أختى عمن قابلت مردفة بأن هذه الحفيدة قد هاجرت بها والدتها مع أخواتها من كفر الشيخ ، حثثت أختى بأن تصطحبها إلى بيتنا وحين رأيتها أعجبت بدماثة خلقها وحيائها .. ومن حماسى لهذه الفتاة النيرة ذهبت أقابل والدتها وأشاورها فى أن أتبنى هذه الفتاة .. وعندما لفتت حماستى نظر من حولى .. نبهونى أنه ليس فى الاسلام تبنى ، قلت وأنا أكثر حماسة وغير متراجع ستكون ربيبتى . حفيدة الرجل الصالح ذى المقام المهيب ، هذه هى أم فهر ، التى بقيت معنا أنا

وأختى عزيزة من سنة ١٩٤٥ طفلة إلى أن بلغت الشباب ، حيث أخذ يتوافد عليها الخطاب .. وكلما جاء أحدهم بنية انتزاعها من بيتى اشتد إحساسى بأننى سأفقد شيئا عزيزا على نفسى ، حتى خلت أننى لن أحيا بفقدها أبدا .. فاقترح أحدهم علىّ الزواج بها .. فكان .. والفضل كله يرجع إلى الأستاذ أحمد المانع .

وهكذا كان هذا الزواج على خلاف الأشياء .. ذلك أنه فى سنة ٢٩ عندما خطبت فى السعودية ، كانت أم فهر نطفة فى بطن أمها ، وكأن القدر كان يرسم لى ولها مسارا غير متوقع أى خلاف الأشياء .. فهى إذن رعتنى قبل أن تكون زوجتى ، وأكرمتنى وحفظتنى - ثم انفجر فى البكاء وعاد يسمع بالكاد - وأكثر من ذلك أنها تحملتنى ، أكثر الله من خيرها ومن أمثالها ، تحملت الوحدة مع وليدها سنوات سجنى مرتين ، وتحملتنى خارجا منه مريضا نافد الصبر ثم تبسم من بين غمام بكائه ، ثم أردف قائلا : وهى صاحبة الفضل عليكم جميعا .

وبينما انفجر الجميع بالضحك والموافقة .. همس الدكتور محمود الربيعى في أذنى . إن اصطحابك للسيدة كريمة مختار اليوم ، جعلت أستاذنا ينشر أنصع صفحة فى حياته قاطبة . فهذه السيدة أم فهر «نعيمة» جاءت على خلاف الأشياء بالفعل ، لأن الرجل منا يفتح بيته للأصدقاء طالما هو غير متزوج ، أما إذا تزوج فإنه يغلق بابه على جنته «كما وصف مالك بن أنس الزواج والبيت ليسعد أو ليهنأ .. أما هذه السيدة البشوش فقد فتحت بعد زواجها منه باب بيته على مصراعيه ، لجميع تلامذته من جميع الأقطار العربية والاسلامية ، حتى اتسع هذا البيت غير المتسع لكثير من قاصديه ينزلون عليه من بلادهم .

وأحسب أنني وكثيرين غيرى ، عندما يفكرون فى زيارة الأستاذ يكون وجه هذه السيدة الودود الكريم لائحا فى خيالنا . نعم فنحن قد نزور الأصدقاء الأساتذة ولكن على وجل من زوجاتهم ، بل إننا عندما نودع الأستاذ فى آخر زياراتنا ، وتكون هى مشغولة بشىء فإنه ينادى أم فهر أم فهر .. إن فلانا سيغادرنا فتعالى وسلمى عليه .. وهل تتصورين أننى أول مرة زرتهم فيها ألحت علىّ هذه السيدة الفاضلة أن أتناول الغذاء معهم .. إن هذا لا يحدث كثيرا عندما أزور أغلب قبيلتى !

قلت له وماذا أقول أنا وقد استمرت علاقتى بأسرة شاكر خمسة وعشرين عاما .. ولا أعرف وقع ما سأقوله من العقيدة .. ذلك أنه يخيل لى وهى تعد لإحدى مساعداتها الغذاء قبل أن تقدمه لأسرتها وضيوفها .. أن يدها السخية تعيد إلى ذاكرتى ما قرأته عن إحدى زوجات الرسول وهى تقتسم مع مساعدتها التمر الذى جاءها هدية ، إن أم فهر تحب الكائنات حتى إذا رأيت قططها يتحلقنها وكأنها أمهم، تلاطفهم ويلاطفونها ثم أخفضت صوتى وقلت صورتها قديسة فلو سمعنى الأستاذ محمود شاكر وانا أتداول هذا الوصف لنهرنى كما فعل سابقا .. ونهانى عن هذه اللفظة قائلا لى قولى طيبة صالحة ، مع أن كلمة قديسة وردت فى القرآن الكريم كثيرا ولكنه يدخلها فى ألفاظ غير الاسلام ! وضحك الدكتور الربيعى .. وقال شاكر أعرف بصحيح الألفاظ والمعانى !

شهادات حازها شاكر

أما ما يصف به الأستاذ يحيى حقى عظمة أم فهر .. فهو غاية فى الروعة .. حين يلمس الطاسات الفضية المرصعة بآيات الذكر الحكيم ليشرب بها ، ويشير إلى ماء الورد والزهر والنعناع .. أو القلل التى تقتنيها رغم الثلاجة وأحدث مبرد للماء ، ويقول : «لن تجدى مثل هذه الأشياء إلا فى بيت محمود شاكر ، إنها أنامل أم فهر .. نعم إنها أنامل أم فهر .. أم فهر التى بمعرفتى لها ولزوجها انزاح عن كاهلى كثير من مشاكل حياتي المعيشية .. لقد صار لى فى بيتها ركن فى حصن أهجع إليه من هجير الحياة .. ولا شك أن كثيرين مثلى يشعرون بما أحس تجاه هذا البيت التليد .. فأين الآن البيت المفتوح علي مصراعيه لاستقبال من ليس له أنيس؟ .. يدخله فى أى وقت وفى أى ظرف فيتلقاه بالبشر .. إننا لا نتعلم ولا نأكل فى هذا البيت فقط .. بل قد تتحفنا أم فهر بشىء نأخذه أيضا لبيوتنا .. فيا لهذا الوعد .. إن هذا البيت ترجم أمام ناظرى مقولات مثل «نزلت سهلا .. ولقيت أهلا وغيره من أمثال الترحيب . وتعريفكم بالركن الركين لهذه الأسرة لايعنى أركان الأسرة العادية المكونة من زوج وزوجة وأولاد .. لا فهذا هيكل خارجى فقط .. أما المحتوى فإنه يختلف عن مألوف مانعرفه من رجل يذهب الى عمله والزوجة فى البيت والأولاد فى مدارسهم أو أعمالهم ، لا فالبيت هنا هو الحياة بأسرها لصاحب هذا البيت والذى تحيا فيه أيضا مشاعره نحو أمته ودينه .. وقد وصف موقع هذا الرجل من أمته ودينه الأستاذ

كمال النجمى «١» فقال : إنه ليقف اليوم وقد انتهت اليه الرئاسة فى علوم اللغة وآدابها، قائما بسلاحه على نفس الثغرة التى كان يدفع عنها الاعداء منذ ستين عاما ، منفردا متوحدا ، قد خلا الميدان إلا منه لأن حربه التى أعلنها علي الفساد لاتضع أبدا أوزارها» .

أما عن صاحب البيت فقد كتب الدكتور ناصر الأسد عن طرف من أعماله وطريقته في إخراجه فقال : «وأمام هذا الصرح الممرد وقف المحقق الثبت الأستاذ محمود محمد شاكر سنوات طوالا يطرق بابه فى رفق حينا ، وفى عنف حينا آخر ، وفى تثبيت وعزم واصرار فى جميع الأحيان، حتى انفتح له، فولجه ، وجاس خلاله ، غرفة غرفة، وقاعة قاعة، يستبين معالمه ويستجلى خفاياه ، ويستخرج مكنونه وينصب فيه من المعالم والصور ، ما يهديه سبيله حين يعود إليه ليواصل سعيه ، وقد عاد مرات ومرات ، فلما أطمأن الى أنه مستطيع أن يجلو هذا الأثر الخالد لإيصاله بني قومه عقد العزم ومضى يفرى طريقه فريا «٢» .

أما الدكتور شكرى عياد فعندما كتب عن منهج الأستاذ شاكر التذوقى استهل مقاله «عاشق العربية» «٣» بقوله «أحيى محمود شاكر

---

(١) ـ محمود محمد شاكر يكتب رسالة في ثقافتنا ،جريدة الشرق الأوسط ، العدد ٣٢٩٤ السبت ١٩٨٧/٢/٥ .

(٢) الجزء الخامس من تفسير الطبري .. مجلة معهد المخطوطات المجلد الثاني الجزء الأول سنة ١٩٥٦

(٣) ،عاشق العربية، مجلة الهلال القاهرية أبريل سنة ١٩٨٩ .

عاشق اللغة العربية ، متى وجد نفسه أسير هواها ؟ أظنه وجد نفسه ! كأنه قيس إذ يقول فى ليلاه :

تعلقت ليلى وهى بعد صغيرة

ولم يبد للأتراب من ثديها حجم

صغيرين نرعى البهم يالبت أننا

صغيران لم نكبر ولم تكبر البهم

ولأنه في صدر مقاله أثبت أن شاكر عاش حياته مولعا باللغة العربية فقد استدرك قائلا لذلك سمينا أخانا وحبيبنا وأستاذنا محمود محمد شاكر فى عنوان المقال عاشق العربية ، وفى صدر المقال عاشق اللغة العربية «١» فلا فرق عندنا بين اللغة العربية وبين معنى العروبة نفسه ، بل لا فرق عندنا بين اللغة العربية وبين الفن العربي والعلم العربى والفلسفة العربية ، والناس يحسبون التعمق فى اللغة العربية حفظا للغريب ومهارة في حل الألغاز الإعرابية ، ولعلهم حين يسمعون مثل تلك التسمية لا يفكرون إلا فى شاكر العالم اللغوى أو محقق الكتب القديمة . مع أنه فنان وعالم ، وقد سهل عليه الجمع بين الفن والعلم لأن منهجه تذوقى ».

ويسترسل الدكتور شكرى فى أول شهادة من أستاذ جامعى فحل «جامعة القاهرة» فى تقريظ المنهج التذوقى الذى لم يتوقف فيه إلا على

---

(١) الأستاذ شاكر لايستعذب أن تسبق العربية بكلمة اللغة . لأن العربية هي لسان العرب.

حب المتنبى لخولة .. ونسترسل نحن معه ، وبودنا لو أثبتنا مقاله كاملا ـ ليس لما به من درر وجواهر فقط ، بل لأنه ـ ربما ـ أول شهادة من أستاذ جامعى فحل تتلمذ على الدكتور طه ـ الذى أشاع عن توفيق الحكيم قوله «أنه ليس له عدو فى العلن ولا صديق فى السر، فهو أبو الهول الذى لايمكن دكه» .

ومن الغريب أننا لو قلبنا هذه المقولة لوجدناها تنطبق علي محمود شاكر الذى يكثر معارضوه في العلن مع أنهم فى السر موقنون كم هو على حق، مما يجعلنا نصدق إن للأقول الاستعراضية شهرة من الدرجة الأولى .. أما مكتشفوها فإن كلماتهم تذهب أدراج الريح مع أنهم هم الصادقون .

ثم يصف الدكتور شكرى اللحظة الفاصلة المعروفة فى حياة شاكر ، أو مجابهته للدكتور طه غضبا لأصالة الشعر الجاهلى ، أو على حد قول الدكتور شكرى ، «عندما رأى ذراعا غليظا تزيح تلك الدواوين نفسها من على منضدة الدرس لتسقط فى فراغ العدم .. ريع الفتى ، وأنكر .. فأخرسه احترام السن و.. ثم غلب الغيظ علي الكتمان ونطق الفتى» ولعلها

«نقطة صغيرة فى كتاب التاريخ ، غيرت المعنى كله» .

فهذه الحادثة الصغيرة التى زادت من تأثيرها جرأة الطالب وشهرة الأستاذ ـ في نظرى أنا على الأقل ، نقطة تحول فى تاريخنا الثقافى ـ وقبل أن تستكثروا منى هذا أرجو أن تتذكروا ماتعلمتوه جميعا فى

المدارس من أن ابتداء الفكر المعتزلى كان حين اعتزل واصل بن عطاء مجلس الحسن البصرى» .

ومما يدعونا للتأمل .. أن نجد أن الدكتور شكرى قد قمص شاكر شخصية المعتزل واصل بن عطاء .. فى حين سبق لأستاذ شاكر وهو الرافعى أن قمص فى مقالاته عن الانتحار شخصية الحسن البصرى .. فهل تحوى شخصية شاكر كلا الشخصيتين «الإمام والمعتزل» إن هذا وارد بالطبع .. فشاكر قد اعتزل ليعلم نفسه وليصبح بعد ذلك معلما وربما ترجع نظرة كلا الكاتبين - الذى مر بينهما أكثر من خمسين عاما - إلىٰ الزاوية التى صور بها محمود شاكر فأستاذه الرافعى أعطاه شخصية الحسن البصرى لأستشفافه . المستقبل الذى سيكون عليه محمود شاكر والشبيه بهذا الإمام الذى شهر بعلمه وفقهه وفصاحته ونسكه .. حتى أن استغفاراته هى أحسن ما ألف فى بابها وتذكرنا بالفعل بالاستغفارات التى استهل بها محمود شاكر بعد ذلك كل كتبه ومقالاته ومحاضراته، أما الدكتور شكرى فأعطاه شخصية واصل بن عطاء لأنه بلور حياة محمود شاكر ، التى ماهى إلا سلسلة من المعارك ، أو على حد قول محمود شاكر مراجعات وتصديات، وقد تسنى للدكتور شكرى هذا الربط الموفق لأنه وشاكر كانا من تلامذة الدكتور طه حسين، لكن شاكر كان أكثر جرأة وجسارة حين اعتزل درس أستاذهما .

أما عندما وقف علي أعتاب الكتابة عن محمود شاكر تلميذه

وصديقه الدكتور محمود الطناحي نجده قد احتار فقال : «ولكن كيف أكتب عنك أيها الشيخ الجليل ، ومن أين أبدأ وكيف أمضى، وإلى أين انتهى ؟ والحديث عنك إنما هو تاريخ هذه الأمة العربية الشريفة ، عقيدة ولغة وفكرا ورجالا وآمادا رحبة متطاولة ، لا يقدرها إلا أنت ، ولا يعرف كنهها إلا أنت ، وتاريخ أمتنا حاضر بين يديك ، ماثل أمام عينيك ، لم يغب عنك لحظة ، ولم تخدع عنه لحظة ، فماذا أنا قائل فيك ، وماذا أنا بالغ من الكتابة عنك ؟

«ومعذرة ثم معذرة شيخى أبا فهر إذ أكتب عنك بهذه الوجازة التى تراها (مع أنه كتب عنه أكثر من فصل فى نفس الكتاب) أراك الله الخير كله ودلك عليه ، ورغبك فيه» .

«ثم معذرة من بابة أخرى : وهو أن أكثر ماستقرأه ، إن شاء الله منتزع من كلامك ، مدلول عليه بفكرك ، فأنا إنما أكتب [1] عنك بك وأتقدم منك إليك» .

أما ماقاله فيه الشعراء فيربو على الكتاب الضخم ، نجتزىء منه ـ على سبيل المثال ـ إنشاد الشاعر الفحل ـ محمود حسن اسماعيل من قصيدة طويلة فى شاكر شيخ العربية .. استقبله بها يوم وصل الى الكويت فى وجوده .

وأراك أنت بكل لج موجها

والهادر المشبوب فى شلالها

---

[1] كتاب الدكتور محمود الطناحي، مدخل الي تاريخ نشر التراث مع محاضرة في التصحيف والتحريف، .

وأراك أنت عليهما وكليمها

والجاذر الشبهات فى استدلالها

يحبو إليك الموغرون بكيدها

فتصدهم صد الرقى لثقالها

والعاطشون الحائرون تردهم

أغصان دوحتها وروض جمالها

وإن قال أحدهم إن محمود حسن اسماعيل هو الصديق الصدوق لمحمود شاكر ولابد أن يصفه هكذا .. بشكل آخاذ وجميل، فإننا نورد بعضا من قصيدة لتلميذ له كان فى الأصل تلميذ العقاد وهو الأستاذ شوقى هيكل يصور مكان محمود شاكر فى العربية فيقول :

حبذا الرابض فى صحن عرينه

يرقب الغيب بأحداق عيونه

فى حنان وحنين للمدى

يطلق النظرة من بين جفونه

شامخ الرأس عزيز مؤمن

تشرق العزة من غر جبينه

هادر النفس تبدى ساكنا

وهو بحر راعنا هول سكونه

صمته حكمة دهر صاغها

عقله الناطق عن وحي يقينه

قلبه الخافق فيه رنة

تنشد الثورة فاسمع لرنينه

يبعث الماضى تراثا عاطرا

ينهل الخالد شذى من ياسمينه

كونه علم وفكر وتقى

وكتاب خطه حر يمينه

وتلك بعض هذه الشهادات رأيتها مجسدة أمامى بعد التعرف على أستاذنا شاكر، حيث استهللت أول مقال لى عنه بمجلة الاذاعة [1] بأن «عالمه ليس من النوع المألوف الذى نقرأ عنه فى صحفنا ومجلاتنا المعاصرة . إن صورته هى جزء من مجالس العلم القديمة التى يصلنا شذاها عبر سطور التاريخ ومن خلال صفحات أمهات الكتب العربية ، تلك المجالس التى اضاءت بمصابيح العبقرية العربية ، متمثلة فى علمائها ورواتها وشعرائها وفقهائها وكل من انتظم فى ذلك العقد الفريد من هؤلاء الرجال العظام الذين مكنوا لكل ماهو عربى أصيل فى هذه الأرض .

واثباتي هنا طرفا من الشهادات التى حازها محمود شاكر والتى

---

(١) محمود محمد شاكر .. كاتبا شاعرا ورجل سياسة ،مجلة الاذاعة المصرية، السبت ٢٣ ديسمبر سنة ١٩٧٢ .

جاءت من أناس مختلفي الاتجاهات «صحفي» /رئيس مجمع لغوى بالأردن/ أستاذ جامعي/ وأستاذ درعمى ثم كاتبة صحفية غير معروفة لم تكن قبل لقائها به تعرف كيف يقام بيت الشعر ولاتستطيع بسهولة كجيلها المفرغ ، أن تقتحم وتفهم أثرا من ارث قومها - الذى ألف ونظر فيه محمود شاكر ، أو أن تتوغل فى قواعد النحو والصرف ، ولاتتعدى معرفتها برجال الفقه إلا ما درسته فى كلية الحقوق ، ولكنها رغم ذلك كله تتجاسر وتتصدى لتصوير شخصية عالم فى كل هذه الفروع بحجة أن هناك اختلافا بين دراسة الكتب التى ألفها محمود شاكر وبين دراسته هو ذاته - وأننى ما أوردت هذه الشهادات الا لتثبت أصالة فكره مبدئيا .. حتى لاتحسبن أننى أتناول حياة محمود شاكر بمنقبية أو شمائلية - وربما استشففتم دوافعها من شغفى السابق للتعرف عليه . لا فإنى عازمة إن شاء الله على النظر اليه كآدمى وإن بشريته توجب علىّ أن أصوره علي أنه صنيعة وراثية وبيئية ، أى إن كل ما أرجوه أن أقدم لوحة معبرة وناطقة تحيط بشخص وعمل كاتب كبير أعجبت بأدبه وشخصه ، حُرم أغلب هذا الجيل - للأسف من التعرف إليه ، وبودى ألا أتحيز فيها له .. فأحاول الاحتفاظ بأبعاد شخصيته بحيث يتصف بالإعجاب والنقد معا . والمهم ألا يحمل عملى حماقات كثيرة وهنا يجب أن ألفت النظر الى منهج كتابتى حيث تطغى وجهة نظر الآخرين أحيانا، ومن ثم تتوارى انطباعاتى عنه .. وكأنى وراءهم .. ذلك أننى فى البداية اتخذت الأسلوب الذاتى ، فوجدته قاصرا فانتقلت إلى الأسلوب الموضوعى فوجدته جافا فاهتديت أخيرا إلى أن أوفى طريقة هى أن

أسلك بين الاسلوبين لتصوير شخصيته المترامية الاهتمامات فى علوم العربية ، حيث خلت وأنا أصوره كأنى أخرج فيلما ضخما أحتاج فى تنفيذه ، الى خبراء فى هذه العلوم يعرفون تاريخ حياته .. قبل أن أعرفها أنا ، كما أن أقوالهم غالبا ماتغنينى عن كثير من التفاصيل والتأكيدات .. وتظهر المحايدة .

ثم إن أوا لقاء بمحمود شاكر وأول مقال لى عنه مضى عليهما خمسة وعشرون عاما .. فكيف أصوره دفعة واحدة . لقد عايشته من أيام كان يثور ويفور إذا خدش أحد الجلساء حدود العروبة والإسلام الى أن صار يهز رأسه صامتا غير معلق إذا احدث ذلك الآن .. لايأسا .. فالتعس الحره لاتيأس من رحمة الله وإنما لأن المرض يلم به أحيانا ويعمل فى فت عزيمته إذ أن لجدران بهو منزله لسانا أو قلما لقص وكتب عن عوالم وعلماء من شتى بقاع الأرض وكيف تكلموا وتدارسوا .. موضوعات فى النحو والفقه والشعر والرجال والتاريخ مما يغطى رسائل جامعية كثيرة وأحسب أن القارىء ربما يكتشف - بالطبع - أن هذه الاستطرادات تشى بوجلى من دخول عالم محمود شاكر وكيف أتجاسر علي ذلك وقد وقف من هو أكثر منى علما طويلا ببابه دون استطاعته الدخول ، فقد كتب الدكتور أحمد عبيد الكبيسى وكيل كلية الحقوق والشريعة بجامعة الأمارات العربية المتحدة وهو عراقى : «لكى أكون جديرا بالكتابة عن واحد من القمم والشوامخ مثل محمود شاكر ، لابد لى من أن أكون فى مستواه أو قريبا منه ولست بذلك» .

«ولكي أكون قادرا على النظر في فكره وآثاره ومناهجه ، لابد لى من

عمر طويل يحسب بحبات العرق وعدد الصفحات ولايحسب بالساعات والأيام .. ولكني لا أجد ذلك» .

«ولكي أكون أمينا علي تاريخ سيرته وتسجيل وقائع حياته ومواقع حله وترحاله ، لابد لي من أن أكون قد تشرفت بمشاركته رحلة عمره ومسيرة أيامه ولكنى لم أكن كذلك» .

«وهكذا أدركت أننى خسرت فرصة العمر ، بقصورى عن الكتابة عنه وفرطت فى صفقة العقل بعجزى عن النظر فيه وأضعت متعة النفس حيث لم أؤرخ له» .

لاتحسبوا أنى مبهورة بعالم محمود شاكر ظنا منكم أنه العالم الوحيد الذى وصلت نفسى به لا فقد كتبت قبل ذلك مذكرات «شاهدة ربع قرن» الذى يشهد بأننى تجولت فى عوالم وتوثقت بعلماء وقمم كثر قبله .. وأقولها صادقة ليتنى بدأت بعالمه فلاشك أنه كان يجعلنى أكثر دقة وفطنة وأقل ثرثرة .

وأعود فأقول إننى وبعد توالى الزيارة عرفت أن وداعته الأولى معى كانت من باب حسن الاستقبال والضيافة العربية ، أما بعد أن أصبحت من الحاضرين الدائمين لمجلس الجمعة فقد توقفت على ما يتباين مع وداعته الأولى : ذلك أننى يوم ناقشته فى العدد الممتاز من المقتطف الذى كتبه عن المتنبى ، وند علي لسانى ذلك التعبير التلقائى المتسائل عن صعوبة أسلوبه ، ولماذا لايخفف منه حتى يكون قراؤه أكثر ؟ «أين تضع نفسك من الله تعالى وآياته مكية ومدنية وفقا لعقلية كلا البلدين» ثم سخريته غير الآبهة من كلامى .. كان بمثابة أول معول يهدم السد

الوهمى الذى كان قد حجزنى عنه طوال سنين شغفى بالتعرف إليه فانهار هذا السد وهدرت أمواجه العالية فى مواجهة أمواجى الاستفزازية دون برازخ تساوى بين علو أمواجه .. وعدم قدرتى التحكم فى إرادتى ، مما نتج عنه دوامات كثيرة .. وصادفته جنادل ثقيلة .

لقد جعل منى هذا الحوار الطائر .. إنسانة مشاكسة لمحمود شاكر، ذلك إننى وجدته أولا يسخر من كلامنا حول أغلب القضايا المطروحة علي صفحات مجلاتنا وجرائدنا، يهدم أمامى شخصيات أجلها .. لا يأبه بطريقة انشغالنا بالقضايا السياسية والاجتماعية .. فاذا تفوه أحدنا مثلا بأن محمد علي باشا وضع مصر على أول سلمات العصر الحديث قال بل إن الأستعمار هو الذى رفعه لهدم الدولة العثمانية، ثم إنه من هذا العلو سيسهل لهم إسقاطه إلى القاع .. وإذا قلنا أننا علي أهبة الدخول الي القرن الواحد والعشرين ، رد : بأننا حملنا الي القرن الواحد والعشرين فأين إسهاماتنا فيه .. مما جعلنى أحاور نفسى .. إن هذا الرجل لايعجبه شىء فى حياة مصر .. ثم إنى كنت كبهلولة عبر مكابرتى الفكرية المحدودة ازاء تصديق أن كل ماغيرته وما أنجزته مصر على أرضها سياسيا واجتماعيا قد تم بدون حركة أصيلة وعريقة علي الجبهة الفكرية منذ أكثر من قرن ونصف ، ولا أظن أنها قد انتهت الي هذا «السيرك» أوما يصفها به محمود شاكر من أنه نصب وفهلوه .

لقد كنت عندما أسمع كل هذه الآراء ـ وقت ذاك ـ أروح فى غيبوبة مدوخة تعيدنى انديا ح حلقاتها ، إلى مشارف فكرته عن نفسه يوم خرج للعالم ، من أنه التفاحة وسط البصل ، وهو وإن كان قالها فى سن

مبكرة بعد مغادرته الجامعة ثم فقدها واستنكرها من بعد، لأن إمكانات البصلة تؤهلها أن تقلب معادلته .. وأروح أتساءل هل مثل هذه الخبرات القوية لاتموت، وهل يمكن أن يكون لها تأثير ودلالات في جميع مراحل ترقي صاحبها، لا أظن دليلي على ذلك قوله على كتاباته عن العالم السوري راتب النفاخ ، من أنه تلميذه ثم صار أستاذه أو ذكره لمراجعة الدكتور محمود علي مكي له في إحدى جزئيات ملحق المقتطف عن المتنبي . وإثباتها عندما ظهرت كتابا .. بل إنه عندما استشهد عاي انحراف العقلية العربية الآن اتكأ علي كتاب التفكير العلمي «للدكتور فؤاد زكريا ووصفه بأنه كتاب جيد رغم تباين اتجاهاتهما . إنه قرع نفسه بعد قراءته لكتاب «تاريخ الدعوة إلي اللغة العامية» تأليف الدكتورة نفوسة زكريا سعيد .. لأنها وحدها تتبعت ماجرى في تاريخ هذه الدعوة بترتيب تاريخي متصل.

شيء آخر الجأني إلى مشاكسة الأستاذ محمود شاكر ألا وهو رفضه المتكرر للإجابة عن تساؤلاتي حول حياته وكتبه ، وما أثر عليه من محن وعواصف وأباءه الجواب ، وإن لم يكن موجها إليّ شخصيا أو بالذات ، وإنما موجه لكل من كتب عنه ، وقد ألمح الدكتور رشاد سالم عنه في مقدمة الكتاب الذي كرمه به تلامذته .. وأهدوه له بمناسبة بلوغه السبعين حيث كتب : «وقد حاولت لجنة التكريم الحصول على معلومات وافية منه شخصيا ، ولكنه امتنع عن ذلك ، لكراهته الحديث عن نفسه ، وقد شاهدت طرفا من ذلك أيام كان الأستاذ محمود إبراهيم الرضواني يعد رسالة الماجستير عن «أبي فهر محمود محمد شاكر بين الدرس

الأدبى والتحقيق» بكلية دار العلوم ، وظهرت كتب بعد ذلك عن دار الخانجى - ألا يضاعف كل ذلك من حيرتى فى الكتابة عنه ذاته .. إننى أتخيله فى مجلسه .. كما وصف الشيخ الخولى مالك بن أنس فى مجلسه ..

يأبى الجواب فلا يراجع هيبة

والسائلون نواكس الأذقان

أدب الوقار ، وعجز سلطان التقى

فهو المهيب وليس ذا سلطان

ولقد شكوت إلى أصدقائه وتلامذته وعائلته هذا الصمت وكان لكل منهم مبرر لذلك، فأصدقاؤه قالوا : «يجب أن تعلمى أن رفضه الإجابة .. ترجع إلى أنه الأرض التى نبتت فيها كل خبراتك التى قضيت فيها عمرك هى الفنون أو القانون ثم تلقيطاتك المختلفة فى مجال التاريخ والأدب العربى ، وهى أرض ربما شكلت نفسها على ثبت معين لا تتحمل الشرح الدقيق والطويل على إجابة أسئلتك والتى تحتاج إلى مراجع كثيرة .

وقال تلامذته : «إنه يخاف أن تكون إجابته عابرة ، ولأنه يعرف أنك تكتبين عنه دائما ، وربما نشرت هذا الرأى العابر ، فإن من يقرأ لك سيتصور أن هذا العابر ، هو كل الحصيلة .. أما أبناء شقيقه «الشيخ على محمد شاكر» عبد الرحمن ، وزهير ، وعلى ، فقد قالوا لى عليك بسؤالنا نحن أولا .. وإذا غمض عليك شىء مما نقوله .. فاسأليه بشكل

غير مباشر فهو لا يحب الاستعراض والفرجة بل يخافهما ويرهبهما .. وربما كانت تلك المشاعر هى التى حالت بين الكثيرين من أقطاب الإعلام وبين تحقيق مطلبهم في أن يظهر فى أجهزة الاعلام من إذاعة : مرئية ومسموعة ، وصحافة .. فأنت مثلا شاهدت بأم عينك كيف يحمل الأستاذ محمود شاكر كل حب للأستاذ أحمد فراج . ومع ذلك راوغه كثيراً فى أن يظهر فى برنامجه «نور على نور» ونفس الشيء حدث مع الأستاذ فاروق شوشة . كما شاهدت العدد الهائل من الصحفيين الذين رفض أن يحاورهم .

قلت : لكنى سمعت أنه سجل حواراً للمذيعة اللامعة آمال فهمى وكانت قد كلفت بتسجيله الأستاذ أحمد فراج ، قال : لو عرفت وقت تسجيله لعلمت الأسباب التى أقنع بها الأستاذ أحمد فراج عمى .. أن آمال كانت أنذاك موقوفة عن العمل فى الإذاعة المصرية . وكانت تسجل البرنامج للإذاعة العربية ، لذلك ساعدهم عمى كما ساعد كثيرا من الصحفيين العرب إذا كان حديثه لهم هو السبب الأصلى لزيارتهم مصر.

امتثلت سريعا لطلب أولاد أخيه .. لأن جملتهم الأخيرة دلتنى على اللحظة التى لن يرفض فيها محمود شاكر إجابة أسئلتى .. ألا وهى تحين فرصة زيارة أحبائه العرب له – لا سيما عرب الجزيرة ، حيث يصفو مزاجه ويكون أسخى فى العطاء وهو وسطهم .. وبغتة إنهمرت ذكرياتى عن وجوده فى هذا الركن التليد من البلاد العربية .

فقد تذكرت أنه عندما زار الكويت فى وجودى بها .. دعته الجمعية

الأدبية هناك مرة .. كما دعاه الدكتور مرزوق الغنيم عميد كلية التربية وكان عندما يلبى هذه الدعوات يرفض الصعود إلى منبر المحاضر ، بل يجلس ويتحلقه من اجتمع .. فيسأله هذا وهذا فيجيب عفويا .

سأل سائل فى هذه الجلسات : «عن أن من مخلفات هذه الأمة أن الأدب العربى بكل محتوياته يقيم منذ أكثر من خمسين عاما ليس من داخله أى من جوهره ، إنما يقيم على ضوء ما يكتب الغرباء عنه ، وهذا أخطر ما تمر به الثقافة العربية».

فأجاب : «جئت إلى هذه الجلسة دون أن أحضر لموضوع معين أتحدث فيه ، ولكن لا بأس من مناقشة هذا الموضوع ، ففى البداية يجب أن تعلم أن الذى بين أيدينا ليس تراثنا ، والحقيقة التى ينبغى أن يعرفها الكثيرون أن الثقافة كل متكامل ، فالثقافة العربية الإسلامية كانت كلا متكاملا حتى أواخر القرن السادس عشر ، وكان ينبغى أن تظل هذه الثقافة بجميع أجزائها متكاملة ومحاورة للآخرين، وأن يكون جوهر المعرفة نابعا من داخلها .

ولكن ما حدث خلاف ذلك وهو أننا مع الأسف انهزمنا وانفصلنا انفصالا متتابعا عن الثقافة المتكاملة، وجاءنا شىء جديد تعلمناه ، من البعثات الدراسية فى بلاد ثقافات أخرى حجبت عنا ثقافتنا المتكاملة فوقعنا فى مأزقنا هذا .

والحقيقة تتمثل فى أننا بحاجة لثقافة متكاملة نستطيع من خلالها محاورة الآخرين ، وأعنى بالثقافة المتكاملة ، كل شىء من شهادة لا إله

إلا الله إلى الحروب التى استمرت ثلاثة عشر قرنا ، وما فى أنفسنا الآن شيء نابع من ثقافة الآخرين ، والمتعلمون منا لم يبذلوا حتى الآن أى جهد لاستعادة ثقافتهم الماضية ، والقضية الصعبة الأخرى هى صعوبة رسم تصور واضح للعملية وأن نكون بعدها محاورين . لأننا إلى الآن نقف بموقف المتلقين فقط.

لذلك فإن قضية الأصالة وإثارتها شيء لا معنى له ، لأنه يجب أن يكون كل شيء أصيلا، وأن يكون التجديد من داخل الثقافة ذاتها، وبعد أن تتجدد من ذاتها تقوم بمحاورة الثقافات الأخرى ، وذلك على أيدى أفراد تشبعوا بثقافتهم المتكاملة، لكن الواقع الآن يقول إن الأغلبية الساحقة ، ما هى إلا متلقية من الخارج ، فمحاورته لثقافته تشبه إلى حد كبير محاورة المستشرق لثقافتنا والسبب أنه يحاورها بمعلومات «الخارج» فهو غير مستوعب فى الأساس لثقافته العربية الإسلامية .

سأله آخر عن تاريخ الأمة العربية والإسلامية الآن وهو ملىء بالاهانات والآهات مع أنه كان فى السابق مليئا بالإنتصارات فما هو طريق الخلاص من هذا الواقع فى رأيك ؟

يجيب قائلا : هذا سؤال سياسى ، وليس عندى بشكل محدد إجابة لكيفية الخلاص ، لكن أعتقد أن فى حياة الأمم وحضارتها مجموعة من الأسس يفترض وجودها لكى تنهض بدورها الحضارى ومن أهم هذه الأسس اللغة ، فهذه الأمة أنزل عليها كتاب هو «القرآن» وعلى هذا الأصل أى القرآن قامت حضارتنا الإسلامية والقرآن جاء تحديا باللغة، فبدون هذا الأصل لا يمكن أن يكون هناك خلاص.

تعجب إذ ترى أمة ثائرة على الإستعمار ، تتمثل أوائل ثورتها فى

إزالة اللافتات المكتوبة بلغات أجنبية على بعض المحلات في شوارعها ، ينتهى بها الحال إلى أن يصبح أرقى التعليم فى أعين ذوى الوجاهة والسلطة فيها .. هو المدارس الأجنبية، التى يطلق عليها اسم مدارس اللغات .. أين التحرر من الإستعمار إذن فى ظل تلك التبعية العقلية الصارخة ؟

يحدث عندنا ذلك وأكثر فأنت عندما تسير فى أى شـــــارع الآن .. لا تجد بين ألف اسم لمحل تجارة اسم عربى .. بينما العدو «المتفوق» الذى أنزل الهزيمة بنا ، يحرص على تأصيل ذاته فى الأرض المغتصبة ، وانبعاث لغة وثقافة بادت منذ قرون وأقرب مثال لها الآن حرصه على تسمية ما نسميه بالضفة الغربية لنهر الأردن «يهوذا والسامرة»، يعلم أبناءه باللغة التى استحياها من كل الآداب وكل فنون العصر على السواء ، لمزيد من احيائها .. لدينا على سبيل المثال دعوة من نقيب الأطباء فى مصر لترجمة علوم الطب العربية وتدريسه بها .. هل استجاب لها أحد؟

وبعد فقدان الأصالة يأتى فقدان الجدية : كيف يتأتى لأمة أن تبنى صناعتها – وهو أحد أهدافنا المعلنة .. بينما العلوم التى تقوم عليها تلك الصناعة مازالت تدرس عندنا لفئة محدودة بلغات أخرى ، هيهات أن نتقنها أو نبلغ فيها مبلغ أهلها ، ما لم ندخلها إلى لغتنا وتصبح جزءا من كياننا الثقافى ، وتكون النتيجة أن يصبح «الاستيراد» أسهل باستمرار من «الإنتاج» سواء فى السلاح أو غيرها مما نحتاج وتنشأ عندنا «طبقة جديدة» كل همها أن تطارد الواردات الأجنبية فى كل شىء، فيما يفيد وما لا يفيد .. وما هو ضرورى وغير ضرورى ، بل ضار فى أحيانا كثيرة.

ولأن أراؤه تدل علي فساد الثقافة العربية .. وجرى المثقفين وراء الثقافة الغربية فقد سأله السائل التالى : «ما هو السبيل للخلاص من الثقافة الأوربية».

فقال : « ان التصدى أو السبيل للخلاص سهل وذلك بعد أن نستوعب ثقافتنا ولكن بشكل متكامل ، بعد ذلك نصبح جاهزين لمحاورة أية ثقافة ، فالخطر أن تغزوك هذه الثقافة وأنت فى الأساس لا علاقة لك بثقافتك . والآن نحن في أزمة «إننا لا نملك ثقافة» فمن غير المعقول أن تكون هناك ثقافة وأن تكون معها أزمة لو كان لنا حتى ثقافة ناقصة .. فالنقص ليس مشكلة ، إنها قضية سهلة يمكن إكمالها واتمامها، فكلمة ثقافة أضحت كلمة غير محددة المعاني ، مجوفة بدون معنى ، فيجب أن تعى أولا أننا نملك الثقافة أولا .

ليس لنا طريق إلا البداية من اللغة ، يجب أن يشعر كل واحد منا أنه ليس موجودا إلا باللغة .

أن نظام التعليم الدنلوبى الذى وضعه الإنجليز فى مصر ، وعندما نجحوا فى طمس هويتنا عمموه فى بقية البلاد العربية .. وحدث ما نراه الآن من تفريغ تلامذتنا من كل شيء يمت لأصولنا .

وأنا لا أنفي أن بعضنا مازال يحب اللغة العربية ، لكن الواجب أن تكون من شيمتنا عشق اللغة والمحافظة عليها ، وأعتقد أن هذه مهمة المثقفين والمدرسين والباحثين وأن بدء العمل من هذه النقطة، فلابد أننا سننجح وأعتقد أنها مسألة بحاجة إلى جهد شاق .. أو جهاد مجيد .. فاللغة ليست نحوا وصرفا وكلمات فقط ، فنحن بحاجة لاستيعاب جوهر اللغة وبواخلها .

ولما سألوه من أين نبدأ ،

قال : يجب أن نبدأ من أنفسنا وتوسيع دائرة الاحساس باللغة ، حتى ننقلها للآخرين فإصلاح نظام التعليم بحد ذاته ليس حلا ، فمن الممكن أن يصلح النظام التعليمي ، لكن المدرسين مثلا لا علاقة لهم بالاصلاح أو بحب اللغة والتى هي أساس العودة للثقافة المتكاملة ، فما الحل ؟

وقد سألوه وفقا لنظرته هذه ، هل الثقافة تمثل هوية ؟

قال لا شك في أن الثقافة تمثل هوية ، وما يجعلنا نفقد هويتنا الآن أن الجيل الحالى لا يريد اللغة العربية أساس ثقافتنا ، أنه يريد اللغات الأجنبية، والدين كذلك مقوم أساسى من مكونات هويتنا الثقافية ، فعلى مر العصور وفى كل الحضارات كان الدين جذرا للحضارات ، لذلك نحن نقول أن الثقافة العربية هوية للعرب والمسلمين معا واعتقد أن سبب استلابنا الثقافى الحالى أننا لا نعد القرآن ولا الحديث على أنهما مكونان من مكونات ثقافتنا .

وكان لى دور فى أننى فتحت جزءاً من الأبواب لننهل من ثقافة الماضى من ماضينا الحضارى ، وقد أخذ منى هذا العمل عمرى كله، وقد ساهمت فى ذلك من خلال أننى علمت أبناء لى وشبعتهم بهذه الثقافة وهم موجودون فى أماكن عديدة من العالم العربى والإسلامى ، ولكنهم للآن لم يبذلوا شيئا يذكر ، فعملية بذل الجهد وفتح الأبواب للماضى الحضارى مسألة معروضة على الكل . فيجب أن نلبى هذه الدعوة .

الفصل السابع
سرد تاريخى

نشأته - ومشاركته
فى الحياة السياسية فى مصر

أما وقد وقفت طريقنا خصيصة كره محمود شاكر الكلام عن نفسه ونحن في سبيل سبر أغوار سيرة حياته، فإننا سنذللها بخصيصة أخرى لديه، وهى أنه يودع في كتبه كثيرا من حياته ومعاناته ومحمود شاكر للعلم هو السابع فى ترتيبه بين إخوته.. «أحمد وعلى ، وصفية ومحمد ، وفاطمة وحسن ، ومحمود ، وعزيزة» «ولكن حسن توفى صغيراً وقد سجل الشيخ محمد شاكر ميلاد ابنه محمود على جزء من الفتوحات المكية هكذا . المولود السابع :

بحمد الله ولد لكاتبه شيخ علماء الاسكندرية مولود فى مدينة الأسكندرية بمنزل حافظ باشا فى الساعة السادسة العربية والثانية عشر الأفرنجية من ليلة الاثنين عاشر المحرم وهى ليلة عاشوراء غرة

١٣٢٧ وأول فبراير ١٩٠٩ وقد سميته ولقبته بهذين الاسمين الكريمين محمود سعد الدين شاكر ، وجملها تاريخ مولده بعد الالف أما الألف فتكون في الجملة الآتية ولد عاشر المحرم ليلا نسأل الله أن ينبته نباتا حسنا .. محمد شاكر ..

وفي البداية نجد أننا لا نحيط من سنة ١٩٠٩ بما حدث لمحمود شاكر في طفولته إلى دخوله أول مراحل التعليم إلا ما قاله لي أخوه محمد الذي يكبره من أنه كان لأخيه محمود مربية سودانية عصبية المزاج وكانت إذا غضبت من أحد أفراد الاسرة.. فإنها تصعد به حيث حجرتها فلا تدع أحدا يحمله أو يداعبه .. بل إنها كانت إذا انشغل الطاهي عن إرسال الغذاء لها .. فإنها تستنكف ان تطلبه .. وبدلا من ذلك تصطاد العصافير وتشويها وتطعمه إياها .. بل إنها جعلته يستسيغ أكل الحريف من توابل الطعام كالشطة وغيرها ، والتي لازمته طوال حياته ، فقد كان قبل أن يلم به المرض ليمضغ طعامه بها ولا يستلذه بغيرها .

وهذه الكلمات العفوية التي جاءت على لسان أخيه محمد .. حلت لي لغزا شغلني كثيرا أيام كان ابنه فهر طفلا صغيراً فقد كان كلما جاء أحدهم بلعبه كهدية لفهر.. فإن محمود شاكر الذي لم يعش طفولته كان يحجز هذه الدميه عنه ، خوفاً من أن يدمرها، بينما الحقيقة أن الأب كان يديرها خفية ويلعب بها مرات ومرات.. وأخيرا يسلمها لفهر بعد أن يعلمه طريقة تحريكها ، وربما يؤكد هذه المعلومة الطريفة ما جاء في

وصفه للويس عوض كرسول للمستشرقين الغربيين بقوله : «أرأيت إلى الدمية التي تدير مفتاحها لتملأها ، فإذا هى تحرك يديها وتمشى برجليها وتترنح أحيانا وتعتدل وتختال أحيانا وتستقيم ، وتبتسم حينا وتوشك أن تبكى حينا آخر وتفتح عينيها تارة وتغمض جفنيها تارة أخرى، ومحركها فى خلال ذلك ، لا يبالى ولا عليه أن يتدخل فى أعمالها لأنها قلما تخطىء فى عمل ..»

وإذا كان ابن خاله الاستاذ عبد السلام هارون.. أورد هذا الوصف فى كلمة تقديمه لمحمود شاكر إلى المجمع.. ثم علق عليه : و «لست ادرى كيف غفل القوم عن تلقيب محمود شاكر بأمير الكتابة الساخرة، وإن كان مستقبل التاريخ يضمر له هذا اللقب فيما يضمره .» فإن حقيقة أمر وصفه لهذه الدمية ليؤكد القول «وذو الشيب يلعب» بقدر ما يؤكد ما ذهبنا إليه من أن محمود شاكر عاش طفولته مع طفولة ابنه وليس قبلها ، لأن الوصف هنا وصف دمية حديثة فلا أعتقد أنه فى سن ١٩٠٩ وسنين بعدها.. لم تكن مثل هذه الدمى «الزنبركية» قد ظهرت، وأن عدم مداعبته وهو صغير قد تركت فى نفسه اثارا، بل إنى أتجاسر وأقول إن محمود شاكر مازال أخضر رطبا فى كثير من تصرفاته .. ولا شك فى أن هذه الخصيصة هى التى جعلته يكبر ولا يشيخ، وأثبت أن الفنان فيه يكاد يطاول منزلة العالم..على نحو وترك محمود شاكر لأعمال كثيرة له بغير تمام أو مقدمة .. كما ستعرف أسبابها بعد ذلك ..

ويصف محمود شاكر المولع بالكلمة حياته فى هذه السنوات بقوله : فمنذ بدأت أعقل بعض هذه الدنيا وأرى سوادها وبياضها بعين باصرة . شغلتنى الكلمة وتعلق قلبى بها ، لأنى أدركت أول ماأدركت أن الكلمة وحدها التى تنقل إلى الأشياء التى أراها بعينى وتنقل إلى أيضا بعض علائقها التى تربط بينها والتى لاأطيق أن أراها بعينى .. وكان هذا إدراكا مبهما، لا تستطيع طفولتى يومئذ أن تستبينها كل الأستبانة .. ولكنى لا أزال أذكر لمحا كالوميض يلوح ويختفى من عهد طفولتى ، إذ كنت اسمع من كان فى بيتنا حين يتحدثون بطلاقة وذلاقة لا يطيق مثلها إنسان غض قريب عهد بصمت الطفولة الطويلة ، وبعجزها المتلهف إلى الإبانه ونزاعها الدائب إلى محاكاة الكبار ..

فى هذه السنوات حدثت بمصر أحداث شتى.. كان أهمها.. حرب طرابلس ثم انعقاد مؤتمر للمسلمين فى القاهرة.. ردا على المؤتمر القبطى فى اسيوط، وانشاء الشيخ على يوسف لجمعية الهلال الأحمر سنة ١٩١١ .. ثم سقوط أدرنه وحرب أدرنه ..

فى ١٩١٢ صدر كتاب «تاريخ الدولة العلية العثمانية».. لمحمد فريد خليفة مصطفى كامل .. متفقا معه فى أن مصلحة مصر فى ذلك الوقت تدعو إلى مؤازرتها تركيا.. وهذه النزعة الإسلامية كانت واضحة فى كتاب ذلك العصر وقادته ومفكريه .. وتستطيع تتبعها فى شعر أحمد شوقى ..

وفى ١٩١٣ كانت الجمعية التشريعية قد تكونت وقد اختير الشيخ

محمد شاكر عضوا فيها - ممثلا للتعليم الديني عام ١٩١٣.. كما رشح سعد زغلول نفسه لدائرتين في العاصمة، أما في سنة ١٩١٤ فقد أعلنت الحماية على مصر لأن بريطانيا دخلت الحرب العالمية الأولى فعزلوا الخديو عباس حلمي الثاني وولوا البرنس حسين كامل ، استقال الشيخ محمد شاكر من منصبه كوكيل للأزهر حتى ذلك يتفرغ للعمل السياسي، وقد بدأت المعارك الأدبية في مصر حيث هاجم منصور فهمي الإسلام ، كما أن تركيا حاولت دخول مصر بجيش عثماني وفشلت هذه المحاولة سنة ١٩١٥، وانحدر الشاعر حافظ ابراهيم من مناصبه الكثيرة إلى رئيس دار الكتب لتردده بين حب الانجليز وممالأة الخليفة كما وصل مكماهون .

في ذلك الحين وتلك الظروف التحق الطفل محمود شاكر بأول مراحل التعليم بمدرسة الوالده أم عباس سنة ١٩١٦ حين تقدمت إنجلترا بمشروع برونيت لمنح مصر استقلالا ذاتيا ولكن مصر رفضت هذا المشروع، بعدها أي في ١٩١٧ أثير موضوع أعمال السلطة الإنجليزية ، أو ما يعرف بالسخرة وظهور أغنية يا عزيز عيني أنا نفسي أروح بلدي وقد اجتاز محمود شاكر أول إمتحان في العربية وهو على شفا الرسوب لأنه كان يتلقاها مع علوم الاسلام في آخر الحصص بينما نجح بتفوق في الانجليزية حيث فتن بحروفها الغريبة النطق التي يتلقاها على الريق في أول حصة.. ولعل لهذه الحادثة أثراً في أن تكون أول ثورته على نظام التعليم الدنلوبي .

في عام ١٩١٨ تقدم الزعماء الثلاثة سعد زغلول وعبد العزيز فهمي وعلى شعراوى بمطلب الاستقلال للمعتمد البريطاني وهو ما سمي بعيد الجهاد الوطني يوم ٣ نوفمبر، ولما رفض هذا الطلب قامت ثورة ١٩١٩ ، في هذه الاثناء عرف محمود شاكر طريقه إلى ركوب المواصلات العامة لانتقاله إلى مدرسته القريبة التي تبعد عن منزله برحبة عابدين.. وفي هذه المدرسة اجاد الانجليزية حتى أنه راسل بها هيئة غربية كانت قد اعلنت في الصحف أن لديها طريقة غذاء مخصوص لكل شخص تجعل من يتبعها يتجاوز المائة عام ..

وعندما وصلت لجنة ملنر إلي مصر.. كان الخلاف قد وقع بين سعد زغلول وعدلي يكن حول رئاسة وفد المفاوضات .. وانشغل الشيخ محمد شاكر بهذا الخلاف كما عرفنا آنفا.. ورسب محمود شاكر في شهادة الإبتدائية وفي العربية بالذات ، فهل كان الشيخ محمد شاكر هو الذى كان يراجع معه العربية؟ ام أن جو البيت لم يكن ملائما فقد كتب محمود شاكر بعد ذلك عن هذا الوقت فقال : «وكان مما قدر الله أن أفتح عيني على ثورة ١٩١٩ وعلى دار تموج بالثوار فعقلت من الأمر ما عقلت ورأيت بعيني رجالا ، وسمعت بأذني آراء ورضيت بقلبي أو سخطت وأعانتني فطرتي بضرب من التمييز ، كان يرج نفسي رجا شديدا، وأنا بعد في غضارة الصبا. ولم أكد حتى انطلقت أجوب مجتمعا يفور بالمتناقضات ، يتشقق بالصراع المر في ميادين مختلفة من الدين إلى العلم إلى الأدب إلى الفن، إلى السياسة إلى السنن الموروثة ، فخضت زماني في اول نشأتي بنفس غضه مجرحة بالتجارب،

ومضت بى الأيام، واثخنتنى التجارب وهلك رجال ، ونشأ رجال ، فرأيت وسمعت، ورضيـــت وسخطت ، وعلمت من أسرار الصراع ما لم أكن أعلم ..

فاللحظة التاريخية التى كانت تمر بها مصر لم تنضج محمود شاكر وحده بل جعلت الشعب بكل طوائفه وأعماره ينغمسون فى السياسة ، فقد كان طلب الاستقلال والحرية هما من الأشياء الضرورية والملحة التى قامت من أجلها الثورة كما عبر أقرانه مثل نجيب محفوظ .

ولأن.. محمود شاكر كما لاحظنا سابقا من الناس الذين يرون فى مآسى حياتهم ميزانا ، فإننا نجد أن ثورة ١٩١٩ وإن جعلته يخوض محنة زمانه بنفس مجرحة إلا أنها كانت خيرا له فى تحصيله وعلمه إذ يقول : وكان من رحمة الله بى أن ادركتنى ثورة مصر سنة ١٩١٩. وأنا يومئذ فى السنة الثالثة ، فلما كانت السنة الرابعة سقطت فى إمتحان الشهادة الابتدائية ، ولا ملحق لها يومئذ وأعدت السنة على مضض لأنى كنت قويا كما كنا نقول فى الرياضة خاصة ، وفى سائر العلوم عامة، سوى العربية ، وصنع الله لى حين سقطت ، وأحسن بى إذ ملأ قلبى مللا من الدروس المعادة، واتسع الوقت، فصرت حرا اذهب حيث يذهب إخوتى الكبار إلى الازهر ، حيث أسمع خطب الثوار ، وأدخل رواق السنارية وغيره بلا حرج ، وفى هذا الوقت سمعت أول ماسمعت مطارحة الشعر، وأنا لا أدرى ما الشعر إلا قليلا . » .

وكتب الله لى الخير على يد أحد أبناء خالى، ممن كان يومئذ

مشتغلا بالأدب والشعر ، فأراد يوما أن يتخذني وسيلة إلى شيء يريده من عمته التي هي أمي رحمها الله ، فأبيت إلا أن يعطيني هذا الديوان الذي سمعتهم يقرأون شعره ويتناشدونه ، وقد كان فأعطاني ديوان المتنبي بشرح الشيخ اليازجي وكان مشكولا مضبوطا جيد الورق، فلم أكد أظفر به حتى جعلته وردي في ليلي وفي نهاري حتى حفظته يومئذ ، وكأن عينا دفينه في أعماق نفسي قد تفجرت من تحت أطباق الجمود الجاثم وطفقت أنغام الشعر العربي تتردد في جوانحي، وكأني لم أجهلها قط ، وعادت الكلمة العربية إلى مكانها من نفسي ، وإن لم أجدها زحزحت شيئا من الكلمة الإنجليزية التي غرسها «دنلوب» اللعين في غضارة أيامي ..» (١)

ومع عودة الكلمة العربية إلى مكانها في نفس محمود شاكر التي كانت سبب نجاحه في امتحان الابتدائية سنة ١٩٢١ اعتقل ونفي « سعد زغلول للمرة الثانية إلى جزيرة سيشل، ومنع الأنجليز التغني به فظهرت اغنيتا سيد درويش «قولوا لعين الشمس ما تحماشي .. و «يا بلح زغلول.. زغلول ياأحسن حبيب القلب صابح ماشي» رطب» ودخل محمود شاكر مدرسة الخديوية الثانوية بالقاهرة القسم العلمي ولكنه كما قال كان شغوفا بالشعر متيما بالأدب كلفا بالتاريخ ..

---

(١) أباطيل وأسمار صفحة ٥٥٧ - ٥٥٨ .

وفى هذه الأثناء بدأ يراسل الأديب الكبير مصطفى صادق الرافعى، بل إنه بعد اجتيازه السنة الأولى الثانوية، أخذ يتردد على الشيخ سيد ابن على المرصفى صاحب «رغبة الآمل» فحضر دروسه التى كان يلقيها بعد الظهر فى جامع السلطان برقوق، ثم قرأ عليه فى بيته «الكامل/ للمبرد» و«الحماسة/ لأبى تمام»، وشيئا من الأمالى/ للقالى» وبعض أشعار الهزليين».

ووسط هذه القراءات كان أثر الشيخ المرصفى عليه أثرا شديدا، فقد أثار اهتمامه وصرف قلبه كله إلى الشعر الجاهلى.

وهنا نتوقف للتأمل.. ليس لأن هذا الانصراف إلى الشعر الجاهلى، كان هو التحول الثانى فى حياته.. بعد التحول الأول الذى تم بحفظه لديوان المتنبى، بل لأنه سيختلف بعد ذلك حول أصالة الشعر الجاهلى مع أستاذه الدكتور طه حسين، مع العلم أن الدكتور طه قد تتلمذ فيه هو أيضا على الشيخ المرصفى قبل ذلك، فلم تم هذا الإختلاف وأستاذهما فيه واحد؟.

يجيب محمود شاكر على هذا السؤال بألمعية نادرة فى معرض رده على الدكتور عبدالعزيز دسوقى.. حين راجع قوله «إن الدكتور طه حسين لا بصر له بالشعر الجاهلى»، إذ حصر سبب ذلك فى طريقه تلقى كل منهما عن الشيخ المرصفى الذى كان حاله يختلف باختلاف المكان والسامعين، فهو عندما كان ينثر هذا الشعر للخاصة فى بيته، أى لمحمود شاكر وحده، فكان يقف على الكلمة، أو البيت وقفات يعيدها

ويرددها، يشير بيده وتبرق عيناه وتضيء معارف وجهه، ويهتز يمنة ويسرة، ويرفع قامته مادا ذراعيه ملوحا بهما يهم أن يطير، وترى شفتيه والكلمات تخرج من بينهما، تراه كأنه يجد للكلمات فى فمه من اللذة والنشوة والحلاوة، ما يفوق كل تصور.. كنت أنصت وأصغى وأنظر إليه لا يفارقه نظرى، ويأخذنى عند ذلك ما يأخذنى وأطيل النظر إليه كالمبهوت، لا تكاد عينى تطرف وصوته ينحدر فى أقصى أعماق نفسى كأنه وابل منهمر تستطير فى نواحيه شقائق برق يومض إيماضا سريعا خافتا ثاقبا ـ أيام لم يبق منها إلا هذه الذكرى الخافتة، فإذا كف عن الإنشاد والترنم أقبل يشرح ويبين ولكن شرحه وتبيينه لهذا هو الذى حركه كل هذا التحريك، كان دون ما أحسه وأفهمه، ويتغلغل فى أقاصى نفسى من هيئته وملامحه وهو يترنم بالشعر أو يردده كان دون ذلك بكثير، وكنت أحس أحيانا بالحيرة والحسرة تترقرق فى ألفاظه وهو يشرح ويبين كأنه كان هو أيضا يحس بأنه لم يبلغ مبلغا يرضاه فى الإبانة عن أسرار هذه الكلمات والأبيات».

ويردف محمود شاكر: «أما حالة الشيخ المرصفى وهو يلقى دروسه العامة، والتى كان يحضر أمثالها من قبلنا الدكتور طه حسين، فكان مختلفا كل الاختلاف، كان ملتزما بالجد والوقار يتخللها ذرو قليل من مزاح لاذع جارح أحيانا، ولكنه كان لا يقصر فى الإبانة والشرح، ولا فى التوقف عند الأبيات أو الكلمات الجياد الحسان المحكمة».

أى أن الذى أخذه الدكتور طه حسين من شرح الشيخ وصله عن

طريق الأذن فقط أما الذى وصل محمود شاكر فهو وليد السماع والمشاهدة والعيان، لا وليد الألفاظ والكلمات.

★ ★ ★

وفى ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ أصدر الإنجليز تصريحا يعلن استقلال مصر.. ولكن مصر رفضته، لأنه كان مكبلا بالشروط الأربعة المشهورة.. قطع الصلة بين مصر والسودان/ حماية الأقليات. حرية المرور فى قناة السويس.. ثم الامتيازات الأجنبية، طرحت الدعوة للجامعة العربية بما تحمله من ظلال فرنسية وإنجليزية وخلط بينهما وبين الجامعة الإسلامية.

أما فى عام ١٩٢٣ فقد أعلنت مصر الدستور، وكان للشيخ محمد شاكر دور بارز فيه، كما حضر إلى مصر الشيخ مصطفى صبرى فرارا من الكماليين قبيل استيلائهم على الأستانة.. وكان لقدوم هذا الشيخ إلى مصر دور وسبب فى تغيير فكرة المصريين عن كمال أتاتورك... وتغيير رأى الشيخ محمد شاكر بالتالى... مما جعله يكتب فى المقطم ما شعر به من خيبة الأمل فيما ظنه هو والمصريون فى كمال أتاتورك وكتابته مقالة «ما شأن الخلافة والحكم» ثم ظهر كتاب الشيخ على عبدالرازق «الإسلام وأصول الحكم».

فى عام ٢٤ تشكلت أول وزارة شعبية وفدية برئاسة سعد زغلول بعد عودته من المنفى وتصادف أن قتل السردار «لى ستاك» فى ٢٤ نوفمبر .... تلاها سنة ١٩٢٥ أنتخابات أحمد زيور أو بداية تزوير الأنتخابات

فى مصر... وفى هذا العام كان محمود شاكر قد نجح فى أمتحان البكالوريا من القسم العلمي.

فى سنة ١٩٢٦ اضطر الأحرار للتحالف مع الوفد للوقوف ضد أوتقراطية الملك فؤاد ـ فشكلا الوزارة الإئتلافية الأولى، وجاءت الدعوة لاجتماع البرلمان بفندق الكونتنينتال، ودخل محمود شاكر كلية التجارة جامعة فؤاد الأول «القاهرة الآن»، ثم تحول إلى كلية الآداب، بواسطة الدكتور طه حسين الذي أقنع الدكتور لطفى السيد بجدارته لهذا... وحفظه لكتاب الأغانى ولسان العرب... وقد توفيت والدة محمود شاكر فى هذه السنة بمنزلهم برحبة عابدين... حيث نشر أول قصيدة فى رثائها بمجلة الزهراء تحت عنوان «يوم تهطل الشجون» ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م.. ونذكر أن هذه السنة هى بداية بحثه عن منهجه التذوقى.

وفى ٢٣ أغسطس سنة ١٩٢٧ توفى سعد زغلول.. وبدأ الصراع فى حزب الوفد وكتب الطالب محمود شاكر سماعا مقالين عن محاضرتين كان قد ألقاهما أستاذه «كارلو الفونسو نلينو» فى الجامعة المصرية أولاهما عن رواد اليمين من الأوربيين وثانتيهما عن المشتغلين بدرس آثار اليمين... تلاهما بمقال عن «الناسخون الماسخون» بمجلة الزهراء أيضا.

فى عام ١٩٢٨... وكان فى السنة الثانية بالجامعة.. وبينما هو منغمر فى الكتابة عن إكمال ثلاثة خروم من كتاب التنبيه على أوهام أبى علىّ فى أماليه للبكرى «ثم» من الخط البغدادى منشدا قصيدته «النجم

الواتر والصبح الثائر»... يحتدم الخلاف ـ الذى عرف به بعد ذلك ـ بينه وبين أستاذه الدكتور طه حسين حول أصالة الشعر الجاهلى ـ يتلوه مقاطعته للجامعة، بل مغادرته لمصر كلها إلى جزيرة العرب ـ بعد نشره قصيدته «كلمة مودع» فى مجلة الزهراء، وقد وصف محمود شاكر فى أحد كتبه تدرج لقائه بزملائه فى الجامعة بعد أربعين سنة وصفا بليغا بمناسبة مواجهة الدكتور مندور له فى بعض ما كتبه عن لويس عوض.

«أربعون سنة» لقاء مفاجىء على غير ميعاد، غرباء جمعتهم الغربة على طريق. نظر بعضهم فى وجوه بعض من بعيد وقريب، ومر جسد قريبا من جسد، وتحية يلقيها أحدهم على بعضهم بلا بشاشة، ثم يمضى وكأنه لا يبالى، ثم يلتفت من بعيد ليجس هذا الجثمان المنتصب بنظرة فاحصة، ثم يعودون مرة أخرى فتلتقى الوجوه وتتقابل، وتتصافح النظرات بالطرف الخفى، ثم يعرض هذا ويمضى كل إمرىء لطيته فى أرض الصمت.. ثم يعودون مرة ثالثة، فتقبل الأشباح على الأشباح، فتمتد الأيدى، ولكنها باقية فى مكانها مسدلة لم تتحرك من موضعها، وتقبل الخطى ولكنها تتردد، فيذهب هذا يمينا ويذهب هذا شمالا، وتنطوى الأيام يوما بعد يوم... وسرعان ما تجلت عنهم هذه الغربة الراغبة المعرضة وسرعان ما تكشف الإعراض والإقبال عن صداقة بلا مطمع، وعن مودة صافية بلا كدر وإذا شباب تستفزه جهالة الصبى وغرارة الطباع، وألسنة «ثرثارة» لحداثة عهدها بالإبانة عما فى سر

قلوبها وعقولها، وغمرات من الفرح تخوضها بجرأة وبلا تردد، واختلاف واتفاق ورضى وغضب وصوت يعلو وصوت يهمس، وليل ينساب فى نهار، ونهار يشق سدول ليل، وآت منقض ينفى الملالة عن ماض منهزم، ورأى متجهم ينشق عن مرح ضاحك واندفاع إلى غاية كالسيل الجارف، وارتداد عنها كمثل لمحة البرق، ووقار باد تهزه من تحته خفة كامنة، وطيش طليق يكف من غلوائه أدب وحياء».

«يومئذ لقيت» محمد مندور «وسائر إخوانى وزملائى أول ما لقيتهم منذ أربعين سنة، فى حدائق قصر الزعفران، مقر الجامعة، وكلنا غر بادى الغرارة وكلنا دون العشرين، ومضت أيام، وتصرمت الشهور، ومحت سنة أختها، وبدأت معالم الطريق تبدو لخطانا من حيث لاندرى ولا نحس. ولكنى كنت أولهم إحساسا بطريقى، وأسرعهم إدراكا له، وأمضاهم عزيمة على قطعه، وكما التقينا جميعا فجأة فارقت إخوانى فجأة غير متلفت إلى وراء، وغبت عنهم جميعا غيبة طويلة، غير أخٍ واحد، قدر لى وله أن يؤنسنى فى بعض طريقى الجديد برسائله الطوال المتتابعة، هو محمود محمد الحضرى بقيت لنا فى كتاب القدر سنوات من الصحبة لم يكن قد حان بعد حين انقضاؤها، ولكنها انقضت هى أيضا بعد قليل بغتة ثم سرت فى الطريق الطويل الغامض غريبا، وحيدا، منفردا عن ركب الغرباء الأول كيف كان هذا، ولم كان؟ لا أدرى»

ربما كانت الجملة الأخيرة تشير إلى تركه لا الجامعة وحدها بل مصر كلها مهاجرا إلى الحجاز.

ولعل القارئ يتذكر أن الصديق الوحيد الذى كان يؤنس شاكر فى بعض طريقه الجديد برسائله كان هو نفسه صديقه الوحيد الذى سبقت الإشارة لوقوفه بجانبه يوم احتدام الخلاف بينه وبين طه حسين لأنه كان من قسم الفلسفة.

أما بعض طريقة محمود شاكر الجديدة ـ فى هذا الوقت ـ أنه وإن كان قد سخط على مدارس مصر لتدريسها وفق منهج دنلوب.. فإنه فى الحجاز لم يجد مدارس أصلا، فانشغل فى إنشاء مدرسة جدة الإبتدائية بناء على طلب الملك عبدالعزيز آل سعود.. ولم يكتب سطرا آنذاك وبدأت رسائل أصدقائه تحثه على العودة إلى مصر.

أخذت هذه الرسائل تتوغل فى نفس محمود شاكر إلى أن استقرت فى أعماقه، لاسيما أنها حملت له نبأ غروب شمس حياة أخته الصغرى صفية عقب نفاث الوضع ولم تتجاوز الثلاثين، فسماع أنباء الموت للمغترب شديدة الوطأة، حيث يهيىء له أنه لولا مغادرته لما حدث ماحدث، ومع أن الأعمار بيد الله إلا أن محمود شاكر رأى أن من واجبه تلبية رجاء العودة.. فحزم حقائبه على عجل وغادر الحجاز إلى مصر.. فوجد شعبها يمور بأمواج سياسية هادرة.. حيث ارتطم الأحرار مع الوفد بشدة. مما اضطر السرايه حيالهما لإجراء انتخابات حرة عام ١٩٢٩ فاكتسحها الوفد، وبعد أن شكل النحاس الوزارة.. سافر ليفاوض هندرسون إلا أنهما تخالفا حول فصل السودان ووضع الإنجليز فى القناة، وبعد أن رفض النحاس بنود هذه المفاوضات عاد

إلى مصر فوجد أن إسماعيل صدقي ـ أحرار ـ قد قام بانقلاب ضده.. لكن النحاس رغم ذلك دعا إلى اجتماع برلماني وعندما اجتمعت الأغلبية ـ وهي وفدية ـ في مبني البرلمان وجدوا أن قاعة المجلس قد أغلقت بالسلاسل فلما حضر النحاس وكان من سلطته السيطرة على حرس البرلمان أمر بتحطيم السلاسل، وعقد الاجتماع ـ وكان رئيس المجلس ويصا واصف ـ بل وأعلن إلغاء دستور ١٩٢٣.

يهيىء لي أن محمود شاكر العائد لتوه من الحجاز وقف حائرا يتلفت ويتأسف على وضع مصر السياسي، وسرعان ماعرف الكبار من علماء العصر بعودة الثائر الشاب الذي صحت آراؤه في أقوال الدكتور طه حسين، فالتفوا حوله كشخص له كيان مستقل بعد أن كان في نظرهم ابن الشيخ محمد شاكر.. فتبين منهم الأستاذ خضر حسين، وأحمد زكي باشا، والشيخ إبراهيم أطفيش، ومحمد أمين الخانجي، كما تعرف في العام نفسه على الشاعر أحمد شوقي، وكان يلتقي به في الأماكن العامة ثم تزاورا في منزليهما، وعندما وقف محمود شاكر على حقيقة أن هؤلاء جميعا، ورغم صخب السياسة يواصلون الإنتاج، أمسك بالقلم فكتب مقالات لهذه الصحيفة وهذه المجلة.. كنشره بجريدة البلاغ عن «كتاب الأم» للشافعي.. ولكنه وجد نفسه غير قادر على المواصلة وسط هذا الفساد المنهجي المتخبط، ففضل العودة إلى تأصيل منهجه التذوقي فانغمر وذاب... حتى إنه ـ عندما أصدر الملك فؤاد أمرا بوقف الدورة البرلمانية.. أثر قولة العقاد الشهيرة: «إن الأمة على استعداد أن

تحطم أكبر رأس تمس الدستور»، وكان من نتيجة ذلك سجنه لمدة تسعة أشهر، خرج بعدها متوجها إلى ضريح سعد ليخطب فيقول: «إن الشهور التسعة التى سجن فيها ماهى إلا ميلاده الجديد» بعدها شكل النحاس الوزارة، ثم تحالف الوفد والأحرار ضد إسماعيل صدقى لإعادة الدستور.. وهتاف المتظاهرين فى الشوارع بسقوط الدكتاتور و ازاء هذا التخبط إنكب محمود شاكر فى البحث عن منهجه.

لقد نأى محمود شاكر بنفسه عن كلا الحزبين الجديدين، حيث كان تعاطفه مع الحزب الوطنى القديم وكانت هناك صلة بين والده والزعيم مصطفى كامل، كما كان شقيقه الشيخ على محمد شاكر عضوا عاملا بالحزب الوطنى فصحب شباب الحزب الوطنى واتصل برجاله، ومنهم حافظ رمضان، وعبدالرحمن الرافعى، وأحمد وفيق، والدكتور محجوب ثابت، والشيخ عبدالعزيز جاويش، وقد جاء فى طى حديثه صدفة «أنه فى هذا الوقت كان يتردد على جمعية الشبان المسيحيين وبعد سماع محاضرة بها مع ابن خاله عبدالسلام هارون، خرجا وقد انبثق فى حوارهما معا فكرة إنشاء جمعية مثلها للمسلمين، وقد أنشآها بالفعل مع أصدقائهما الكبار محب الدين الخطيب، وأحمد تيمور، والدكتور عبدالحميد سعيد.. ولكنه سرعان ما اختلف معهم محمود شاكر وذلك عندما وجد أن الجمعية حادت عن مبادئها التى سبق واتفقوا عليها

فقاطعهم.. وكتب بذلك مقالا كاستقالة نشرها فى مجلة الفتح رغم أن صاحبها هو محب الدين الخطيب الذى اختلف معه.

تعرف فى هذا الوقت على الأستاذ فؤاد صروف صاحب مجلة المقتطف.. الذى أمكنه أن يسلس قيادته أى «محمود شاكر» وإقناعه أن يستروح عن نفسه بكتابة شيء غير ماهو عاكف عليه ـ منهجه ـ فاستجاب وكتب عرضا لكتابى «أدب الجاحظ للسندوبى» و«الصاحب بن عياد» لخليل مردم.

وفى سنة ١٩٣٣ جرت أضخم معركة فكرية عن القومية العربية.. أثارها الدكتور طه حسين، حيث كتب فى جريدة كوكب الشرق «الوفدية» «إن المصريين خضعوا لضروب من البغض وألوان من العدوان جاءتهم من الفرس واليونان وجاءتهم من الترك والفرنسيين» وقد هبت عاصفة صاخبة عقب هذه العبارة استمرت ثلاثة أشهر، بل إن عدواها سرت فى جميع الأقطار العربية حيث قرروا مقاطعة كتب الدكتور طه حسين، وإحراق الذى لديهم منها.

وعندما انسحب صدقي من رئاسة الوزارة، شكل عبدالفتاح يحيى،

---

(١) «عندما نسجل إنتاج محمود شاكر من مؤلفات وتحقيقات فإننا نسجلها من كتاب «دراسات عربية وإسلامية» ، وهو كتاب أهدي لمحمود شاكر من تلامذته بمناسبة بلوغه السبعين.. حيث رصدوا في مقدمته مؤلفاته من صفحة ٢٠ إلي صفحة ٣٢ ... وفي صفحة ٣٠ منه نعرف أنه نشط سنة ١٩٣٣ فكتب اثني عشر مقالا للمقتطف بدأها بترجمة قصيدة «صانعة الدموع» وأنهاها بالكتابة عن وفاة أمير الشعراء أحمد شوقي.

الذى كان سكرتيرا لحزب صدقى، وزارة استمرت حتى عام ١٩٣٤، وكان أحمد حسين رئيسا لحزب مصر الفتاة قد طرح مشروع «القرش» وكان هذا العام من أخصب أعوام محمود شاكر انتاجا، حيث تولى إدارة تحرير مجلة «المختار» ريدزدايجست»، التى كان يصدرها صديقه فؤاد صروف، وقد استطاع خلال فترة عمله فيها أن يقدم مستوى الترجمة الصحفية لم يعرف من قبل، وأدخل عددا من المصطلحات الجديدة فى العربية للتعبير عن وسائل واختراعات حديثة من نوع الطائرة النفاثة، ومازال عدد من الصحفيين الحاليين يعتبرون عناوين المختار التى كان يصوغها نموذجا يحتذى فى هذا الباب، وكان عاما مليئا بالنشاط، فضبط وصحح وعلق على كتاب (فضل العطاء على العسر» لأبى هلال العسكرى.. كما كتب لأول مرة فى الرسالة عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، بل إنه قام بعرض ثلاثة وثلاثين كتابا (١)

---

(١) هى «حاضر العالم الإسلامى» لوثروب ستردارد، «ذكرى الشاعرين» لأحمد عبيد، «ماضى الحجاز وحاضره» لحسين محمد نصيف، «الوحى المحمدى» لمحمود رشيد رضا، «ملوك المسلمين المعاصرين ودولهم» لأمين محمد سعيد «ابن عبدربه وعنده» لجبرائيل سليمان جبور، «رحلة إلى بلاد المجد المفقود» لمصطفى فرج، «تنبيهات اليازجى على محيط البستانى» لسليم سمعون، «أنتم الشعراء» لأمين الريحانى، «تاريخ مصر الإسلامية» لإلياس الايوبى، «ألا والرحمن فى تفسير القرآن» محمد جواد البلاغى النجفى، «ابن خلدون، حياته وتراثه الفكرى» عبدالله عنان، «قلب جزيرة العرب» لفؤاد حمزة، «مفتاح كنوز السنة» فنسنك، «ملوك الطوائف لدورى» الينبوع، نظم أحمد زكى أبوشادى، «النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى» لزكى مبارك، «ديوان عبدالمطلب» «المقتطف» مرشد المعلم «لجون ادمز وترجمة محمد أحمد الغمراوى» مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام» لمحمد عبدالله عنان» العاملين لرنبدرنات «طاغور» «القارىء يناجى شاعره» لرتشرد لاغالين.

للمقتطف مع ترجمة قصائد، أو على الأصح إفراغها فى القالب العربى هى «صاحب المسحاة» لأودين» ورحمة الله عليها » لأوسكار وايلد و«الشباب والشيخوخة» لروبنسون جفرز .

على عكس كتابات شاكر التي كانت زخمة فى العام الفائت . كان انتاجه سنة ١٩٣٥ ضئيلا جداً ، حيث لم يكتب «للمقتطف » سوى مقالتين، وأخرى للمقطم . لأنه كان يضع اللمساتّ الأخيرة في منهجه التذوقى، مع صداقته للشاعر محمود حسن إسماعيل . ويحيى حقى ، وإن سبق قلمه فكتب أنه دخل بيت محمود شاكر عام ١٩٤٠ وأى ما كان التاريخ فقد سألت محمود شاكر عما ذكره الأستاذ يحيى حقى فى أعماله الكاملة أنه من خلال لقاءات كثيرة مستمرة ، وقراءتك لذخيرة ضخمة من كتب الإرث العربى استطعت أنت أن تكشف له عن روعة البيان وأسراره ، أو كما قال : إنك مكنته من سليقة العربية وأنك أجزته قال : ماذا تتخيلين عن هذه السنوات ؟ وهل كنا ننتهى من كتاب ونقبل على الآخر ؟ .. هذا عجيب .. لقد تخلل كل ذلك كثير من الحوارات ولعب النرد والورق ببراءة قبل أن ينقلب خيالك ، قلت له : الآن صدقت ما قاله الشيخ على الطنطاوى فى تليفزيون الكويت حيث أكد إنه تعرف عليك أيام زيارته لخاله محب الدين الخطيب .. وكنتما تلعبان كرة القدم ولكن أنت كنت تذهب لبيتك وتحقق ، حتى إن خاله أطلعه على جزء من كتاب «أدب الكاتبين» ، لابن قتيبة ، حققته أنت عام ١٩٢٦ ونشره لك فى دار الفتح فهز رأسه مؤكدا صحة الواقعة !

واقعة أخرى تشى بنبوغه المبكر توافق إعادة دستور ٢٣ عندما تكونت وزارة محمد توفيق نسيم ، ثم انتفاضه الطلبة بزعامة الطالب

عبدالحكيم الجراحى وهتاف الطلبة «رفعت القلم يا عبدالحكيم» . فى حين أن الدكتور طه حسين بدأ ينشر في جريدة الجهاد مقالات تسع رجع فيها عن أقواله في الشعر الجاهلى . بدأها بمقالة عنوانها : «أثناء قراءة الشعر القديم» ، وأدار الحديث بينه وبين صاحب له قال له وهو يحاوره : «إنكم لتشقون علينا حين تكلفوننا قراءة شعركم القديم هذا ، وتلحون علينا فيه ، وتعيبوننا بالإعراض عنه ، والتقصير فى درسه وحفظه وتذوقه لأنكم تنكرون الزمن إنكاراً وتلغونه إلغاءً ، وتحسبون أننا نعيش الآن فى القرن الأول قبل الهجرة أو بعدها .. ثم يتوالى نقده لهذا الصاحب طوال مقالاته التسعة ، بل علق بأن أمثال صاحبى هذا أخذوا يكثرون ، ويظهر أنهم سيكثرون كلما تقدمت الأيام .

وربما استراح محمود شاكر لعودة الدكتور طه إلى الحق فى مسألة الشعر الجاهلى . زد على ذلك أنه فى هذا العام أو قبله بقليل، كان الأستاذ فؤاد صروف ، قد كلفه أن يكتب كلمة مسهبة احياء لذكرى أبى الطيب المتنبى فى مرور ألف عام على وفاته ، وقد قال محمود شاكر أنه قد تلقى هذا التكليف متحمسا ، فقد كان ديوان المتنبى كما عرفنا هو أول ديوان حفظه عن ظهر قلب زد على ذلك أنه كان قد وصل إلى منهجه التذوقى وأراد أن يطبقه على ديوان المتنبى .

وقد صادف تشكيل وزارة وفدية ، ثم تشكيل الجبهة الوطنية برئاسة النحاس استعدادا لمفاوضات معاهدة سنة ١٩٣٦ . ظهر العدد الممتاز من مجلة المقتطف حيث صارت الكلمة المسهبة التي كلف محمود شاكر

بكتابتها صارت أول دراسة وافية عن المتنبى ، ألغى بها إلى حد كبير جميع المؤلفات التى سبقته عن المتنبى ، ويعتبر هذا العام عام شهرة محمود شاكر ... فقد أحدث هذا العدد الممتاز دويا لف هديره كل البلاد التى تنطق بالضاد ، جعلته يشعر بفترة من السعادة والارتياح . لأن هذا النجاح أثبت أن منهجه التذوقى - الذى لم يكن قد أبان عنه - قد نجح بنجاح أول ثماره .

وكأن محمود شاكر قد اعتبر المائة والسبعين صفحة التى احتلها بحثه هى نصيب المقتطف من وقته ، فلم يكتب لها شيئا غيره فى هذا العام ، حيث اتسعت خطواته خارجها إلى جريدة البلاغ ، ومجلة الرسالة ، فنشر فى الأولى أربع مقالات عن ترجمة القرآن الكريم فى صحيح البخارى ، وفى الكتب المنزلة . ونشر فى الرسالة أربع مقالات أخرى حول نبوة المتنبى ثلاث منها رد بها على الأستاذ سعيد الأفغانى والرابعة رد بها على الأستاذ عبدالمتعال للصعيدى .. مع ثلاث قصائد تدور حول معاناته للحب.. مما يعيدنا إلى الأبيات الستة أو «نفثة قديمة» التى استروحها استهلالا بكتابة بحث عنه «المتنبى» ، وكان شعاره الرئيسى لهذه القصائد وما تلاها «ديوان البغضاء» ، وربما جاء هذا الاسم الغريب من شاعر محب . لأن أول قصائده فيه كانت قصيدة «انتظرى بغضى» ثم قصيدتين «حيرة وعقوق» وقد تكون لنا مع محمود شاكر محبا وقفة مواتية .. إذ يستحسن الكلام بعد تمامها، ذلك أن فى السنوات المقبلة قصائد أخرى .

وما أن دخلت سنة ١٩٣٧ إلا ووجدنا محمود شاكر منكبا يقرأ فى

كتاب «مع المتنبي» الذي أصدره الدكتور طه حسين لأن من حق المتنبي عليه أن يقرأ كل ما كتب عنه . وهناك وقع نظره على أشياء وأشياء ، مما كتبه هو ذاته عن المتنبي فكتب عنها الرسالة اثنتي عشرة مقالة كانت الأولى في ٣ مارس والأخيرة في ١١ مايو ذلك أن الرسالة كانت تظهر ككل المجلات الأدبية أسبوعيا وليس شهريا أو فصليا كما هو الآن والسبب الذي دعا شاكر إلى التوقف عند هذا العدد ، أن صديقه الرافعي قد توفي فحزن عليه وانشغل به ، حيث عرض كتابه «وحي القلم» للمقتطف كما شيعه بقصيدة مرسلة نشرت في الرسالة » .

في عام ١٩٣٨ حدث انقسام بين صفوف الوفد وظهر السعديون بزعامة أحمد ماهر ومحمود فهمي النقراشي وعاد الدكتور طه حسين مرة أخرى إلى معارضة الجامعة العربية انتصارا للفرعونية ، وعندما هوجم بشدة نشر فصلا من كتابه «مستقبل الثقافة» حيث طرح رأيه بصورة أخرى ، وفي هذه الأثناء أخذ محمود شاكر امتياز مجلة العصور - العلمية ، العلمانية الاتجاه - التي كان يصدرها إسماعيل مظهر ليحولها إلى ثقافية أدبية فكتب في ضوء المنهج الجديد افتتاحية شهر نوفمبر ثم اتحفها بمقال - إلى جانب رئاسته - عن تهيئة الشرق لوراثة الحضارات والمدنيات في شهر ديسمبر . وكان قد كتب للرسالة خمس مقالات بعنوان «بين الرافعي والعقاد» كما رد على سيد قطب في هجومه على الرافعي .. وكذلك على علي طنطاوي، وفي سنة ١٩٣٩ عاد حزب الأحرار حيث شكل محمد محمود الوزارة ، وفي قاعة مجلس

النواب توفى حسن صبرى ، وهو يلقى كلمة فى اجتماع البرلمان ومن صدف الحياة أن يتوفى الشيخ محمد شاكر فى نفس السنة ، وفى بيت ابنه محمود ، وكان قد استقل بمنزل خاص وقرر أن يتولى مسئولية أبيه - فأحضر له ممرضة تشرف على تمريضه مع أخته عزيزة التى لم تكن قد تزوجت .

وقد توقفت مجلة العصور التى رأس تحريرها محمود شاكر .. بعد صدور عددين منها فى طباعة جميلة وإخراج مبهر ، ولما علم محمود شاكر أن الأستاذ الزيات غضب من إنشاء هذه المجلة كتب مقالا نشر في الرسالة بعنوان «من صاحب العصور إلى صاحب الرسالة» .

وكتب لمجلة الرسالة أيضا عن ذات النطاقين . ثم مقدمة حياة الرافعي التي تصدرت كتاب سعيد العريان الذى عمل مدة طويلة سكرتيرا للرافعي وبعدها تفاقمت أزمته المادية ، ربما بسبب وفاة والده .. وحرمانه مما كان يغدقه عليه . وهنا نذكر أنه كما قال الأستاذ فتحى رضوان عنه: «ولما بدأ حياته بهذه البداية ، التي ما كانت تليق إلا بشيخ، اضطرته كل وقائع حياته على ما يشبه هذه البداية ، ويليق بها . ولم يلق برجل أخذ على عاتقه أن يشن هذا الجهاد ويرفع أعلامه ، أن يكون موظفا يمد يده نهاية كل شهر إلى مرتب ينتظره ، وأن يكون للحكومة كلمة نافذة فى رزقه ومكانته ومكان عمله، فانقطع لعلمه وفكره ، ومكتبته وبحثه ودرسه ، وزملائه ، وتلاميذه ، كأنه الراهب المتعبد ، وقد كان المنتظر أن يكون فى مصر والبلاد العربية والإسلامية مئات بل آلاف

يتحررون تحرره وينقطعون للرسالة التى نذروا أنفسهم لها - انقطاعه ، ولكن للأسف المض ، لم يكن لمحمود شاكر أشباه وأنداد فكان نسيجه صدقا وحقا» .

في هذا الوقت أشار عليه أخوه الأكبر الشيخ أحمد شاكر أن يتجه إلى التحقيق .

كان عام ١٩٤١ أخصب إنتاج لمحمود شاكر على الإطلاق . فقد حقق وشرح وصحح كتابى «إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء» و«الأموال والحفدة والمتاع» لتقى الدين المقريزى ، وكتاب المكافأة وحسن العقبى» لأحمد بن يوسف بن الداية الكاتب .. بجانب قصيدتين فى الرسالة مع حوالى عشرين مقالة للرسالة بجانب توليه تحرير «باب الأدب فى أسبوع» زد على ذلك أنه كتب للمقتطف «علم معانى أسرار الحروف - سر من أسرار العربية» . وأحد عشر مقالا للدستور أبرزها «خطاب مفتوح إلى على ماهر باشا » فقد كان عام وزارة حسين سرى وعلى ماهر ، ولا تظن أن دخل محمود شاكر زاد وربا من الرسالة .. فقد كتب الأستاذ عباس خضر فى مذكراته بمجلة الدوحة القطرية أنه ومحمود شاكر لم يتقاضيا من الرسالة أجرا مقابل مقالاتهما .

فى سنة ١٩٤٢ هبط إنتاج محمود شاكر من مئات الصفحات إلى صفحة واحدة عن امتاع الأسماع ، نشرها فى الرسالة .

★★★

وعندما نتذكر سنة ١٩٤٢ يتداعى إلى الذهن فورا حادث ٤ فبراير،

وما تطور عنه من أحداث - اختلف تفسير مؤرخى الوفد مع غيرهم فى تبريرها - وتأكد لمحمود شاكر أن نظرته كانت ثاقبة حيال بعده عن الوفد والأحرار معا .. وفى هذا الوقت .. بدأ يكتب للرسالة سلسلة من المقالات تحت عنوان أيام حزينة من مذكرات عمر بن أبى ربيعه .. «الطريق إلى الحق» كما ترجم «ذكرى أم كلثوم» للشاعر التركى إبراهيم صبرى ، وخص المقتطف بتعليق عن «عبقرية عمر» للعقاد .

فى سنة ١٩٤٣ نشر قصيدته «تحت الأنقاض» فى مجلة الرسالة وواصل الكتابة عن عمر بن أبى ربيعة فى مقالتين «جريرة معاد» ، و«صديق إيلين» وخص المقتطف بثلاث مقالات عن ذى الرمة «ولما كانت إقالة وزارة الوفد سنة ١٩٤٤ متوازية مع ظهور دعوة عبدالعزيز باشا فهمى لكتابة العربية بالأحرف اللاتينية - تقليدا لكمال أتاتورك فى تركيا - كتب محمود شاكر للرسالة مقالاً هاجم فيها هذه الدعوة بعنوان «الحرف اللاتينى والعربية » بجانب مواصلته للكتابة عن عمر بن أبى ربيعه «كما كتب أخوه أحمد شاكر كتيباً صغيراً موجها لعبد العزيز باشا فهمى تحت عنوان «الشرع واللغة» .

وفى سنة ١٩٤٥ غاب محمود شاكر عن الساحة الأدبية ولم يكتب سطرا فقد أغتيل على ماهر باشا .. وهو شخص كان محمد شاكر يأمل أن ينصلح حاله وان ينصلح به الحال، وعاد محمود شاكر سنة ١٩٤٦ للكتابة فى الرسالة.. ولكنه لم يكتب إلا مقالة واحدة كل شهر كان أبرزها مقالتين «احذروا أيها العرب» ، « من استرعى الذئب ظلم» .

وفى هذا العام أنشأ المرحوم فتحى رضوان بالاشتراك مع نور الدين طراف وسعد كامل ما سمي بالحزب الوطنى الجديد ، تمييزا عن الحزب الوطني الذى كان قائما برئاسته محمد حافظ رمضان ، كما ظهرت مجلة الكاتب المصرى بتمويل يهودى ، وقد رأس تحرير هذه المجلة طه حسين .

سنة ١٩٤٧ بدأت مفاوضات صدقي - بيفن - وقد ضاعف شاكر من قوته فى الكتابة حيث كتب ستا وعشرين مقالة للرسالة أخذ أغلبها الطابع السياسي الوطنى مثل «لا تدابروا أيها الرجال» ، «إنه جهاد لا سياسة» ، «الخيانة العظمى» ، «الجلاء الأعظم » ، «نحن العرب » ، «الحكم العدل » ، «هى الحرية » ، «قضى الأمر» ، «أسد أفريقيا» ، «شعب واحد وقضية واحدة» .

وربما كانت نبرة شاكر السياسية الوطنية ١٩٤٧ م تعبيرا عما يعتمل فى نفسه من أحاسيس وطنية لايرى صداها المتوجب فيمن حوله .. فقد قامت بعدها حرب فلسطين فى عام ١٩٤٨ ودخل الجيش المصرى الحرب . حدث ماهو معروف «حصار الفالوجة» ثم أغتيل محمود فهمي النقراشى وشكل إبراهيم عبدالهادى الوزارة وبطش بجماعة الأخوان المسلمين . واستمرت نبرة محمود شاكر السياسية الوطنية عالية وفى الصميم تحت عناوين «ويحكم هبوا» «لا تملوا» ، «الفتنة الكبرى» ، ثم «لمن أكتب» .

وفى سنة ١٩٥٠ كان تعيين حسين سرى رئيسا للوزراء تمهيداً

لإجراء انتخابات جديدة ، وقد فاز الوفد فى هذه الانتخابات وذلك فى يناير ١٩٥٠ ولم يكتب محمود شاكر خلال هذه الفترة سوى مقالة واحدة للرسالة بعنوان «على حد منكب » . لحزنه على ما آلت إليه فلسطين .

وعندما أنشأ الأستاذ فتحى رضوان مجلة اللواء الجديد المعبرة عن مطامح الحزب الوطنى الجديد سنة ١٩٥١ ، انضم محمود شاكر إلى هيئة تحريرها فقد كانت الصداقة قد توطدت بينه وبين فتحى رضوان فى أوائل الأربعينات ، فكتب عدة مقالات سياسية «لاتنسوا» ، «عدوى وعدوكم» ، «أندية لا ناد واحد» ، «لاتخدعونا» «احذروا عدوكم» ، «فى خدمة الاستعمار» .. ولكن عندما نشر الأستاذ سيد قطب مقالات يهاجم فيها الدولة الأموية ، رد عليه محمود شاكر في جريدة «المسلمون» التى تصدرها جماعة الأخوان المسلمين التى ينتمى إليها سيد قطب بثلاث مقالات تحت عنوان «حكم بلا بينة» «تاريخ بلا إيمان » و «لاتسبوا أصحابى» .

وفى يوليو ١٩٥٢ اندلعت الثورة بزعامة جمال عبدالناصر ، وكان محمود شاكر من المتحمسين لها جدا .. وإن كان الحماس سيخفت كما سنرى بعد ذلك .

لذلك كله نجد أن محمود شاكر تألق فى أول هذا العام.. فقد واصل مراجعته للأستاذ سيد قطب فى جريدة «المسلمون» فكتب مقالته الشهيرة عن الدولة الأموية تحت عنوان «السنة المفترى عليها» وقد سبق

الإشارة إليها كما نشر قصيدته الشهيرة «إلقوس العذراء» فى مجلة الكتاب «ودخل معركة حولها مع كل من الأساتذة جمال مرسي بدر ومحمد سعيد المسلم نشرت فى «الكتاب» أيضا - كما حقق وشرح كتاب «طبقات فحول الشعراء» لمحمد بن سلام الجمحى لدار المعارف .

وما أن ألغت الثورة الأحزاب السياسية ، حتى وجدنا الفتور السياسي يدب فى أوصال المجتمع وانعكس هذا فى طابع مقالات محمود شاكر الأربع للرسالة حيث كتب يتساءل «فيم أكتب؟ » ، «وأبصر طريقك» ، «وياطل مشرق» إلى الكتابة نهائيا فى الصحف فكانت مقالته «غرارة ملقاة» حيث أغلقت الرسالة - وقد توقف معه عن الكتابة فى هذا الوقت الاستاذ نجيب محفوظ ، وهما للعلم متشابهان فى كثير من جوانب الحياة - كما خبرتهما معا- ولا سيما الجوانب المادية وعدم الحرص عليها فضلا عن الصبر والجلد على بلوغ الغايات مهما كانت الثقة والمشقة! .

وعندما أبعد محمد نجيب من رئاسة الجمهورية ، وذلك بعد ما سمى بأزمة مارس سنة ١٩٥٤ ، والتى تلاها اتفاقية الجلاء، ظهر الجزء الأول والثانى من تفسير الطبرى لدار المعارف أيضا . وتوالت الأجزاء الستة عشر ، وفقا لحركة المجتمع نشاطا وخمولا ، فظهر الجزء الثالث والرابع والخامس منه سنة ١٩٥٥م مع مؤتمر باندونج .. وظهور مبدأ الحياد الإيجابى وعدم الانحياز .

ومع ظهور الجزء السادس والسابع والثامن كان الاحتفال بجلاء

آخر جندى إنجليزى ، ومقاطعة مصر للإستيراد من الغرب ، ثم عقد صفقة الأسلحة التشيكية ، والاعتراف بالصين الشعبية ، ورفض الصندوق الدولى تمويل مشروع السد العالى ، وتأميم قناة السويس ، والعدوان الثلاثى على مصر - فشل العدوان - الانذار الروسى سنة ١٩٥٦ - النقطة الرابعة نظرية الفراغ - توازى مشروع ايزنهاور سنة ١٩٥٧ الخاص بنظرية شغل - إثر - خروج انجلترا وفرنسا من الشرق الأوسط ، ومحاولة أمريكا الحلول محلهما مع ظهور الجزء التاسع والعاشر ، والثانى عشر من الطبرى، كما أسس محمود شاكر فى نفس الوقت دار نشر «العروبة» مع زميليه: محمد رشاد سالم ، وإسماعيل عبيد .

وفى سنة ١٩٥٨ لم يظهر إلا الجزء الثالث عشر والرابع عشر من تفسير الطبرى . فقد توفى الشيخ : أحمد شاكر الذى كان يراجع أحاديثه .. فكتب عنه مقالا لمجلة «المجلة» ، التى كان يرأس تحريرها آنذاك صديقه يحيى حقى كما كتب «فصل فى إعجاز القرآن» كمقدمة لترجمة الدكتور عبدالصبور شاهين لكتاب» الظاهرة القرآنية» للمفكر الجزائرى مالك بن نبى .. وقد ظهر فى هذا الوقت الاتحاد القومى ، ثم تمت الوحدة بين مصر وسوريا . ثم تأييد عبدالناصر للثورة العراقية ١٩٥٩ ولقائدها عبدالكريم قاسم ، هذا الأمر الذى أشفق منه محمود شاكر على من لا يعرف قصة التمزيق الذى أحدثه الأستعمار فى كيان الأمة العربية والإسلامية ، منذ بدأ سلطانه عليها و ... و... ولما كانت

الأزمة مـع الاتحاد السوفيتى . وخلاف عبدالناصر مع خريشوف سببا فى القبض على الشيوعيين فى مصر . وقد سبقهم الإخوان المسلمون وأصبح الشارع المصرى يتهامس بما يدور فى المعتقلات والسجون من تجاوزات .. كان محمود شاكر فى حالة هلع فلا يخفى سخطه . واستنكاره ...وكان أن دخل السجن لأول مرة فى شهر فبراير إلى أكتوبر ١٩٥٩ ميلادية .. كما جاء على لسان الشيخ حسن الباقورى فى معرض تبرير استقالته من وزارة الأوقاف ... ولم يكتب بالطبع سطرا واحدا ولكنه عندما خرج من المعتقل ، كان المؤتمر القومى للقوى الشعبية قد ظهر للوجود ، وأخرج محمود شاكر الجزء الخامس عشر من الطبرى سنة ١٩٦٥ ، ثم السادس عشر، ولم تتم الأجزاء الأربعة عشر لخلافه مع دار المعارف وبعدها حدث انفصال سوريا عن الجمهورية العربية المتحدة وعاد اسم مصر لها سنة ١٩٦١ . ومع قيام الأتحاد الأشتراكى ١٩٦٢ ، قامت الثورة اليمنية . وصدر القسم الأول من «جمهرة نسب قريش وأخبارها ، للزبير بن بكار الذى شرحه وحققه محمود شاكر عن مكتبة دار العروبة ١٣٨١ هـ . الذى استنفد طاقة محمود شاكر حتى أنه لم يكتب سطرا فى سنة ١٩٦٣ كما حدث انقلاب ١٤ رمضان بالعراق .

ومع التفكير فى إنشاء التنظيم الطليعى وهو تنظيم سرى ينبع من الأتحاد الأشتراكى العربى سنة ١٩٦٤ ميلادية خرج الشيوعيون من المعتقل ، وزار مصر خريشوف .. قرب نهاية تنفيذ مشروع السد العالى

- وتحويل مجرى النيل - ظهرت قصيدة القوس العذراء لمحمود شاكر فى ديوان خاص ، وتزوج فى هذا العام ، وتسنى له مراجعة كتاب «شرح أشعار الهزليين» صنعة أبى سعيد الحسن بن الحسين السكرى - ثلاثة أجزاء - الذى حققه عبدالستار أحمد فراج - وماهى إلا شهور حتى نشر الدكتور لويس عوض عدة مقالات تحت عنوان «على هامش الغفران شئ من التاريخ» بجريدة الأهرام ، وذهب فيهما إلى تأثر المعرى بحديث الإسراء والمعراج ، كما ألمح إلى أثر الأساطير اليونانية وغيرها فى الحديث النبوى ، ووجد محمود شاكر أن تهافت هذا الكلام فرصة مواتية يعلم فيه هذا الجيل شيئا من تاريخ الدمار الذى ألحقه الاستعمار بأبنيتنا اللغوية والثقافية والتعليمية ..

وعندئذ فك أصفاده التى كانت تحجبه عن الكتابة للصحف، وكتب لمجلة الرسالة الجديدة خمسة وعشرين مقالة تناول فيها ماطرأ على العالم من حركة التبشير ، وما انطوت عليه هذه الحركة من أساليب ووسائل - كالمناداة بالكتابة بالعامية ، وغيرها . وقد طبع من هذه المقالات الجزء الأول من كتابه « أباطيل وأسمار» ثم ولد ابنه فهر .. وصار يلقب بعدها بأبى فهر .وإن كان هذا الاسم لم يتصدر هذا الكتاب لأن المجلد الثانى منه قد صودر ، حيث حدث ضد محمود شاكر تكتل من بعض شيعة الدكتور لويس عوض، كان من آثارها أن سيق محمود شاكر مرة أخرى إلى السجن ولبث فيه لثمانية عشر شهرا - حدثت خلالها أحداث من أبرزها تلبية الفيلسوف الفرنسى جان بول سارتر لآخر دعوات مصر له، التى لم يلبها من قبل فى مارس ١٩٦٧

ليقول رأيه فى القضية التى سميناها مشكلة الشرق الأوسط - كما أنتجت المصانع الحربية المصرية صاروخين شدت بهما أم كلثوم «بالعمل ويحب ناصر انطلق ظافر وقاهر» .. ثم لم يكن لهما أصداء فى الحرب بعد ذلك بشهور أى الطامة الكبرى أو هزيمة يونيو ١٩٦٧ فأفرج عن المعتقلين .

ويقول ابن أخيه عبدالرحمن أن عمه محمود شاكر قال له بعد خروجه من السجن ، أن نبأ الهزيمة قد أصابه بالدوار حينما بلغه فى السجن، حيث رأى أن الاستعمار يفعل بجمال عبدالناصر وحركته ، ما فعله من قبل بمحمد على وحركته ، احتواها من الداخل ، ثم دمرها لمزيد من تدمير الأمة ودفع أبنائها إلى اليأس من كل شئ .

نقطة نظام :

لاشك أن القارئ ظن أن سردى للأحداث السياسية الموازية لحياة شاكر ... كان لإبراز رد فعل الأولى على الثانية ، ومن ثم فقد افتقدها ، مما يؤكد صحة مراجعة الكتاب الإنسانيين للمؤرخين حتى يكفوا عن تشبيه الإنسان بالدولة ، لأنهما مختلفان، فالدولة قد تنقلب رأسا على عقب بين عشية وضحاها .. بينما يرتبط يوم الإنسان بأمسه مستشرفا غده .. محصنا من هذا الانقلاب . والعصور تتغير ولكن الإنسان واحد ، زد على ذلك أن الحدث السياسى لاتفهم حقيقته إلا بعد كشف أسبابه الخفية فنحن فى الخامس من يونيو ٦٧ ... كنا نظن أننا سنصلى المغرب فى تل أبيب .. وبعدها عرفنا النكسة .. والأحداث السياسية

التى اختلف مظهرها عن مخبرها كثيرة فى كتب التاريخ ، وهذه فرصة لأذكر القارىء أننى ما أتيت بهذا التوازى إلا لتعريف القراء ما لا يعرفونه عن محمود شاكر بما يعرفونه من الأحداث السياسية التى تعلمناها في المدارس ..

لذلك نجد أنه فى سنة ١٩٦٨ عندما أعلنت أحكام الطيران .. ووجد الطلبة أنها لا تتناسب مع فداحة النكسة قاموا بمظاهرات .. هتفوا فيها ضد عبد الناصر . نجد شاكر ينشر فى مجلة العربى عن «قرى عربية» ومع بداية حرب الاستنزاف وإغراق المدمرة إيلات .. وقيام النميرى بإنقلاب فى السودان ١٩٦٩ ، لم يكتب محمود شاكر شيئا لا سيما وقد ولدت ابنته زلفى .

أما في سنة ١٩٦٩ فقد قرأ محمود شاكر مقالات كتبها الدكتور عبد الغفار مكاوى عن تأثر الشاعر الألمانى جوته بالأدب العربى ، وبناء القصيدة فيه من خلال قصيدة للشاعر الجاهلى الصعلوك «تأبط شرا» .. ترجمها الكاتب عن الألمانية .. ووقع فى ترجمته لها فى هفوات لا يقع فى مثلها من له أدنى علم بالعربية ولكن يحيى حقى .. لسذاجته أو هكذا يقول محمود شاكر .. أعجب بهذه القصيدة بل اهتز لها .. ودعا إلى النظر إليها بعين هذا الأعجمى ، والإعجاب بها ، والتعظيم ، كما كان من جوته ، فكتب شاكر سبع مقالات يراجع بها الناشر والمترجم والمترجم له واستمرت شهور أبريل ، سبتمبر ، نوفمبر ، مارس ١٩٧٠

تحت عنوان «نمط صعب .. نمط مخيف» توغل فيهما في دروب أدبية ولغوية متشعبة .

ومع آخر المقالات .. حاصر الملك حسين الفلسطينيين فيما سمي «بأيلول الأسود» وعقد عبد الناصر مؤتمر قمة طارئ لبحث هذه المشكلة ، ثم توفي أثر توديعه لآخر عضو فيه .. وتولى أنور السادات الحكم وهو شخصية محبوبة لدى الأستاذ محمود شاكر .. ومن الصدف السعيدة بالنسبة لي دخولي بيت محمود شاكر هذا العام . وكثيرا ما أسأل نفسي عن أهم ما حزته من مكاسب معرفية وإنسانية منذ دخلت البيت الشاكري فأجدها تجل عن الوصف والحصر ، أذكر منه الأكثر وهجا .. ألا وهو مواكبة آثار معاناته وهو ليسمق ليطول منهجه التذوقي .. موشحة بجوانب أصيلة من نفسه ذاته، ماثلا أمام عيني على هوامش مكتبته المدروزة بالكتب ، كما وصفها الأستاذ يحيى حقي ، حيث أنني لم أستل كتابا من هذه المكتبة التي بها بعض بيته ، إلا وقرأت تعليقاته الجمة المتكاثرة تملأ الهوامش . وأغلبها ويا للعجب تصويبات لصاحب الكتاب ، ومن الأغرب أيضا أنه يصوب الفهرس ، حتى إذا كان المؤلف قد جاء بحكم ، ولم يبرره أو يوثقه أو يعنعنه ، فإنه يقوم بهذه المهمة تصحيحا للتاريخ ومصداقية والعلم حتى ينتفع به طلابه الذين يقصدونه تباعا ! .

ورغم أن الأستاذ شاكر كان يمنعني من تسجيل هذه الهوامش

والاكتفاء بقراءتها فحسب فإنني استطعت تسجيل بعضها خلسة ، أذكر منها على سبيل المثال ، ما جاء في هامش كتاب «على السفود» الذي كتبه الرافعي في نقد العقاد وشعره سنة ١٩٢٦ . فعندما أنشد العقاد قصيدة في «محمد بن صديقه المازني» وعزوز «ابن أخت العقاد»:

وأيما أحلى وكن عادلا   فأنت من يقضي على بكره
ذر الثنايا في عقيق اللثى   أم فمه الفارغ من دره

كتب الرافعي مراجعا العقاد : اللثى جمع لثة في لغة العقاد وحده يعني في جهله وعاميته ، وإنما تجمع على لثات لا غير ، وهي مغرز الأسنان سميت كذلك لأن لحم الأسنان ليث بها أي دار بها ، ولو جمعت على «لثى» بالقصر لكان المغرز لثاه أو لثوه ، وهذا كله يصلح في لغة العقاد وحدها .

فما كان من شاكر .. إلا أن كتب في الهامش : هذا تهجم ، وظلم لرجل مكلوم ، فإنها تجمع على لثى وليثين .

وفي هامش آخر من نفس الكتاب ، كتب الأستاذ الرافعي مراجعا العقاد في بيتين في وصف رجل أحدب :

قصرت أخادعه «وغاب» قذاله .. كـأنه متـرقب أن يصفعا
وكأنه قد ذاق أول صفعة .. وأحس ثانيـا لها فتجمعا

فكتب عنه الرافعي : فكأنه متربص أن يصفعا «من العامية» التي

لا ينقلها إلا عامي مثل العقاد ، لأن التربص يا عقاد الجرائد لا يكون إلا فى الانتظار الطويل الذى لابد فيه من مكث وتلبث ، وبهذه الكلمة يفسد الوصف .. ويرجع هراء ، وهل إذا قصرت الأخادع وهى كناية عن قصر الرقبة يطول القفا ؟ أم ذلك الأحدب قد استعار قفا العقاد .. فانخسفت رقبته .. ومع ذلك طال قذاله : معجزة لجبار الذهن .

فكان تعليق محمود شاكر على هذا المقطع هكذا .. وضع خط أحمر تحت كلمة من العامية التى لا ينقلها إلا عامى ، ثم كتب فى الهامش . أوردها الشهابى الخفاجى فى رحابة الأحياء «منسوبين» لعبد الله بن النطاح» صفحة ٢٢٠ ، وأوردها «أبو السلط» وفى رسالة «أبو محمد عبد الله بن النطاح، الكاتب معاهد التنصيص صفحة ٢٢٨ ، وأوردهما «الشهابى» أيضا فى طراز المجالس صفحة ١٧٤ ونسبها «لأحمد بن جّهور الأشبيلى» وخرافة الأدب صفحة ٢٢٠ ، ورواها «أبو السلط» فى الرسالة المصرية ، و«نوادر المخطوطات» لأبى محمد بن الصوفى الحنبلى» .

هذا طرف من هوامش كتيب واحد لم يكتب مؤلفه «١» اسمه عليه .. وهو أستاذه الذى أخلص له حيا وميتا .. ورغم ذلك لم يتمالك محمود شاكر من شدة جبلته على الموضوعية والحق والحياد العلمى أن يسجلها على الكتاب يوم صدوره . وهى دفاع عن

---

(١) رمز الرافعي بدلا من اسمه بـ «بقلم إمام من أئمة العلم» .

العقاد «١» الذى كان يظن فى هذا الوقت أن شاكر هو ظهير الرافعى ضده .

ومما يؤكد لنا شدة محمود شاكر فى الحق والإنصاف ، وتطلبه الدقة فى التعبير والتحرى عن أصل اللفظ .. فاللغة والثقافة أن خلافه لم يكن موجها إلى الدكاترة طه حسين ، ولويس عوض ، وعبد الغفار مكاوى ، لأسباب مذهبية أو حزازات شخصية .. فها نحن نراه ثابتا على نهجه عند مواجهة أستاذه وحبيبه الرافعى الذى طالما آزره وتوسم أن يكون خليفته ، كذلك نجده يستدرك على أخيه العلامة أحمد شاكر فى بعض تخريجاته فى مسند أحمد وبعض الآثار التى أخرجها فى تفسير الطبرى .. كما لا ننسى استدراكاته على الأولين من علماء الأمة القدماء ، وإذا كان من المهاترة أن نحاول إثبات تكامل شطرى المنهج عند شيخ العربية أى تملكه للغة والثقافة العربية – فإن الهوامش والاستدراكات السابقة أثبتت لنا .. ونحن لسنا فى حاجة لهذا الإثبات – على إمتلاك محمود شاكر للركن الثالث .. وهو البعد عن الهوى أو الأصل الأخلاقى الذى قال عنه فى تذوقه إنه الداء المبير ، والشر

---

(١) نقد العقاد الرافعي في كتابه (الديوان) الذي اشترك في تأليفه مع الأستاذ إبراهيم المازني ، وكان نقد العقاد تحت عنوان «ما هذا يا أبا عمر ؟ ثم نقده أيضا في جريدة البلاغ في كلامه عن إعجاز القرآن ، ونشر هذا النقد في كتابه «ساعات بين الكتب» ، «تحت عنوان» كلمة في المعجزة وكلمة أخري في الكتاب» .

المستطير والفساد الأكبر ، إن هو ألم بأى عمل إلمامة خفية الدبيب بل الوطء المتثاقل أحاله إلى عمل كريه ، حتى لو جاء فى أحسن ثيابه وحليه وعطوره - كما سنرى عند عرضه .

وإذا كنا قد أبرزنا ملاحظاته عن كتيب صغير ، فذلك راجع إلى أن هوامشه على كتب إرثنا العربى شىء مهول حيث الهوامش والتعليقات تزيد على الكتاب نفسه ، ومثل هذا لا يحتاج كالكتاب الفائت إلى إشارات عابرة .. وإنما إلى رسالة جامعية كاملة لأنه يهتم فيها بكل شىء من المقدمة إلى الفهرس .. على نحو كتاب «معجم الشعراء» . «للإمام أبى عبيد الله محمد بن عمران المرزبانى «١» : الذى طبع معه كتاب «المؤتلف والمختلف» من أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم ، وبعض شعرهم «للإمام أبى القاسم الحسن بن بشر الآمدى «٢» .. ولأن هذا الكتاب أو الكتابين المضمومين قد بدأ بفهرس للتصويبات والاستدراكات بقلم المستشرق «الدكتور فكرنكو» فإن الأستاذ محمود شاكر راح يصوب هذه التصويبات والإستدراكات نفسها ، ويشير إلى المصادر التى كان يجب على الدكتور المصوب الرجوع إليها .

والكتاب فى ٥٥٣ صفحة لم تخل صفحة واحدة من التصويب والتعليق ، وبطريقته المعهودة يضع خطا أحمر تحت الكلمة المشكوك

(١) المتوفي سنة أربع وثمانين وثلاثمائة

(٢) المتوفي سنة سبعين وثلاثمائة .

فيها ، أو غير المؤيدة ، ثم يكتب على الهامش تصويبها من المراجع المختلفة بالصفحات والسطور ، أما إذا زادت التعليقات ولم يكف الهامش ، فإنه يكتب فى الفراغ الذى يعلو الصفحة أو فى ذيلها .

ولأن هذا الكتاب بالذات حوى كتابين - بعض الكتب تحوى ثلاثة - فإنه يعلق فى الفجوات .. أى عندما يكون السطر قصيرا فى نهاية جملة .

أما الكتب المصورة فهو يضمن تعليقاته فى أوراق منفصلة ، يضعها أمام الصفحة ، وهذا كله ، وإن أثبت ذاكرته القوية اللماحة وغزارة وتنوع ما قرأ .. فإنها تفسر سبب قلة كتبه التى لم تبلغ المائة كما يرى عند بعض العلماء .. ولعل طغيان هذه التعليقات والهوامش على أغلب كتبه تعيدنى دوما إلى رد «الأمام الليث بن سعد» - حيث تلاميذ محمود شاكر يشبهونه بهذا الفقيه - عندما سأله «محمد بن القاسم : امتع الله بك يا أبا الحارث ، إنا نسمع منك الحديث ليس فى كتبك ، فقال الليث : أوكل ما فى صدرى فى كتبى ؟ مع إبدال الصدر فقط عند الليث بالهوامش وقوة الذاكرة عند محمود شاكر .. والتى صورها د . محمود الطناحى حيث كتب : «خرج من بيت محمود شاكر رسائل كثيرة ، أكل بها أصحابها الأموال ، تسنموا بها الذرى ، وإذا حدثك أحد أنه استفاد من مكتبة الأستاذ محمود شاكر ، فلا تظن أنه استفاد من مكتبة كتلك التى فى دور الكتب . إن مكتبة الأستاذ زاخرة بالحواشى والتصحيحات

والإحالات ، وإنى لأعلم علم اليقين أن بعض دواوين الشعر القديمة التى أعيد تحقيقها قد قامت على تصحيحات الأستاذ وتعليقاته التى قيدها على الهامش ..» . ولا يزال الأستاذ .. حفظه الله .. مع علو سنه ، على صلة وثيقة بالقراءة والإفادة . أما الدكتور ناصر الدين الأسد ، فكان تعبيره عن هذه الزاوية فى شخصية محمود شاكر هكذا : «ليس مبلغ علمه هذه الذاكرة العجيبة التى دربها فلا تكاد تخذله ، لطول معايشته لأمهات المصادر ونوادرها من مطبوع ومخطوط ولا هذه الأشارات التى دأب على تقييدها فى هوامش الكتب فى خزانته العامرة بكل نفيس ، يربط الكتب بعضها ببعض حتى أنه ليفتح كتاباً فى قضية بعينها فنرى فى الهامش مواضع ردود هذه القضية فى الكتب الأخرى ، فأصبح بذلك كل كتاب من كتبه دليلا يقودنا إلى الكتب الأخرى ومرشدا يدل على غيره ، ثم تلك الفهارس التى عنى نفسه بصنعها الكثير من المصادر ذات الطبعات القديمة غير المفهرسة ، أو ينسخها بيده إذا لم يتيسر له اقتناؤها دونما كلل ولا فتور حتى أصبحت تيسر له المراجعة وتفتح أمامه مغاليق تلك المصادر ومستورها .

وأتذكر بالنسبة لهذه الذاكرة القوية أننى أيام تأليفى لكتابى «الانسان والطائر» ذكرت أمامه رأى المستشرق «جولد زيهر» .. أن اسم جمعية «إخوان الصفا» مستلهم من قصة الحمامة والطوق «فى كتاب كليلة ودمنة «للمقفع» حيث استخدم تعبير «إخوان الصفا» فى وصف

جماعة الكائنات المتآلفة من أجل هدف واحد . والتى يقوم نظامها الداخلى على إعلاء قيمة الغَيرية .

وما إن سمع الأستاذ محمود شاكر ذلك منى .. حتى انتفض ساخطا هذه الهرطقة : إن تعبير «اخوان الصفا» قد ورد كثيرا فى الشعر الجاهلى .. فأوس بن حجر مثلا أنشد قائلا :

لعمركَ ما أنسى طفيل بن مالك بنى عامر إذ ثابت الخيل تدعى

وودع إخوان الصفاء بِقُرزل يمر كمـريخ الوليد المفـزع

و قال عمر بن شأس الأسدى وهو جاهلى أيضا

تذكرت إخوان الصفاء تيمموا .. فوارس سعد واستيد بهم جهلا

أما دعوة الحمامة المطوقة لصويحباتها بالتلاحم .. فيقول الشعر الجاهلى على لسان جران العود وهو شاعر من بنى نمير :

وذكرنى الصبا بعد التناهى حمامة أيكه تدعو الحماما

أسيلا خـده والجيد منه تقلد زينـة خلقت لزامـا

وظل الأستاذ محمود شاكر يأتى بالبيت الجاهلى تلو الآخر حتى أثبت بالفعل أن ابن المقفع هو الذى استلهم الاسم من الشعر الجاهلى وليس العكس كما يتصور بعض المستشرقين المتعجلين .

وستأتى المناسبة التى تعرفك لمَ يسخط الأستاذ محمود شاكر عندما يسمع قولا لمستشرق ولكن بعد أن أصف لك حالته الروحية وهو

يسمق ليطول منهجه التذوقى .. فقد وصف لى أخوه محمد الذى يكبره وبعفوية تامة .. أن أخاه محمود شاكر .. كان ينكب أياما وليالى على قراءة هذه الكتب - ويشير بيده نحو مكتبة أخيه «أكثر من عشر آلاف كتاب» - كان ينغمر فى القراءة لدرجة أنه لم يكن يسمع جلبة قدوم الأهل والأصدقاء إلى منزله ، ثم أردف ، بل إننا كنا نبيت بالأسبوع وهو لا يدرى بوجودنا ، وكان حتى لا يرانا ونحن نأكل معه .. لأن خاطره يكون شاردا عنا بما كان يقرأه قبل أن ندعوه مرارا وتكرارا ليقدم فيأكل .. ثم يتعجب من كان يراه فى هذه الأيام يحسب أنه أخانا الأكبر - مع أن العكس هو الصحيح - وذلك لأنه كان لا يتحسس شعر رأسه أو ذقنه ، ليعرف ؟ أنهما قد استرسلا وراء ظهره وإلى صدره .

والحق أن شاكرا هكذا إلى الآن إذا انغمر فى القراءة أو الكتابة ، فنحن فى هذه الأثناء نسير على أطراف أصابعنا .. ونتناول الحديث همسا .. فما يكون من أم فهر ، وفهر ، وزلفى إلا أن يطلبوا منا مبتسمين أن نتصرف على حريتنا فى السير أو الكلام . لأن الأستاذ محمود شاكر لن يحس بوجودنا حتى لو هللنا كما جمهور كرة القدم .

ومع ما أطلق عليه ثورة التصحيح سنة ١٩٧١ لم يكتب محمود شاكر شيئا وعندما طرد السادات الخبراء السوفيت ١٩٧٢ ثم حدثت مظاهرات الطلبة الثانية ، وانفصال بنجلاديش عن باكستان ، ثم الحرب بين باكستان والهند ، تشكلت وزارة مصرية برئاسة عزيز صدقى ..

سمح لمحمود شاكر فى ظلها بإصدار كتابه «أباطيل وأسمار» الذى أعتقل بسبب نشر جزء منه فى عهد جمال عبد الناصر .. بعد أن ضم إليه المقالات التى صودرت باغلاق الرسالة .. ثم أصدر الطبعة الثانية من ديوانه «القوس العذراء» كما كتب مقدمه لكتاب «دراسات لأسلوب القرآن الكريم» الذى ألفه الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة ثم صمت بعدها عام ١٩٧٣ م ليس هو وحده .. بل كل المصريين معه .. وذلك لمتابعة حرب التحرير ، حرب السادس من أكتوبر .. وكان محمود شاكر يلهج اعجابا على تأخى الرئيس السادات والملك فيصل ويعتبرهما البطلين الحقيقيين لمعركة الكرامة .

وعبر عن إكباره لهذه المعركة ، وكيف أعادت لنا ثقتنا بأنفسنا كعرب ومسلمين ؟ فقال «١» إن هذا العالم قد مضى عليه أكثر من قرن كامل وهو يموج بالحركة ويغلى بالفكر ، حتى تجمعت فى هذه السنوات الأخيرة دلائل كثيرة على أن هذا العالم لن يبدأ حتى يحتل مكانته التى يستحقها بثرائه العظيم ، وبمساحته المترامية الأطراف ، وبسكانه الذين يزيد عددهم على ثمانمائة مليون من البشر ، وبما أودع الله في أرضه من الذخائر والكنوز ، ما استغل منها وما لم يستغل – ولا يستطيع أحد أن يغمض عينه عن عالمنا هذا مرة أخرى ، بعد المعركة التى هزت قواعد العالم الآخر ، العالم المتفوق الذى كان يستغل غفلتنا

(١) محاضرة لمحمود شاكر ألقاها بعد عام واحد من حرب اكتوبر ، وذلك بجامعة الأمام محمد بن سعود الأسلامية في الرياض ونشرت بمجلة المجلة .

منذ أكثر من قرنين، استغلالاً لا شرف فيه ولا أمانة ولا رحمة ولا إنسانية ، ومع ذلك فواجبنا نحن اليوم أن نعلم علم اليقين أن هذه القوة التى فاجأت العالم وهزته هزا عنيفا، لم يكن مصدرها تفوقنا نحن بحضارتنا الموروثة، على هذا النوع الغريب من الحضارة، الممثلة فى القوى الحربية والصناعية والعلمية التى يمتلك زمامها العالم الذى نسميه عالم المستعمرين ، بل كل الذى حدث هو أننا استطعنا أن نستفيد فائدة جليلة من حركة الصراع بين القوى الكبرى فى عالم الاستعمار ، فاشترينا بأموالها السلاح المتفوق من إحدى القوتين العظمتين فى العالم ، لنواجه به سلاحاً متفوقا أيضا يستمده عدوانه من القوى الأخرى (١) ثم بلغنا درجة كاملة من حسن الاستعداد للمعركة ومن دقة التوقيت لساعة اللقاء هذه واحدة . أما الأخرى فهى أننا استطعنا أيضا بالجرأة والاتحاد أن نحبس عن عالم الاستعمار أهم مصدر من مصادر قوته وتفوقه، أو على الأصح ، أهم مصدر من المصادر التى يعتمد عليها تفوقه الحربى والصناعى ، وهو النفط (٢) ومنذ عهد غير بعيد حيث لم يكن فى قدرتنا أن نفعل هذا الذى فعلناه، ولا أغالى إذا قلت إنه كان يعد ضربا من الأحلام التى لا مكان لها فى

---

(١) الآن سنة ١٩٩٧ نشغل برفض إسرائيل وعدم توقيعها علي معاهدة نزع السلاح النووي .

(٢) كتب أ. محمد حسنين هيكل عن هذه اللفتة التي تناولها محمود شاكر حول سلاح البترول في مقاله بعنوان «هل في مصر مستقبل؟ وتكلم فيها عن العوامل الثلاثة التى قلبت حياتنا العربية رأسا على

عالم الحقيقة، ورب قائل يقول، وهو صادق فيما يقول : إننا لم نصل إلى شراء السلاح المتفوق ولم نبلغ القدرة على حبس النفط، إلا بجهود متواصلة طويلة الأجل ، فلابد أن ينتبه هذا العالم إلى خصائصه وخصائص عدونا .

وفى سنة ١٩٧٤ كانت نفس محمود شاكر مازالت متعلقة بالمعركة وما أسفر عنها من مباحثات فك الاشتباك مع إسرائيل.. فأعاد إخراج

عقب وأولها ، زلزال قيام دولة إسرائيل ، وثانيا زلزال الثورات والانقلابات التى هزت شعوب المنطقة وأحدثت فيها حالة من الفوران طوال الخمسينات والستينات من القرن العشرين .. ثم جاء الزلزال الثالث فى السبعينات وهو زلزال ثورات البترول وفوائضها ، وكانت هذه ثورة عربية فى نوعها وفى ظروفها ، فهى ثورة لم تنشأ نتيجة عمل وتراكم ، أى أنها ثورة لا تنبع من تاريخ حضارى أو تكثيف جهود مشرفة .

– وإنما جاءت مرة واحدة كما يحدث الأنفجار – أى أنها بعكس المقولة الأولى التى فسرت بها كلامى «جاءت نتيجة جغرافية – ثم إن حجمها كان خرافيا لم يتح من قبل لأكبر أمبراطوريات التاريخ ، وكانت مفاتيحها جميعا من البئر إلى السوق إلى أيدى الآخرين . وأما المالك الأصلى فقد كانت فى يده السيولة النقدية يستعملها كما يهوى .

– وهى تجربة مختلفة عن ثورات الأمم من قبل ، فقد كان الغنى فى المدن وفى يد الطبقة المتوسطة القائمة على استثمار الزراعة والصناعة ، وأما فى هذه الحالة المستجدة فقد كان الغنى فى الصحارى وفى يد القبائل ، ولعبت المصادفات الجغرافية دورا لا يقل غرابة ، فقد كانت وفرة الثروات حيث ندرة البشر .. و .. وعصر البترول وفوائض معناه أن الغنى والفقر بين الشعوب العربية عبث جغرافى لا علاقة له بالتاريخ .

كتابة «طبقات فحول الشعراء» الذى كان قد حققه وشرحه ١٩٥٢ ميلادية ورأى فى عام ١٩٧٤ ميلادية رأيا جديدا فعلى غلاف الطبعة الجديدة وجدنا محمود شاكر وقد أقلع عن كلمة تحقيق وكتب بدلا منها «قرأه وشرحه محمود شاكر». فى هذا العام لبى دعوة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.. وهناك ألقى أهم محاضراته .. كان قد ألقى قبل ذلك سلسلة من المحاضرات عن الشعر الجاهلى ستصدر فى كتاب بعنوان «قضية الشعر الجاهلى فى كتاب بن سلام الجمحى» - وكانت بعنوان «فى الطريق إلى حضارتنا» وهى بالطبع غير مقدمة الطبعة الثانية لكتابه عن المتنبى التى طبعتها دار الهلال ثلاث مرات فى كتاب منفصل.

وقد استهل هذه المحاضرة كما هى عادته فى جميع أعماله بحمد الله كثيرا ثم الصلاة والسلام على رسوله الكريم.. ثم قدم نبذة عن حياته الخصبة وعزلته وما فعلته به وباسمه ثم قال : «فلم يخطر ببالى قط أن يدعونى أحد لأنى منذ هجرت الكتابة فى المجلات والصحف، أكثر من عشرين عاما كنت قد وضعت اسمى فى صندوق مغلق، لا يعرف ما فيه إلا عدد قليل من قدماء القراء. أما الأجيال الحديثة، فهى تمر عليه بلا مبالاة، ثم لا تجد ما يحفزها على الكشف عما يحتويه هذا الصندوق المغلق، والكاتب إذا وضع قلمه صدىء القلم، وإذا حجب عن القراء ، نسى اسمه وانطمس رسمه، ودخل فى حيز الموتى، وإن كان يعد فى الأحياء ، فلما جاءتنى هذه الدعوة الكريمة ، تصدعت أسوار

العزلة التي اخترتها ورضيتها لنفسي واستردت لنفسي صورة أبدو فيها حياة بعد طول الرقاد، وحب الحياة شهوة خفية فى كل قلب، فإذا كان اللسان معبرا عن ظاهر الشكر لهذه الدعوة إلى الحياة فإن للباطن شكراً لا يكاد ينتهى».

أما المحاضرة نفسها «فى الطريق إلى حضارتنا» فهى محاضرة قيمة تناولت قضايا الاقتصاد والتسليح وما يدور فى العالم الإسلامى أو العالم الثالث من صراعات وما يحاك حوله من مؤامرات الدول الاستعمارية استيطانية وثقافية - لإدخال عناصر الفساد إلى عالمنا، ثم إن شراء السلاح، وحبس البترول وإن كان قد ساندنا مرة فإنه لن يسندنا على طول الحياة. ومن ثم فلابد أن يكون هدفنا هو صنع السلاح وتوجيه النفط توجيها إيجابياً.

وفى سنة ١٩٧٥ التى شهدت اتفاقية فصل القوات بين المصريين والإسرائيليين ثم الخلاف مع ليبيا .. لم يكتب محمود شاكر إلا مقالتين لمجلة الكاتب بناء على رغبة الشاعر صلاح عبد الصبور الذى عرفته عليه. الأولى بعنوان «وكانت الجامعة هى طه حسين»، والثانية بعنوان «مواقف» وكانت موجهة إلى الدكتور زكى نجيب محمود، بعدها أجرى عملية خطيرة فى عينه كتب له الشفاء منها ومع الأشتباك المصرى الليبى فى يوليو وأغسطس سنة ١٩٧٦ لم يكتب محمود شاكر فى ظلها إلا مقالا لجريدة الأهرام تحت عنوان «مع الشيطان الأخرس» أما مع زيارة السادات للقدس سنة ١٩٧٧ فقد صدرت الطبعة الثانية المزيدة لكتاب

المتنبي حيث أضاف إلى العدد الممتاز من المقتطف، قصة هذا الكتاب، ولمحة من فساد حياتنا الأدبية، ثم قضية المتنبى وهى مراجعة للدكتور طه الذى أصدر كتابه مع المتنبى بعد سنة واحدة من ظهور كتاب محمود شاكر المتنبى وهو فى أثنى عشرة مقالة نشرت فى صحيفة البلاغ بداية من فبراير ١٩٣٧، مع خمس مقالات بين محمود شاكر والأستاذ سعيد الأفغانى حول نبوة المتنبي.

وعلى إنه ما إن بدأ عام ١٩٧٨ .. إلا ووجد الدكتور عبد العزيز الدسوقى ينشر فى مجلة الثقافة عدد يناير مقالا عن «المتنبى بين محمود شاكر وطه حسين» يردفها فى شهر مارس بأخر عن «قضية التذوق الفنى بين شاكر وطه حسين» فما كان منه إلا وكتب ردا عليه فى ثلاث مقالات تحت عنوان «المتنبى ليتنى ما عرفته» سبتمبر، أكتوبر ، ديسمبر، رغم أنها كانت وقت معاهدة كامب دافيد سنة ١٩٧٣. وبعدها أوقف محمود شاكر قلمه للتأمل فلم يكتب سطرا واحدا، وفى سنة ١٩٨٠ أصدر كتابه «برنامج طبقات فحول الشعراء» وهو يتضمن الرد على نقد الدكتور علي جواد الطاهر لكتابه «طبقات فحول الشعراء».

وشهد عام ١٩٨١ اعتقالات سبتمبر المشهورة والتى شملت اعتقال العشرات والمئات من المعارضين للسادات على اختلاف مذاهبهم وبعدها.. اغتيل السادات وسط قواد الجيش فى مناسبة احتفالات أكتوبر.. وتولى حسنى مبارك الحكم، وفى عهده حصل شاكر على جائزة الدولة التقديرية عام ١٩٨٢،التى حقق فيها كتاب «تهذيب الآثار وتفصيل

الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأخبار» لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى حيث كتب على غلافه أيضا «قرأه وخرج أحاديثه» وضم السفر الأول منه «مسند على بن أبى طالب» ومسند عبد الله بن عباس» عن منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض . كما كتب «للإهرام» عن : «المستشرقون وقضية الشعر»، وللهلال «الفقيه الجليل ورموز التكنولوجيا» ولمجلة العربى «فساد حياتنا الأدبية بين السخف والخطأ والتضليل» بعدها سنة ١٩٨٣ لم يكتب أيضا.. ثم حصل على جائزة الملك فيصل العالمية عام ١٩٨٤م ولها قصة طريفة ومحزنة فى آن واحد لهذا الرجل العظيم.

فى حضرة الملك فهد

فعندما أبلغ محمود شاكر بحصوله على الجائزة عن كتابه المتنبى قر فى ذهنه طبعا - أنها النسخة المزيدة لأنها التى أُطلِقَ عليها كتاب - ولكنه بعد أن سافر إلى السعودية وقرأ براءة الجائزة التى شرفت به لإسهاماته القيمة فى مجال الدراسات التى تناولت الأدب العربى القديم ممثلة فى تأليفه كتابه المتنبى ١٩٣٦م.

عندئذ اسقط فى يد محمود شاكر .. فالعدد الممتاز من المقتطف عن «المتنبى» سنة ١٩٣٦ ليس كتابا .. ثم إن البراءة على هذا الشكل ألغت كل الزيادات، وهى شهادته على العصر ممثلة فى قصة الكتاب، ولمحة من فساد حياتنا الأدبية والمقالات الأثنتى عشرة والمعنونة بـ «بينى وبين طه حسين» .. فكيف يقبل جائزة تغفل لب حياته ؟ ماذا يفعل ؟ .

خيل لي وأنا أعرف محمود شاكر إذا مسه الضر.. فإنه لا يحجم ولا يداري ولا شك أن رفض الجائزة جاش في خياله .. ثم عاد وتحيروذلك أن رفض جائزة الملوك شيء مهول نظر في تلامذته - أساتذة الجامعة المعنيون في السعودية - حتى خيل له قولهم : لن نرفع رءوسنا بعد رفضك الجائزة - لقد خذلتنا ، هذا أنت وهذه إحدى غضباتك .

ولابد أن محمود شاكر نام على الجمر - الذي سار عليه في غضبته على الدكتور طه حسين وأتخيل أنه ختم صلاة الفجر فبرقت في ذهنه وشرقت فكرة ترضي السلطات ولا تغضب تلامذته، وتلفت نظر أهل الجائزة إلى أن بعض المشرفين على الجائزة من تلامذة طه حسين.. قفزوا على الزيادات كلها، بحجة أن جائزة فيصل كجائزة نوبل للسلام، يجب أن تخلو من المعارك.. وفساد الحياة الثقافية، مع أن فيصل كان بطلا لحرب أكتوبر، عندما أوقف ضخ البترول وتصديره للغرب، فكان النصر الذي أدى إلى السلم بعكس نوبل التي كانت جائزته للسلام تكفيرا عن ندمه لصنعه البارود الذي أشعل الحرب.

لقد ألهم بصيغة ، تعيي أو تعجز - من يجيئوا بعده بشبيه لها .. فبعد التحية لله تعالى .. ووصف حالة عجزه وسط جمع المحتفلين ، صارحهم : «ولم يبق عندي شيء يمكن أن أقوله لكم، سوى أني أجد حابسا يحبسني عن مفارقة هذا المقام الكريم بينكم .. وحابس في مكاني قصة محيرة لا أملك إلا أن أقصها عليكم .. وذلك أني تلقيت من الأمانة العامة للجائزة تهنئة بحيازتي إياها هذا العام ، عن كتابي

«المتنبى» والذى نشرته عام ١٩٧٦ ، ولا كتاب لى عن المتنبى سواه، فلما كان بعد حين، وقرأت نص قرار الأمانة العامة، أذهلني العجب ، فقد تبين لى كل التبين أن الجائزة ممنوحة لكاتب آخر غيرى، وكان من تصاريف الأقدار أن اسمه يواطىء اسمى، واسم كتابه الصادر عام ١٩٣٦ .. يواطىء «اسم كتابى الصادر عام ١٩٧٦».

عند هذه الجملة رج الحاضرون وعلى رأسهم الملك فهد. لهذا الخطأ أو تلك المعادلة المقلوبة فإذا بمحمود شاكر يتمادى مبينا عدم احتفائه بقرار اللجنة المشرفة على الجائزة .. يكمل لغزه .. عن غياب صاحب كتاب المتنبى ١٩٣٦ واحتمال ظهوره بعد تسلمه هو الجائزة وسط حفل مهيب.. فقال : « ولكن أخوف ما أخافه ، أن يئوب الكاتب القديم من غيبته، ويخرج على الأمانة العامة من سردابه متأبطا كتابه ، يطالبها بحقه في الجائزة، وهذا أمر مخوف على كل حال، ولكن ليست هذه قضيتى ، إنما قضية الأمانة العامة تقضى بها بما تشاء . أما أنا فهيهات أن يطالبني أحد بشيء بما كان من تهنئتي ودعوتى لتسلم جائزة هذا العام علانية. وأكبر من ذلك فمعي قرار يلغى كل قرار، هو تقديمى كتابى المتنبى إلى جلالة الملك فهد بن عبد العزيز، فتقبله بأكبر الفضل عليّ وعلى كتابى الذى لا كتاب لى عن المتنبى سواه، وهذا حسبى وحسب كتابى من شرف باذخ.

بعد ذلك قام الدكتور أحمد الضبيب .. وهو أحد أعضاء لجنة

الجائزة .. فقال أن لكل عبقرى مجازاته فى الكلام و .. و .. مما هدىء الحاضرين . وجعل الملك فهد يبتسم فى وداد وارتياح .

لكن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد فقد نشرت فى الصحف السعودية حوارات حول كلمة شاكر .. حيث شجبها الدكتور أحمد كمال زكى فلم يجد داعيا لهذه الكلمة مادام محمود شاكر قبل الجائزة .. ورد عليه الدكتور على أحمد السالوسة .. بأنها كانت متوجبة لعالم جليل قفزت براءة الجائزة فوق لب حياته وعندما سألت - بعد ذلك - الدكتور عبد القادر القط - وهو من أعضاء لجنة الترشيح لهذه الجائزة - عن سبب القفز فوق «لمحة عن فساد حياتنا الأدبية»، «بينى وبين طه حسين» .. وهل هو المسئول عن ذلك ..؟

رد : «بأنه كان فى أعضاء اللجنة عضو عراقى من تلامذة طه حسين المتشددين وكان يفكر فى حجب الجائزة عن محمود شاكر ، فاقترحت حل وسط إعطاء محمود شاكر الجائزة عن الملحق الخاص بالمتنبى سنة ١٩٣٦».

ولكى لا تعشو عيوننا من التحديق فى الأضواء التى انبعثت حول حصول محمود شاكر على جائزة فيصل العالمية .. وما فجرته كلمته المتألقة من حوارات تجذب البصر قليلا إلى الأحدا ث السياسية.. فنجد أن الأنفراج الدولى قد حدث عام ١٩٨٥ ميلادية وبعده تمت معاهدة هليسنكى بين أمريكا وروسيا ، تلتها عودة مصر للجامعة العربية العربية

فى ١٩٨٩ .. حيث توجه فى نهاية نفس العام محمود شاكر لأداء مناسك العمره .. شكرا لله على هذا التكريم الذى لحقه – فى نفس العام – حصوله على تكريم الدول له.. على وسام للفنون والعلوم من الطبقة الأولى عن أعماله التى خدمت القرآن الكريم والسنة الشريفة سلمها له الرئيس حسنى مبارك فى احتفال وزارة الأوقاف بالمولد النبوى .. حيث لم يصدر محمود شاكر طوال هذه الفترة غير «تهذيب الآثار» للطبرى ، و«دلائل الاعجاز».

شاكر باشا

هنا نستدرك الإشارة إلى مكون اجتماعى مهم فى شخصين محمود شاكر يتعلق بنفسه وانتمائه العائلى ، وأذكر، أنه فيما يخص تواريخ أسرة محمود شاكر من ميلاد أو وفاة، والتى يظن القارىء أن الأستاذ قد أمدنى ببعض المعلومات عنها.. وهو ما لم يحدث قط .. بل كل ما حدث هو أننى لاحظت أنه كلما تطرق الحديث بينه وبين أفراد عائلته حول تاريخ ميلاد فلان، من عائلته أو وفاته فإننى أجد الأستاذ محمود شاكر ينادى : فهر .. فهر أعطنى الجزء «كذا» من الفتوحات المكية ..، ثم يفض الغلاف ويقرأ شيئا ، ثم يغلقه .. ويعود للحديث مصوبا أو موافقا .. مما لفتنى إلى سر مكنون فى هذا الكتاب.

وعندما استفسرته عنه .. لم أجد إجابة من الأستاذ محمود شاكر – كعادته – وفى خلال إحدى سفرياته أطلعنى نجله الفاضل الدكتور فهر على أجزاء كتاب الفتوحات المكية فوجدت أن جده الشيخ محمد شاكر

قد اعتبر أن ميلاد أحد أبنائه فتحا مبينا عليه، فلجأ إلى كتابة ميلاد كل منهم على جزء من أجزاء الكتاب وقام الأستاذ محمود شاكر بعد أن استقل بمكتبته الخاصة ، بنقل كل ما كتبه والده على هذه الأجزاء فى نسخته الخاصة مضيفا إليها ما استجد بعد وفاة والده وذلك على النحو التالى :

«الفتوحات المكية .. مؤلف الكتاب هو الشيخ الأكبر ذو المجالس التى تبهر : محمد بن على بن محمد بن أحمد بن عبد الله الخاتمى ولد يوم الاثنين أو ليلة سابع عشر رمضان سنة ٥٦٠ هـ فى مرسية» وهى بضم الميم وسكون الراء وكسر السين .

● المولود الأول

اللهم لك الحمد والمنة

بعد فجر الجمعة التاسع عشر وغاية جمادى الآخر سنة ألف وثلاثمائة وتسعة من الهجرة النبوية وتاسع عشر يناير ١٨٩٢ م، ولد للعبد الفقير غلام فعلى بركة الله سميته بهذا الاسم «أحمد» شمس الأئمة أبو الأشبال وحمل اسمه تاريخ مولده وبالله التوفيق.

كاتبه محمد شاكر

نقلت هذا من خط والدى على نسخته

● توفى أخى الشيخ أحمد فى الساعة السادسة بعد فجر يوم السبت ٢٦ من ذى القعدة ١٣٧٧ هـ «سبع وسبعين وثلاثمائة بعد الألف

من الهجرة» ١٤ «من يونيه ١٩٥٨» ثمان وخمسين وتسعمائة بعد الألف، رحمه الله رحمة واسعة.

وكتبه أخوه

محمود محمد شاكر

● توفيت الوالدة رحمة الله عليها «أسماء هارون عبد الرازق» الساعة الواحدة والرابع بعد ظهر يوم الأحد الاثنين وعشرين خلت من شهر شعبان سنة ألف وثلاثمائة وأربع وأربعين» «٢٢ شعبان ١٣٤٤ الموافق ٧ مارس ١٩٢٦» بمنزلنا بشارع رحبة عابدين بالقاهرة.

وهكذا مع المولد الثاني والثالث و .. و .. و.. إلى المولد السابع.

محمد شاكر

نقلته أنا محمود من خط والدى على نسخته

وأذكر أننى عندما سألت عن سر مناداة أسرته له بالباشا ، وما إذا كان بسبب ميلاده بمنزل حافظ باشا أو لأنه كان أصغر أبناء الشيخ محمد شاكر ثم صار عميدها ، قالوا بل هو حاصل على الباشوية فعلا : فسألت كيف ؟ قالوا : لما كانت الصداقة قد توطدت بين الشيخ محمد شاكر وبين الخديو عباس حلمى الثانى وحدث أن زاره الخديوى مهنئا، وطلب رؤية المولود.. فأحضره، فسأل عن اسمه فقيل له «محمود سعد الدين شاكر» فحمله في صدره وهو يقول : بل هو محمود باشا شاكر .

ولا تحسبن أن إيرادى طريقة الشيخ محمد شاكر فى تسجيل تاريخ ميلاد أولاده على أجزاء كتاب الفتوحات المكية ، أو ذكرى للقصة التى عرفتها عن حصوله على الباشوية .. ولا حتى ميلاده فى بيت حافظ باشا .. إننى ألمح إلى فكرة «إليوت» عن النخبة أو الصفوة الاجتماعية التى تحمل على كاهلها مهمة الإبداع الفنى والفكرى والعلمى وتقوم فى الوقت نفسه بالحفاظ على التقاليد الثقافية الراقية.

لا لأن محمود شاكر رجل شعبى لا يحب فى مجلسه إثارة النزاعات الطبقية.. ولا يفرق فى معاملته بين وزير وخفير .. فقد ذكرت لكم أنه قد يجلس إلى مائدة طعامه عم أنور الحلاق الذى يتعهد شعره.. بل إننى عرفت كيف استنكف هذا الوضع يوما .. أحد من ضيوفه وهم ، الشيخ حسن الباقورى ، والأستاذان محمد فؤاد جلال وزير الشئون الاجتماعية أوائل الثورة والأستاذ حسين ذو الفقار صبرى .. الأخ الأكبر لعلى صبرى .. اللذان تحادثا معا تليفونيا فى شجب هذا الوضع . فلما بلغ الأستاذ محمود شاكر قال : هذا بيتى وهذا هو سلوكى.

كما أن ذكرى لمناصب والده من أمين الفتوى إلى وكيل الأزهر.. وأن أكبر أخوته العلامة المحدث أحمد شاكر، وأوسط أخوته على شاكر وكان شاعرا وعضوا بارزا فى الحزب الوطنى أو أن أولاد خاله هما المحققان الكبيران إبراهيم وعبد السلام هارون وأن وأن .

كان ذكرى لهؤلاء ليس اثباتا لحسبه ونسبه بقدر ما رسمت عبر هذا

الرصد مفردات ثقافته التى ألهمته مذهبه التذوقى.. والجو الذى يتنفسه صباح مساء و ..

تلك كانت مجمل الأحداث التى عاصرها محمود شاكر فى حياته وكتاباته ، وإن كنت لم أذكر أحداث الأعوام الأخيرة منذ عام ١٩٨٩ . فهى على كثرتها لم تزل راهنة عالقة بالأذهان، كحرب الخليج الأول «العراق وإيران» والثانية «العراق والكويت» ثم ظهور البروسترويكا ، تلاها حرب البوسنة ، ثم محاولة روسيا لاسترداد الشيشان وما إلى ذلك وخلالها انكب شاكر على القراءة ومتابعة الأحداث السياسية .

وأتساءل بعد ذلك هل جلوت جلونا صورة محمود شاكر للقارىء؟ هنا وتحضرنى فى هذا المقام من الحديث، تحذير «يونج» من التمادى والتوغل فى التنقيب عن حياة المبدع .. إذ يقول : إن كل مبدع فى الحقيقة شخصان تراه فى جانب إنسانا فردا فى حياته الشخصية وفى جانب آخر نجده مجهولا مجرد عملية خلق وابداع.

وأنا أخط مقولة «يونج» الآن – خطر لى أن أطبقها على ما كتبناه آنفا عن محمود شاكر ، فوجدنا أنه كان حتى سنة ١٩٣٥ ميلادية مجرد عملية خلق وإبداع وبحث وتنقيب عن منهجه حيث كان أول تطبيقه له على ديوان المتنبى ، ففى منعطف وعر من مراحل إبداعه لهذا الكتاب يقول محمود شاكر : مع جهد الصوم وقلق النوم وقلة الراحة ، وغوائل الحيرة – كان غراما وعذابا والعجب أن عزيمتى الكتابية كانت تزداد قوة وشراسة.

وهل ننسى أنه فى شبابه لم يقع فى حب جارية شقراء مثلا، فلم يحب سمراء بعدها ولو كانت على نور الشمس، كما ذكر ابن حزم ، مثلا – في طوق الحمامة .. بل وقع منذ أن كان ابن ثلاثة عشر عاما إلى أن بلغ السابعة والعشرين .وهى ضحا شمس حياته فى حب الشعر الجاهلى، بل إن نشوته بحبه فارت فجعلت تثبط همته عن الشعر الأموى والعباسى اللذين كان يحبهما قبلا :

وربما فسر ذلك سر غضبته على أستاذه طه حسين، لأنه شكك فى عرض حبيبته، أو على حد قول الدكتور شكرى عياد، عندما رأى ذراعا غليظا تزيحها عن مائدة الدرس لتسقط فى تيه العدم، فسافر إلى السعودية وربما تجسم الشعر الجاهلى فى الفتاة التي خطبها، .. ولكنها لم تكن كسفرته ليست خطبة من القلب.. حيث عاد إلى حبيبته الأولى الشعر الجاهلى يتملاه وكل الأوصاف التى وصف بها كيفية قراءته فى منهجه.

إننا بالطبع لا نعرف رأى علم النفس فى رجل أمضى ضحى حياته يغذى ذاكرته بينابيع علوم العربية من الجاهلية إلى الإسلام، ثم عصورها ودولها فسهل عليه بعد ذلك تذوق كتبها.. هل هو الرجل «الكمبيوتر» الذى لم تصافح عينه الدنيا إلا بعد أن ظهر المتنبى سنة ١٩٣٦ الذى أهداه السعادة جميعا.. وبدأنا نقرأ فى كتبه وكتب غيره عن تردده على ردهات المجلات والصحف .. ويرتاد السينما والمقاهى وقصائده الغزلية .. وآراءه فى المرأة وغيرها.

زد على ذلك أن الميزة المهمة فى منهجه التذوقى - الذى سنوضحه بعد ذلك - هذه الدقة جعلته .. ينجح فى إجادة أى عمل يخص العربية، فقد لاحظنا مثلا .. أنه لجأ إلى التحقيق للخروج فقط من أزمته المادية .. ومع ذلك جاءت تحقيقاته ذات منهج علمى مستقل ، معروف عنه ، ويحظى بالتقدير فى أوساط العلماء .. زد على ذلك أن تصفح كل أعماله بين التحقيق للإبداع حتى المقالات والقصائد .. تؤكد أنه رجل الرد فعل ولولا هذه الخصيصة لديه.. لصار يمتص ما فى الكتب ولا يسكبه فى كتاباته.

محمود شاكر والتراث

إن اهتمام محمود شاكر كان شديدا بالتراث .. لأنه يفيد المسلم فائدتين : الأولى .. معرفة تاريخ العلماء الذين مهدوا الطريق لنا ، وسلكوا دروبا مضنية ، واحتملوا عناء باهظا ، وأظهرونا على مداخل هذا التراث ، ومساربه ، حين قاموا على نشره وإذاعته .

وقد فطن محمود شاكر «١» من أول أمره إلى الأصول ، فكان اشتغاله بطبقات فحول الشعراء لابن سلام .. وكل تحقيقاته التى مرت علينا تقول لنا إن هذا الرجل نثرت أمامه العربية كلها ، فهو لم يشتغل بباب من العلم دون باب آخر ، فأنت تراه يقرأ ويفقه «المواقف» لعضد الدين الإيجى ، كما يقرأ ويفقه «كتاب سيبويه» و «تفسير الطبرى» و«أغانى أبى الفرج» ثم إن له من وراء ذلك كله ، من فقه أسرار اللغة ، مالم يقف عليه أحد ، قديما وحديثا ، أقول قولى هذا وأنا أعلم أن كثيرا من أصحاب المناهج والدراسة الموضوعية ، والنقد والبناء سوف يضرون إلى رءوسهم ويقولون «متعصب مبالغ» فأقول نعم ولكن بموضوعية .

أما الفائدة الثانية التى نفيدها من تاريخ نشر التراث فهى معرفة

---

(١) كلمة التراث : لفظة لا يحبها شاكر ويفضل عليها لفظ الإرث ..

فرق ما بين الطبعات ، فإن كثيرا من كتب التراث قد طبع أكثر من طبعة، وتتفاوت هذه الطبعات كمالا ونقصا ، صحة وسقما ، وعلى سبيل المثال فإن كتاب «طبقات فحول الشعراء» لابن سلام قد طبع عدة طبعات لا خير فيها ، وتعد أكملها جميعا طبعة شيخ العربية محمود شاكر .. لا سيما الطبعة التي رضي عنها .. متبرئا من الأولى التي لم يرض عنها .. وقد أقلع في هذا الكتاب عن وصف نفسه بالمحقق ، تلك التي اخترعها أغانم المستشرقين وكتب بدلا منها «قرأه» .

«لقد تم لمحمود شاكر كل ذلك لأنه عالم فحل على دراية واقتدار بعمليتي التصحيف والتحريف وقد قال تعالى : «من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه» ، وهاتان العمليتان من أخطر مشكلات التحقيق أو القراءة ، ويعظم الخطب حين يبنى على اللفظ المصحف أو المحرف «أي موضع النقط» رأى في العقيدة أو الأدب أو اللغة (١) فلفظة «الصليان» في كتاب لويس عوض عن أبي العلاء .. وهو نبت معروف ، حرفه فتحول إلى «الصلبان» وبنى عليه مفهوما مخالفا : وهو تأثر أبي العلاء بالمسيحية ، فكان التاريخ مزيفا لثقافة أبي العلاء ، ولم يحظ من ذلك بطائل حتى قيض الله له من سامه سوء العذاب ، وهو علامتنا محمود شاكر» .

---

(١) الدكتور محمود الطناحي في كتابه المشار إليه سابقا «مدخل إلي تاريخ التراث» .

وهذه الأعمال التراثية جعلت محمود شاكر يحوز وحده على لقب شيخ العربية وشيخ العروبة الذى يجب أن يسمع صوته ويعمل بآرائه فى الدين ، والفقه ، والتاريخ ، وكل علوم العربية ، وإذا قال قائل إنه محض إنسان متدين فاتش التراث ، ونحن فى عالم غلبت عليه السياسة فنحن نقول : إذا كانت اسرائيل ليس لها دستور إلا الدين والعقيدة التى تسيطر على جميع خططها وأهدافها وأساليبها ، حتى أنه لا يمكن أن يمر قانون دون موافقته للعقيدة «التوراتية» فإننا فى اتجاه حربهم أو سلامهم لابد أن نعطى لديننا بعدا يناهض بعده عندهم ، وإذا كان أحد لا ينكر طبيعة الدين ورسالته العامة الخالدة . فإن واجب المسلمين فى كل عصر ومصر أن يحولوا المبادىء العامة إلى صيغ أكثر تحديدا ، تعالج المشكلات القائمة معالجة خاصة ، حتى لا تضيع فى تيه التعميمات السطحية التى لا تحدد الداء أو تقدم الدواء .. فليس ثم اختلاف فى أن هذا هو الأصل العام بالنسبة لدعاة أى دين .. والذى يجب أن يدركه مفكر اللحظة الزمانية ومكانها ، كما فعلت كل الدول التواقة إلى الرشد والنصر معا .

الفصل الثامن
التذوق منهج محمود شاكر

إذا كان لا حكم على مثقف إلا عن طريق منهجه فى كتاباته . باعتبار أن هذا المنهج هو الركيزة الأولى التى تنير للناقد أسلوب وإنتاج ما ينقده فإن هذا المنهج نفسه ، غير مهم البتة لمن يكتب السيرة الأدبية لنفس هذا الكاتب . إلا أن عكس هذه النظرة هو ما ينطبق على محمود شاكر .. ذلك أن منهجه التذوقى ويعنى به معايشة النص قبل الحكم عليه حيث يدرس الأدب العربى كأعمال لغوية فنية تتلألأ فى نفس أصحابه على صفحاته ، كما يضئ اللؤلؤ بين آلاف الأصداف الفارغة . مناقضة تماما للمناهج التى تعم الساحة الأدبية قبله ، كمنهج أستاذه الدكتور طه حسين «تاريخ الأدب» الذى يدرس الأدب العربى ، وكأنه تاريخ محض مضى زمنه . فصار كالأصداف الفارغة .

وتناقض هذا المنهج مع ما قبله .. كما عرفنا من البحث وراء محاولته مفارقة الحياة يؤكد كيف قاد البحث عنه كل حياة محمود شاكر من يوم وعى لوجوده فى الوسط الأدبى .. بدليل أنه كتبه فى هيئة رسالة وكلنا نعرف ما تحمله هذه الصيغة من طابع شخصى يقرب من الترجمة

الذاتية .. حيث ذكر كيف محى من ذاكرته كل المذاهب الفاسدة من حوله .. محيلا إياها إلى صفحة بيضاء يسجل عليها رحلته كمستكشف يرتاد رحلة مجهده إلى ينابيع وكنوز إرث أجداده العرب القدماء .

ولأنه كان يشعر فى الوقت نفسه أنه يعبر طريق رحلته حتى يسير فيه من بعده - فقد وضع اللافتات الإرشادية والمنارات كما اعترت الرحلة الصعاب فى هيئة يوميات أو أوليات الشعر عامة والشعر الجاهلى خاصة ، والأدب بجميع فروعه والتاريخ وعلم الدين بفروعه المختلفة والفلسفات بمذاهبها المتضاربة ولم يترك حتى العلوم البحتة كالحساب والجبر وما إليهما أى كل ماهو صادر عن الإنسان أبان عن نفسه - حتى يكتسب سليقة اللغة التى تمكنه من فهم إرث أجداده .

ينبئنا تاريخ حياة شاكر ، أنه كانت هناك ارهاصات أو محاولات سابقة للبحث عن هذا المنهج ولكنها كانت معرضة ظهيرة فى دفع كل هجوم على المتنبى لأن تكون محض زيادة فى ثقافته .. لولا حادثته الشهيرة مع د. طه حسين اذ رده صدى معاناته منها إلى العودة لمواصلة رحلته إليه ومن ثم تأصيله ، فهل نقول تبا لهذه الحادثة التى عرضته يوما لمفارقة الحياة وأخرى لفقد بصره أم نقول لكل مصيبة سلواها حيث إن أول كتاب صدر بهدى هذا المنهج وهو المتنبي قد حمل له السعادة بعد طول حرمانه منها بل إن هذا المنهج كان ظهيرة فى دفع كل هجوم على المتنبى .

وظل محمود شاكر مدة الأربعين عاما التالية لتأليفه لهذا الكتاب يطبق منهجه هذا تطبيقا بينا فى كل ما كتبه .. فى مقالاته التى نشرها فى الصحف والمجلات قديما وحديثا ، سواء كان ما كتبه بحثا أو نقدا أو تعبيرا عن ذات نفسه في كل منحى القول والبيان أو تعليقا على أصول الكتب القديمة .

فأنت تجده فى كتابه «أباطيل وأسمار» وكتابه «برنامج طبقات فحول الشعراء» وفى قراءته وشرحه لكتاب «طبقات فحول الشعراء» الذى كتب البرنامج أصلا للدفاع عنه وعن منهجه التذوقى فيه ، كما ظهر بجلاء فى قراءته وتعليقه على كتاب «جمهرة نسب قريش» للزبير بن بكار وفى مواضع كثيرة ومتفرقة فى قراءاته وتعليقه على كتاب أبى جعفر الطبرى ستة عشر جزءا ؟ فى تفسير القرآن وفى سائر ما كتب الله له أن ينشره من الكتب والقصائد الشعرية لاسيما «القوس العذراء» .

وطوال هذا الزمن أى من سنة ١٩٣٦ إلى ١٩٥٩ والأستاذ محمود شاكر يظن أن ما وصل إليه سبقا لم تأت به المجامع قبله ولكنه فوجئ حين طبعت الرسالة الشافية «للإمام الجرجاني» حيث توقف فيها على فصل نفيس جدا، هو أوضح ما قرأه على الأطلاق فى إجراء التذوق على كل كلام، وفى كل علم مسطور .

ورغم أن محمود شاكر علق على هذا الفصل بقوله «وكلام هذا

الإمـام الجليل ، وأن لم يكن صـريحـا كل الصـراحـة فـى الدلالة على منهجى إلا أنه أشبه شئ به «لماذا» ؟

لقد دله هذا الفـصل حقـا على أصـالة منهـجـه التذوقـى وأن جذوره تضرب في تاريخ أمته منذ عهد علمـاء صـحابة رسول الله صـلى الله عليه وسلم .. ثم زادت وضوحا عند علماء التابعين .. ثم اتسع الأمر واستعلن عند جلة الفقهاء والمحدثين من بعدهم .

أى أنه لم ييـتدع هذا المنهج ابتـداعا على غيـر سـابقة : بل كل مـا أزعمه أنى بالجهد والتعب ، وبمعاناة التفتيش فى هذا الركام من الكلام، جمعت شـتات هذا المنهج فى قلبى ، وأصلت لنفسى أصوله ، مع طول التنقيب عنه فى مطاوى العبـارات التى سـبق بهـا الأئمـة الأعـلام من أصحاب هذه اللغة .

ومـحـمود شـاكر قد تكلم عن مـذهبـه التذوقي هذا بـأسـهاب ووضـوح ليس فى «رسـالة فى الطريق إلى ثقـافـتنا/ فـقط بل فـصله أكـثـر فى مـقـالاته فى رده على الدكـتـور عبدالعـزيز دسـوقي التى كـانت بـعنوان «المتنبى ليتنى ما عرفته» ثم فى مقدمته لكتـاب مالك بن نبى وفى كتـابه «أباطيل وأسمـار» .. إلا أننا نركـز هنا على مـا جـاء فى الرسـالة لأن النقاد تناولوه منها .

فمـا هـى أسباب إفصـاحه عن منهـجه التذوقـى الذى طبقه فـى كل ما كتب من سنة ١٩٣٦ ؟ ومـاهـى أوجـه الشبـه والاخـتـلاف بينه وبين منهج التذوق عند الجرجانى ؟

يرد محمود شاكر على السؤال الأول بقوله : «وببديهة العقل لم يكن من عملي ، ولا من عمل أى كاتب مبين عن نفسه ، أن يبدأ أول كل شئ فيفيض فى شرح منهجه فى القراءة والكتابة ثم يكتب بعد ذلك ما يكتب ليقول للناس هاهو منهجى ، وها أنا قد طبقته ، هذا سخف مريض غير معقول ، بل عكسه هو الصحيح المعقول ، وهو أن يكتب الكاتب مطبقا منهجه ، وعلى القارئ ، والناقد أن يستشف المنهج ويتبينه ، محاولا استقصاء وجوهه الظاهرة والخفية ، مما يجده مطبقا فيما كتب الكاتب.

ولكن فساد حياتنا الأدبية ، هو الذى يحيل العقول أحيانا حتى نغفل عن أبسط القواعد البديهية فى العقول الأنسانية .. وكفى بهذا فسادا وبيلا ، ولكن ألا يحتمل أن الكتاب تبينوه .. ولكن خوفا من الدكتور طه حسين .. لم يشيروا إلى ذلك .. لا سيما وأن الأستاذ فؤاد صروف ألمح إليه . بغير لفظ المنهج .. حتى إننى ولست معاصرة لظهوره استشففته من كلامه حيث قال : «فالأستاذ شاكر وضع هذا الرأى أولا فيما قيل عن أصل المتنبي وذهابه إلى الكوفة لزيارة جدته وامتناع ذلك عليه ، فاستقامت الحوادث المتناقضة فى الروايات المنقولة على أساس هذا الرأى الجديد ، ثم لما طبقه على نفسية المتنبى فى شعره وحوادث حياته الأخرى ، وخاصة حديث نبؤته إلى أن اتصل بسيف الدولة ، تساوقت واتصل الأول منها بالآخر ، واستقام كذلك فهمها على منوال

يرتضيه العقل ، ويؤيده ما كان من حوادث «العصر» وهذه النظرية مهدت في الكشف عن أشياء جديدة فى حياة المتنبى وتاريخ عصره وروحه وصراعاته وانعكاسها على شخصية الشاعر وشعره يحقق كل هذا تحقيقا مفصلا فى سفره المرتقب إن شاء الله .

ولا يسعنى فى هذه السطور أن أفصل القواعد التى بنى عليها الأستاذ شاكر رأيه ، فهى كثيرة مفرقة فى جميع الفصول وهذا البحث الظريف فى حياة المتنبى وأدبه لى إلا وليد تطبيقها

فالذى يقرأ هذا البحث ويعود إلى مطالعة ديوان المتنبى ، متدبرا ، تنكشف أمامه معانى جديدة مغايرة فى شعره ، وصلتها بنفس صاحبها من ناحية ، وبتاريخ عصره من ناحية أخرى .. فقد نفض به الأستاذ شاكر الرواية المتداولة عن أن والد المتنبى كان سقاء بالكوفة ، ورسم صورة لحداثته فى مدارس الأشراف العلويين فيها، وبين صلة المتنبى بالعلويين من نشأته التعليمية إلى وقت مصرعه وتأثير ذلك فى حياته وشعره وآرائه السياسية ونفى ما أتهم به المتنبى من النبؤه مستدلا على صحة ما يذهب إليه بما استنبطه من شعره ، وما استخرجه من دفائن الحوادث التاريخية المتصلة بمسألة النبؤة ، واستطاع أن يصل للسبب المعقول فى تسمية أبى الطيب بالمتنبى» .

وقد درس حياته وهو إلى جوار سيف الدولة دراسة وافية من شعره وحوادث عصره ، فكشف عن الصلة بين سيف الدولة والمتنبى وأنهما

كان يعملان معا على تحقيق الأمل السياسي لرد الحكومة إلى العرب ، ونزعها من أيدى الأعاجم الذين كانوا قد استولوا على مقاليدها ، وبين أثر هذه الصلة السياسية فى شعر أبى الطيب الذى قاله فى سيف الدولة .

وكشف فيما أثبته من تاريخ هذه الفترة عن أن أبا الطيب كان يحب خولة أخت سيف الدولة ، ودور هذا الحب وأثره فى سمو شعره وروعة أبياته ولكن الذى حز فى نفس الأستاذ محمود شاكر .. أنه انتظر من سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٧٧ ولم يفز بعد كلمة فؤاد صروف من ناقد أو قارئ يكشف فيه عن منهجه المغمور الذى تطمس معالمه المناهج الفاشية الغالبة .. فاضطر أن يفصح عنه بنفسه .

أما أوجه الشبه والخلاف فى منهجه عن منهج الجرجانى فأوجه الشبه بينهما هو الجوهر التذوقى.. وأوجه الخلاف أن منهج محمود شاكر ذو شقين شق تذوقى وشق تاريخى.. يمثل البعد بين عصريهما وما حدث فيه من إفساد للمنهج الاصلى اذ ان منهج الجرجانى المتوفى ٤٧٤هـ /١٠٧٦م يدل تاريخه على أنه جاء مغايراً لما لم ينقطع قبله ، أى أيام انصلاح الأحول العربية، وتألف الدولة العباسية قبل أن يدخلها الفساد عن طريق العجم والخدم، وما بعدهم التتار ثم الحملات الصليبية.. وما أحدثه سقوط القسطنطينية من حقد أوربا على العرب ثم الحملة الفرنسية لاسيما رسالة نابليون لكليبر حتى الأستعمار الأنجليزى.

أما منهج شاكر وبالذات الشق التاريخى ، الذى أعطاه الصبغة الذاتية فقد جمع شتاته فى قلبه بعد ارتطامه بنتائج الأحداث التى تلت منهج الجرجانى حيث تنازل السلاح لمن هو أبشع منه ليقوم باختراق العالم العربى والأسلامى.

وهم طبقة المستشرقين حيث قاموا باستعمار هذه البلاد ثقافيا بعد ذلك سلموا الشعلة لدوجلاس دانلوب ليقوم بتفريغ الوعى القومى من الأرتباط بينابيع وكنوز العربية التليدة.. وبذلك عمت المناهج الفاسدة.. هذا يشك فى الشعر الجاهلى وآخر فى وثالث فى..

أى أن الشق التاريخى.. هو نفسه «الطبقة الترابية التى تكسلت فوق وجه الأدب العربى.. وأرهق محمود شاكر فى إزاحتها، والتى استغرقت العشر سنوات من ١٩٢٦ حتى ١٩٣٦م وتعلم فيها علما يفوق علم عشرات الأكاديميين.. سيما وقد أجاد مرحلة الثقافة الشفاهية المتطلبة للعربية على يد أستاذه المرصفى حتى اعترف له أخيه وهو شيخ المحدثين فى عهدنا بالأقتدار على العربية ثم رشحه عنه فى تحقيق الستة عشر جزء من تفسير الطبرى كما كتب ذلك فى مقدمته.

نبدأ الآن الكلام عن الشق الأول فى منهج شاكر.. أى شق التذوق. ولأن محمود شاكر له تاريخ طويل مع ماسمى منهجا.. ويدرج جيدا الغموض الذى احاط بهذا اللفظ .. ويعرف ما أدى إليه من خلط كثير فى الأداب وتفسيرها وشرحها وأن هذا اللفظ يزداد مع الزمن غموضا

وابهاما لذلك ينبه: فأعلم أن حديثى هنا هو عن الذى يسمى «المنهج الأدبى» على وجه التحديد أى : عن المنهج الذى يتناول الشعر والأدب بجميع أنواعه، والتاريخ، وعلم الدين بفروعه المختلفة والفلسفة بمذاهبها المتضاربة ، وكل ما هو صادر عن الأنسان إبانة من نفسه وعن جماعته = أى يتنارل ثقافته المتكاملة المنحدرة إليه فى تيار القرون المتطاولة والأجيال المتعاقبة. ووعاء كل ذلك وكله ومستقره هو اللغة واللسان لا غير: «ذلك ينوه عن منهجه هو بالذات فيقول: ولفظ «المنهج» يحتاج منى هنا إلى بعض الإبانة، وأن كنت لا أريد به الآن ما اصطلح عليه المتكلمون فى مثل هذا الشأن، بل أريد به «ما قبل المنهج» أى الأساس الذى لا يقوم المنهج إلا عليه . فهذا الذى سميته هنا «منهجا ينقسم إلى شطرين: «شطر فى تناول المادة ، وشطر فى معالجة التطبيق.

فشطر المادة يتطلب قبل كل شئ جمعها فى مكانها على وجه الأستيعاب المتيسر، ثم تصنيف هذا المجموع، ثم تمحيص مفراداته تمحيصا دقيقا، وذلك بتحليل أجرائها بدقة متناهية، وبمهارة وحذر حتى يتيسر للدارس أن يرى ما هو زيف جليا واضحا وما هو صحيح مستبينا ظاهرا، بلا غفلة، وبلا هوى وبلا تسرع أما شطر التطبيق فيقتضى إعادة تركيب المادة بعد نفى وتمحيص جيدها باستيعاب أيضا لكل احتمال للخطأ او الهوى أو التسرع، ثم على الدارس أن يتحرى لكل حقيقة من الحقائق موضعا هو حق موضعها، لأن أخذى اساءة فى

وضع إحدى الحقائق فى غير موضعها ، خليق أن يشوه عمود الصورة تشويها بالغ القبح والبشاعة.

وهو يطلب التدقيق والتنبيه على السطر الفائت بدقة: «إن شطر التطبيق» هو الميدان الفسيح الذى تصطرع فيه العقول، وتتناصى الحجج والذى نسمع فيه صليل الألسنة «جهرة»، أو «خفية» وفي حومته تتصادم الأفكار بالرفق مرة وبالعنف مرة أخرى، وتفترق فيه الدروب والطرق أو تتشابك أو تلتقى ، هذه طبيعة هذا الميدان، وطبيعة النازلية من العلماء والأدباء والمفكرين وعندئذ يمكن أن ينشأ ما يسمى «المناهج» أو «المذاهب» ولا ينسى الأستاذ محمود أن ينبهنا لوقت الحاجة للشطر الأول أيضا بالنسبة للعلوم البحتة ، مثلا إلى ما سميته ما قبل المنهج ، إحتياجا ملزما ، إلا بعد أن تستوفى العلوم البحتة مثلا قدرا صالحا من النمو والإتساع ، حتى يحتاج إلى إعادة النظر للفصل بين تداخل أجزائها بعضها فى بعض لتصحيح مسيرة العلم ، وإعطاء كل علم حقه من الوضوح ، حتى تستقيم بكل نهجه وطريقه ونموه بلا خلط ولا تزييف.

ولأن لهذا الشطر مزالق وغوائل يمكن أن ينحدر إليها الباحث فلا يصل إلى غايته .. فقد اشترط الأستاذ محمود شاكر علي النازل إليه استيعاب مداخل ثلاثة استيعابا تاما .. وهى اللغة والثقافة والبعد عن الأهواء أى الأصل الأخلاقى .

وقد شرح الأستاذ محمود شاكر تداخلها وتراحبها وسمو مضامينها .. من صفحة ٢٤ إلى ١٢٢ فى الرسالة .. ومن ومضاتها عن الأولى مثلا : أن بين تمام الإحاطة باللغة وقصور الإحاطة بها ، مزالق تزل عليها الأقدام ، ومخاطر يخشي معها أن تنقلب وجوه المعانى مشوهة الخلقة مستنكرة المرآة ، بقدر بعدها عن الأسرار الخفية المستكنة في هذه الألفاظ والتراكيب .

أما الثقافة : فهى معارف كثيرة لا تحصى ، متنوعة أبلغ التنوع لايكاد يحاط بها ، مطلوبة فى كل مجتمع إنسانى للإيمان بها أولاً عن طريق العقل والقلب ثم للعمل بها حتى تذوب فى بنيان الإنسان وتجرى منه مجرى الدم لا يكاد يحس به » .

أما الأصل الأخلاقى وهو العامل الحاسم الذى يمكن لثقافة الأمة بمعناها الشامل أن تبقى متماسكة مترابطة تزداد على الأيام ترابطا بقدر ما يكون فى هذا الأصل الأخلاقى ، من الوضوح والشمول والتغلغل والسيطرة على نفوس أهلها جميعا سواء في ذلك النازلون فى ميدان «ماقبل المنهج» أو في ميدان «المنهج نفسه «وهم العلماء والمفكرون والأدباء ، والمتلقون عنهم تلامذة كانوا أو أشباه تلامذة من قارئ أو سامع أو كل متطلب للمعرفة .

ولأن الأستاذ محمود شاكر رجل أخلاقى فانه يرى أن هذا الضابط الأخلاقي الرقيب يأتى من قبل «الثقافة » ورأس كان هو الدين ، أو ما

كان فى معنى «الدين» من عقائد أو ملك أو نحل أيا كان نوعها ، أو هو الذى بمعناه العام والذى هو فطرة الإنسان .

ولأن الأستاذ محمود شاكر يعرف أن المثقفين العرب يخرون عندما يسمعون رأى أى غربى فى موضوع كان فإنه فى ربطه للثقافة بالدين - أو أنه ليست هناك ثقافة بدون عقيدة - فقد استشهد برأى ت س إليوت فى هذا المدخل المهم لاسيما قوله : أليس ما نسميه «ثقافة» شعب ما ، ودين هذا الشعب مظهرين مختلفين لشئ واحد ؟ إذا الثقافة فى جوهرها تجسيدا لدين الشعب .

هذه لمحة خاطفة عن شق التذوق من منهج محمود شاكر كما كتبه فى رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا وشدد فيه على دقة التذوق وقد سجلنا جزءا منه فى باب «محمود شاكر كما قرأته لاسيما بعد أن شعر أن قوة الوجود كلها قد انسكبت فى روحه» .

المتنبى قدر محمود شاكر

تعاظمت أعمال محمود شاكر وتنوعت - كما مر علينا - ومع ذلك بقي «المتنبى» الذى كتبه فى بواكير عمره ذا ألق مشع يخطف نظر من يتكلم عنه .. حتى لكأنه قدره الذى يهيمن على روحه من أول خطوة نحو الطريق المستقيم ، لقد حفظ ديوانه فى عام واحد ، هو عام رسوبه فى الشهادة الإبتدائية ، وفى اللغة العربية بالذات كما نعرف ، ويقول هو عن تأثير حفظه له : «وكأن عينا دفينة فى أعماق نفسى قد تفجرت من تحت أطباق الجمود الجاثم ، وطفقت أنغام الشعر العربى تتردد فى جوانحى وكأنى لم أجهلها قط» .

وهذا يؤكد أن حفظه لديوان المتنبى قد أيقظ فى نفسه حاسة الشعر تذوقا وإنشادا بعد ذلك .. أى أنه ولد الشاعر فيه . إن كتابته عن صاحب هذا الديوان قد أهدته أسلوبه الفذ فى النثر وهو مازال ابن ستة وعشرين عاما حيث ذكر أنه قبل كتابته له لم يكن قد سطر إلا بعض الأشعار وحقق فصولا من كتب الإرث . لذلك صور لحظات تأهبه لكتابته بقوله «ظللت أميل الرأى بين أساليب الكتابة : أيها أختار وأيها أدع .. لم يكن لى أسلوب خاص . وخفت أن يأكل منى الزمن عزيمتى و .. و .. إلى أن قال : «وأخذت قلمى وسميت بذكر الله وكتبت فى جانب من

الصفحة «أبياتا من شعر المتنبى» ومضيت أكتب كأنى أسطر ما يملى على . لا حيرة ولا بحث عن أسلوب وطريقة ، ولا تردد ، ولا هيبة من شىء ، ولا تحرج عن غرابة ما أقول وما أكتب ، وفرغت من الفصل الأول وهكذا دواليك يوما بعد يوم حتى كان اليوم الأخير من شهر رمضان وتم كل شىء» .

ثم إن منهج محمود شاكر ولب حياته قد طبقه أول ما طبقه وهو يضع عمود الصورة فى حياة المتنبى فى العدد الممتاز من المقتطف عام ١٩٣٦ .

وكان يوم ظهور هذا العدد مفاجـــأة لفتت أنظار الأدباء جميعا فى كل بلد ينطق اللسان العربى ، إلى اسم شـــاب واعد كان يسمى بابن الشيخ محمد شاكر .. فصار من يومئذ اسما مشهوراً أو كاتبا مذكورا فى خفقة كخفقة البرق . أى أنه حمل له السعادة بعد طول حرمان .

وكان محمود شاكر قد انطلق بعد كتاب المتنبى يحتضن العالم ويرتد إلى إنسانيته ، مما يذكرنا بأقوال علماء النفس .. إن الإبداع يكمن فى تحقيق الذات .. لا سيما وقد عرفوا الإبداع بالأصالة ، ويتمثل فى الابتعاد عن النظرة الضيقة للأمور والنظر إليها بطريقة جديدة .. أو بمعنى عدم انصيـــاع محمود شـــاكر لآراء من ســـبقوه قبل إعمال فكره .

أما عندما صدرت الطبعة الثانية من كتابه المتنبى عام ١٩٧٧ التى

حوت قصته فى إبداعه له ، فقد أثبت لعلماء النفس أن الإلهام وحده غير قادر على تفسير عملية الإبداع ، فهو - أى الإلهام - وإن استطاع أن يفسر لهم لحظات الانسياب والطلاقة ، فسيعجز عن تفسير لحظات المقاومة والاضطراب والمسودات التى قدمها الأستاذ محمود شاكر لفؤاد صروف .. ثم مزقها مرات ومرات والتى صور حاله فيها : ومر نحو أسبوع وأنا لا أجد إلى هدوء نفس منفذا ، وأخذت ديوان أبى الطيب «المتنبى» مرة خامسة ، أقرأ لا أتوقف ولا أمل ولا أهدأ وأنا فى خلال ذلك أراجع كل ما فى تراجم أبى الطيب وبعض كتب التاريخ والرجال وغيرهم تبعا للخواطر التى تنشأ وأنا أقرأ الأبيات أو القصائد . وفى فجر الثانى عشر من شهر رمضان صليت ، فلما جئت آوى إلى فراشى طار النوم من عينى .. ومع طيرانه تبدد القتام الذى كان يلفنى ، وذهب التعب وما لقيت من النصب ، وتجلى لى طريق بان كأنى سلكته من قبل مرات فأنا به خبير ، وأخذت الأوراق التى كنت كتبتها فمزقتها وأنا على عجلة من أمرى ، ونبذتها وأعددت أوراقى وجلست على مكتبى وأخذت قلمى وسميت بذكر الله وكتبت .. ومضيت أكتب .. كأنى أسطر ما يملى على لاخيره و .. و ..» .

وقصة الكتاب وإن أثبتت لعلماء النفس أن الاحتشاد غير الإلهام فقد أثبتت أيضا قوة ذاكرة محمود شاكر ، حيث قال لى إنه قد تذكرها بتفاصيلها كما حدثت عام ١٩٣٥ وكتبها عام ١٩٧٧ بفارق اثنين

وأربعين عاما .. فيالها من ذاكرة جعلته أول عربي يكتب عن لحظات إبداعه ليس فى الشعر وإنما فى النثر أيضاً .

وإذا كانت براءة حصول محمود شاكر على جائزة الدولة التقديرية فى مصر قد أعطيت له على مجمل أعماله والمتنبى ضمنها . فإنها تحددت فى براءة حصوله على جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربى حيث كان البند الأول لحصوله عليها قد جاء هكذا : «تأليفه كتاب المتنبى سنة ١٩٣٦ م ، والذى حمل كثيرا من القيم العلمية والأدبية العالية ، منها التعمق فى الدراسة والجهد والاستقصاء ، والقدرة على الاستنتاج ، والدقة فى التذوق ، والربط المحكم بين الشعر وأهداف الحياة ، والكشف عن ذلك فى تطور أساليب المتنبى» .

ولولا الإيضاحات من محمود شاكر على منهج طه حسين فى بابه «بينى وبين طه» فى مراجعة عبد العزيز الدسوقى ، لما كان كتاب محمود شاكر «المتنبى ليتنى ما عرفته يأخذ طريقه إلى النشر» .

وهو يصف حالته بعد الانتهاء من المقالة المسهبة عن المتنبى التى صارت عددا ممتازا من المقتطف بقوله : «ولم يكن من نصيبى أن أمسك بيدى أول نسخة منه ، لأن أبا الطيب أراد أن يكافئنى ، فجعل مكافأتى على أثر الفراغ من الكتاب بالحمى التى ركبته فى أواخر أيامه بمصر» .

لذلك كله .. أجد خيالى دائما يصوره لى وكأنه أحد أئمه الإسلام

وفقهائه .. إلا أن خيالى عن هيئته يتشبث بكونه شديد الشبه بالمتنبى .

وقد لاحظت - عفوا - وأنا أخط حياته ، أن السنين التى تبدأ بالرقم ٦ لها دلالات سواء فى مراحل عمره ، أو فى كر السنين على أعماله ، مثل وصفه الرائع للكلمة فى نفسه وهو ابن ٦ سنين . دخوله المدارس النظامية سنة ١٦ .. أو دخوله الجامعة سنة ٢٦ ووفاة والدته فى نفس السنة .. وظهور المتنبى سنة ٣٦ ..

وهذا الرجل العجيب أسمى ديوانه فى النسيب والغزل وشكوى الحب «ديوان البغضاء» فهل أتى بهذا العنوان المتخالف ياترى ليؤكد أن الحب والبغض متجاوران كما قيل ؟ أم لأن أول قصيدة فيه كانت «انتظرى بغضى» أم أنه كان كذلك لما عاناه هو فى الحب ؟ أو لأنه كرجل قاموس نظر للحب وكأنه الحية ؟ .

لكى نجلى هذا لابد من تتبع حياة محمود شاكر مرحلة مرحلة . فنجد أنه ارتبط بمربيته السودانية عصبية المزاج وهو طفل ، وفى المراهقة وجدناه منغمسا بالكامل فى تذوق الشعر الجاهلى ، فى الشباب أو فى سن الخامسة والعشرين أى سنة ٣٤ كما قدرنا ، كتب لأستاذه الرافعى يصف حالته التى كادت تودى بحياته هذا التعبير : «وزادنى أنى كنت رجلا عزيا متعففا ، وما أشبه فراغ الرجولة من المرأة بفراغ العقل من الذكاء ، هذا هو العقل البليد وتلك هى الرجولة البليدة.وقد

عشت ما عشت بقلب مغلق وعقل مفتوح ، وليتني كنت ذاهلا مغلقا عقله، وكان قلبي مفتوحا لأفراح هذا الكون العظيم . ومضت أيامي يضرب بعضها في بعض ويمرض بعضها بعضا ، حتى انتهت منتهاها ، وجاء اليوم المدنف الهالك الذي سيموت» .

هذا الحكم . ولا شك جاء نتيجة لمقارنته حياته ، بحياة من حوله من الشباب اللاهي . وكان حكمه لصالحهم ، وربما راوده في هذا الوقت خاطر التخلي عن مشروعه في البحث عن المنهج والسير معهم ، فالفراغ الناشب بين هذا وتلك كان في أشد عنفوانه .. ليس هذا تحليلنا .. لأن الرافعي أردف المقالة التي جاء بها هذا التعبير ، بمقالتين عن الحب ، هذه واحدة .

أما الثانية : أنه عاد للقراءة والكتابة مستعملا قاموس الحب .. كقوله مثلا عن جهده فيهما بأنه كان غراما . إذ لا يعقل أن استعماله لكلمة غرام كانت بمعنى الشر الدائم كقوله تعالى : «إن عذابها كان غراما» لأن لفظة أغرم بالشيء تعني ولع به .. ونحن عندما نقرؤها عند محمود شاكر نجد لها هذا الظل الأخير ، بدليل أنه قد يستهل مقالاته بمشاهد عاطفية كمقالته «لمن أكتب» .. ١٩٤٧ فهي وإن كانت عن حلمه بأن يوافيه القدر بفارس يجعل ما نادى به موضع التحقيق فإنه بدأها هكذا (بيني وبينها أيام معتقة كأنها الخمر من دنان الزمن ، فإذا ما قدر الله لنا أن نجتمع يوما ، طارت بلبي نشوة ترمي بي إلى عالم

ساكن ناضر ناعم النسمات ، فأفارق بها عالما صاخبا محترقا لافح الرياح عاصف الأعاصير ، واجتماعنا هو إحدى الأمانى التى يقول مثلها الشاعر :

أمانى من سعدى رواء كأنما

سقتك بها سعدى على ظمأ بردا

وإذا اجتمعنا وتنهدت بيننا الأحاديث ، فربما فاجأتنى بالسؤال لا أتوقعه فيردنى سؤالها إلى نفسى ردا عنيفا لا أملك معه إلا أن أديم طرفى إلى هذا الوجه الذى يخفى نفسا ثائرة ، ولكنها ساكنة على ثورتها سكون الجبال الراسيات ، ولست أدرى أتلك إحدى لطائف الحيل التى تحب أن توقظنى بها من غفوة الأحلام أم تلك يقظة دائمة فى نفسى لا تطيق إلا أن تكون متيقظة حين يدعوها الهوى إلى إغفاءة تريحها من ثورة نفسها واضطرابها ؟ وأى ذلك كان فهى قد أخذتنى أخذا شديدا حين استوت فى جلستها وقالت : حدثنى ، لمن تكتب هذا الذى تكتبه ، ثم تأتى المقالة» .

هذا كل ما التقطناه فى نثره عن الحب عنده .. أما نظرته هو فى الحب وما يفعله فى المحب المبدع فقد جاء فى الباب الثالث عشر من كتابه عن المتنبى وحبه لخولة أخت سيف الدولة حيث قال : «ولما كانت نفس المرأة المحبوبة هى تمام نفس الرجل المحب وتكملتها . كانت دراسة الحكيم المحب لنفسه المكملة التامة بالمرأة المحبوبة إنما هى

دراسة للكون كله . فإن العاشق لا يرى الدنيا بأسرارها إلا بعينى من يعشق ، وهى تلك الدنيا المترامية ، بعد أن كانت قبل عشقه محصورة فى دائرتها من نفسه الناقصة غير التامة ، والحب القوى النافذ الذى يتملك حواس المحب ويغلب عليها ، هو بطبيعته امتداد بهذه الحواس إلى غايات بعيدة لم تكن تصل إليها قبل غلبته على القلب والنفس والفكر» وكأن محمود شاكر باستشفافه كل ذلك من شعر المتنبى يهمس فى أذننا : التفتوا لشعر المبدع .. لأنه فى فترة قد تسيطر عليه المثاليات .. بينما لا يستطيع أن يقول فى شعره سوى الحقيقة .

إذن فليس بين أيدينا إلا نفثة قديمة موصولة بقصائد «ديوان البغضاء» «انتظرى بغضى» و «حيرة» و «عقوق» سنة ٣٦ ، «ألست التى ..» سنة ٣٣ ، و «اذكرى قلبى» سنة ٤٠ ثم «تحت الليل» و «من تحت الأنقاض» وكانت آخر قصيدة نشرها فى شكوى الحب ، وإن كانت له قصائد مسجلة على أشرطة كاسيت مثل «اعصفى يا رياح» ، «لا تعودى» ويهيأ لى أنها تنتمى لهذه المرحلة لأن بها قصيدة فيها سخرية الشباب وهى قصيدة «وعد» والتى أنشدها ، متفكها ، فى كلب صديقه الشاعر محمود حسن إسماعيل .

كان محمود شاكر وقت إنشاده لهذه القصائد شابا فى السابعة والعشرين إلى ما قبل الاكتمال بقليل .. أى فى عمر المتنبى تقريبا عندما أحب خولة .. حيث وصف المتنبى فى هذا العمر بقوله : وكان قد بلغ من

العمر أربعة وثلاثين سنة وهي السن التي تستحكم فيها الأصول ، وتستقر المذاهب . ويقف الرجل عندها لا يملك في تبديل أمره حولا ولا قوة إلا أن يشاء الله ، وخاصة من كان مثل المتنبي قد عركته الأيام و ...... و ..... وإن محمود شاكر غير المتنبي في الجملة الأخيرة .. ذلك أن المتنبي قد أحب قبل ذلك بل تزوج .. أما هو فكان غرا في سنه هذه قليل التجربة .. بل قد تكون أميرته ذات السلطان التي توجه إليها في هذه القصائد هي أول امرأة أخذها مأخذ الجد في حياته..

ولأن عام ٣٦ كما قدرنا ، ونحن نقيم حياته ، كان الحد الفاصل بين كينونته التي كانت قبله مجرد تحصيل وإبداع وبين انفتاحه على الحياة سائرا على قدميه كخلق الله ، وأنه كان قبلها محروما إلى حد رهيب من الحب لا من المجد .. وقد حمل إليه المجد بنجاح المتنبي على الصعيد العربي زخات شديدة من الحب لم يحتملها بنيانه النفسي الهش الذي استنزف في التحصيل والأخذ ، لذا أجهضت تجربة حبه وراحت نثارا ، فاطلق عليها هذا الاسم «ديوان البغضاء» ، لأن سذاجته العاطفية جعلته يحمل ورقة كربون يطبق نظريته في الحب .. فإذا ما حدث أي خلاف .. فلا يكون هذا المعاش حبا .. بل بغضاء .

ونحن لا نستطيع أن نرد قصائد هذا الديوان إلى زمن نفسي معين .. لأنها نبعت من قلب محمود شاكر على فترات بين سنة ٣٦ و سنة ٤٣ .. وهي سنوات تأرجح فيها إنتاجه بين التدفق والانحسار .. مما يدلنا أنه خلالهما تناهبه الصفو والكدر ، والصحو والغمام .. وإن لاحظنا أن

فترات الغمام والكدر أو الليل المخيم قد التهمت الوقت الأعظم من هذه السنوات ، حتى أن أحد تلامذته استهول وهو فى معرض حديثه عن قصيدته «اذكرى قلبى» .. قائلا : فى مجلة الهلال (١) «فما هو هذا الشقاء والعناء الذى أخذ بشاعرنا ؟ وكيف كانت نجاة الشاعر من هذا المصير المخيف ؟ إنها أسئلة ملحة لا يستطيع الإجابة عنها إلا صاحب هذا الشعر ! فهل يوفر علينا الشيخ الجليل ذلك ويحدثنا عن حياته ويفتح لنا صفحته وتجربته ؟

ورغم أن أستاذا كبيرا (٢) فى علم النفس .. قد ضم صوته لهذا السائل بوجوب تلبية الأستاذ شاكر لهذا الرجاء .. فإن هذا النداء معلق مازال فلنستنطقه إذن لا بمنهج شاكر التذوقى ولكن عبر قراءة السيناريو المتأمل فى عناوين قصائد «ديوان البغضاء» حيث قصة حب لم يكتب له فيها النجاح .. كما قصيدته «نفثة قديمة» ، حيث أومأت إلى دفقة حب لا يعرفه إلا طرفاه ، أما قصيدة «انتظرى بغضى» وهى توعده للحبيبة بالبغض إن هى عقت حبه لها . فقد أردفها فى نفس العام بقصيدته «حيرة» وفيها يتساءل عما إذا كانت رصانة الحبيبة .. تدلل .. أم تباعد ، وفى العام نفسه كانت قصيدته «عقوق» إعلانا صريحا عن مفارقة الحبيبة ، التى فضل الحية عليها ، ومطلعها :

---

(١) الدكتور زكريا سعيد علي . مجلة الهلال القاهرية ديسمبر ١٩٩١م
(٢) الدكتور مصطفي سويف . مجلة الهلال القاهرية يناير ١٩٩٢م

هل بنا ، يا فؤاد : ننسى المودا ت ونلقى إلى العداوة حبا
وتعالى يا ربة «الارقش» الخدا ع وارعى ما بين جنبى خصبا

وأوسطها :

هذه كف خائض غمرات الـ حب أبلى فيها بلاء صعبا

ونهايتها :

فالد الأعداء من علمته محن الحب أن يعق الحبا

وها هو عام ٣٧ يستجمع خيوط قصة الحب من أولها لآخرها لنعرف من كان منهما المخطئ حين تساءل فى قصيدته «ألست التى ... ؟» .

بلى : كنت فى قلبى سراجا يضيئه فيفتر عن أنواره كل جانب
وكنت حياة للحياة تمدها بأفراحها فى عابسات المصائب

وتتوارد الأسئلة كنت وكنت ولكن ما إن يتبين له أنه لم يخطئ فى حقها حتى يأتى حكمه :

فإن يك بغضى كل ذنب جنيته إليك .. فإنى لست منه بتائب
وكيف .. وقد أنهكتنى وعرقتنى وقدت على قلبى جيوش النوائب
ذرينى ولكن الحياة مليئة بكن فما فى الأرض منجى لهارب

أما قصيدة «رماد» فتتبئنا بعدم تلبية الحبيبة رجاء العودة فكان رجع صدى هذا التعنت منها فى قصيدته «اذكرى قلبى» ، بل ظل ملازما له كلما طواه الليل تحت جناحه كما عبر فى قصيدته «تحت الليل» ، ولكن مرور الوقت جعل العلاقة برمتها «تحت الانقاض» ١٩٤٦

أما تمام مطابقة هذه القصة المتخيلة من شعر المحب فقد تبلور في قصيدته «الربيع» حيث استهلها بتصوير فعل الربيع في نفوس المحبين ، وأنهاها بفعل الربيع على حبه ذاته حيث أنشد :

هذا ربيع النـــاس وأحــزنني وربــيــعي الأشــواك في قلبي
أغضى شبابي في ملاوته كالشيخ تحت عمائم الشيب
ودلفـــت بالأيـــام متئـــدا حــملتـها خطبا على خطب
أمــشي بأفكار مــحــيـــرة بالشـوق أوانه وبالــرعب
هذا شــبــابي ، سائر أبدا بــربيــعـه في مقـفـز جـدب
أحـيا الشـبـاب ربيع حبهم - نعـمـوا به - وأمـاتني حبي

ولا شك أن تصويره حالة ذاته مع الربيع الذي يختلف عن حال أغلب الناس .. ثبت خطاي في كتابة هذا السيناريو الذي استقيت مفرداته من عناوين قصائده ، رغم أن البعض قد حذرني من تناولها هكذا ، لأنهم يرون أن قصائد محمود شاكر الغزلية - كما هي غزليات المتصوفة أو مدائح صاحبه المتنبي في كافور الاخشيدي ، وسيف الدولة الحمداني - ذات ظاهر لا يقصده وباطن يعنيه بهذا الظاهر .

والذي يؤنسني أن ما رحت إليه قريب الشبه بالحقيقة ، وأن بارقة انطفاء جذوة الشعر عند محمود شاكر كانت «القوس العذراء» ، التي اعتبرها بعض النقاد إرهاصا لفقدانه الشباب والأمل في الحب.

أما زواج محمود شاكر فهو الحب كله ، وهو حظه السعيد الذي واتاه بإنسانة نقية تقية دمثة الخلق خبرها عن قرب كل القرب .. وتفهمته

ورعته وتحملته قبل أن تتزوجه .. إنسانة قلبت موازينه رأسا على عقب ونسفت جدران حصن الشك الذى بناه وعلاه ، ليقبع فيه بعيدا عن المرأة، بدليل أنه لم ينشر قصيدتيه «أعصفى يا رياح» ، «لا تعودى» بعد زواجه .. وتركهما مسجلتين على أشرطة كاسيت ! .

وبمناسبة الحب والبغض فتساءل : هل كان محمود شاكر رجلا غير محبوب للمثقفين المتغربين لأنه نجح فى مهمته وهى كشفهم أم لأنه قال كل شئ .. فصعب على قرائه تصد

قصيدة القوس العذراء

أجمع النقاد على أن الشعر هو مفتاح شخصية محمود محمد شاكر ، ولولا تمازج شاعريته الأصيلة مع علمه الغزير ما ولد منهجه التذوقى ، وأن قصيدته «القوس العذراء» تحديدا هى مدخل الإدراك المعرفى لكل ما غلق على الفهم من أعمال محمود شاكر حتى التذوق نفسه .

وقد قرأت يوما عن فرضية تقول : «إن الإلهام ليس هو الحالة التى يوجد عليها الشاعر عندما يكتب قصيدته ، بل هو الحالة التى يأمل الشاعر أن يضع فيها القارئ الذى سيقرأ هذه القصيدة» .

فما هى قصيدة «القوس العذراء» هذه ولماذا فازت وحدها بكل هذا الثناء ؟ ولماذا أجمع نقاد محمود شاكر على أنها قمة أعماله ، بل منارتها ؟

هى صدى قصيدة شاعر جاهلى مخضرم ، هو الشماخ بن ضرار القيسى : وهى قمة إحساس الفنان لدى محمود شاكر ، حيث ترجم لها برسالة رائعة موشاة بالأفكار والخواطر والوسوسات التى انبعثت من نفسه بلقاء بينه وبين صاحب لا تبلى مودته ، دار بينهما حديث فى شأن إتقان العمل ، فلما قفل عائدا إلى داره أبى هذا الحديث إلا

أن ينقلب عائدا معه إلى الطريق .. يسر له بوسوسة خفية ، بحيث أوحت لنفسه بالنظر إلى الإنسان وكل حى من حيث إتقانه عمله .. فوجد أن كل حى غير الإنسان - نملة كانت أو طائرا - يمضى فى أمره وفى تدبير حياته ، على سنة لا تتبدل وهدى واضح لا يلتبس ، تمر الأحقاب والقرون وتختلف البقاع . والنهج فى كل درب من دروبها هو هو لا يتغير ، لذلك فتاريخ أحدثها ميلادا ، كتاريخ أعرق أسلافها .

أما الإنسان فكان فى مطلع فجره فى حال تشبه حال غيره من الكائنات الحية ، من حيث قوة الفطرة ، واقتيادها له .. ولكنه ثبت عليها وعمر ، نظر إلى معروفها فاعتبر ، وهجم على مجهولها فاستنكر ، أى أنه أعمل عقله بالفكر وحرك نفسه بالهوى ، ومن يومئذ حاد عن النهج الذى لا يختل .. وبمقدار ما يحصل الإنسان من درجات الإتقان يكون قربه من الفطرة السليمة التى ضلها يوم قلق وحاد .

فما هى قصيدة الشماخ الأصلية التى اختارها محمود شاكر ليدخل قصيدته المبتكرة فيها ؟ أو يعارضها ؟

المعروف أن قصيدة النهج والمعارضة والتشطير والتخميس وما إليها توارد قولها على مر العصور لا فرق بين كبواتها وازدهارها ، واختلفت آراء نقاد الشعر حولها . فريق صنفها بمحاولات يبدأ الشعراء بها لصقل تجاربهم ، وغالبا ما تكون ضعيفة لا يجرؤ الشاعر على إضافتها

إلى قصائده الأخرى بعد أن يكون قد تمكن من قول الشعر ! والفريق الآخر نفى هذه الخاصية عن هذه القصيدة لأنها تنبثق دائما من شعور غامض وصراع مرير وقوة عارمة يترجمها صاحبها فى الكلمات والحروف التى تأخذ فى كثير من الأحيان شكل القصيدة الوجدانية .

وأيا ما كان الرأى لم تستطع هذه الطرق جميعا أن تخفى رياء تحتها ، أو تبرز فخارا فوقها .. فقد توهج المتألق فيها ، «فنهج البردة» مثلا وافاها ضياؤها عين البوصيرى حين استيقظ بعد رؤيته الرسول الكريم فى منامه ، ووجدها متطابقة مع معلقة امرئ القيس فشالت قصيدته وطارت غير عابئة علوا وفخارا .

وربما كان من استباق الأحكام أن نقول إن قصيدة «القوس العذراء» يقترب حكم النقاد عنها من حكمهم على قصيدة «نهج البردة» .. إذ تعيد إلى الذهن قوله تعالى فى سورتى «التين» و«الشرح» : «لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم . ثم رددناه أسفل سافلين . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون» ، «وإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب» ومع الحديث الشريف «إذا عمل أحدكم عملا فليتقنه» .

والقصيدة الأم تحكى قصة ساذجة فى مظهرها عن قواس صنع قوسا فأتقن صنعها حتى أن رميتها لا تخيب ، والسهم المنطلق منها لا يضل الطريق إلى هدفه ، ثم اضطره فقره وحاجته إلى المال أن يبيع هذه القوس التى سواها بيديه ، فندم بعدها حتى كاد يحبط ، لولا أن

إرادته وافته في أن يصنع غيرها ، فهو يصف لواعج القواس بعد ما باع قوسه بثمن لا تباع مثلها بمثله :

فلما شراها فاضت العين عبرة وفى النفس حزاز من الوجد حامز،

ولكن عالم الشعر عند محمود شاكر تخطى كل تلك الصعاب بعينه البصيرة إلى ما تجيش به نفس الشاعر من أحاسيس إنسانية .

وقد جاء صدى ما أثارته أبيات الشماخ «ثلاثة وعشرون بيتا» من صور ومعان في نفس شاكر ، مع قصيدته هو على ثمانية أقسام في «مائتين وتسعين بيتا ، منها سبعة وثلاثون كانت المقدمة .. تلاها بثمانية أبيات عرض فيها خبر عامر شقيق الخضر ، وحكاية القواس الذى ابتاع منه قوسه ، وتناول كل جزئية من الجزئيات التى جاءت فى كلام الشماخ بطريقة استفهامية مفصلة .. أداتها كيف .. يحث بها على استخراج المعانى من النفوس ويثير بها الشوق ، ويبعث بها الخواطر الداعية لحديث إتقان العمل . فجاء إنشاده هكذا :

«فدع الشماخ بنبئك عن قوسها البائس فى حيث أتاها :

أين كانت فى ضمير الغيب من غيل نماها ؟

كيف شقت عينه الحجب إليها ، فاجتباها ؟

كيف ينغل إليها فى حشا عيس وقاها ؟

كيف أنحى نحوها مبراته ، حتى اختلاها ؟

كيف قرت فى يديه ، واطمأنت لفتاها ؟

كيف يستودعها الشمس عامين .. تراه ويراها ؟

كيف ذاق البؤس .. حتى شربت ماء لحاها ؟

وبعد خمسة وأربعين بيتا تجيء ثلاثة أبيات من شعر الشماخ .. يتلوها مقطع طويل آخر من شعر محمود شاكر وهكذا دواليك .. ثم خاتمة نثرية يعتذر فيها عن التطويل .

وقد يستفهم البعض لماذا اختار محمود شاكر الشعر ليترجم به عن إتقان العمل ؟ فيجيب بأنه «مفكر يرى أن أعراف الأمة العربية وجذورها وعبقريتها المتميزة . ممتدة وراسخة من خلال لغتها الشريفة ، فلا يسلم شرفها ولايستقيم أمرها بدون سلامة الأصل الأول فى آدابها . وهو الشعر الجاهلى ، ولو جردوها منه لصارت بلا أب ولا أم ولا قبيل ، فلا تقول شعرى وشعرائى ، وأجدادى وآبائى ، كما أنه أجدى وسيلة فى تقويم لسان الذين أسلموا من غير العرب .

قصيدة القوس العذراء نشرتها «مجلة الكتاب ، التى أغلقت لأن توزيعها كان ضئيلا سنة ١٩٥٢ .. إلا أن القراء عرفوها بشكل أكثر انتشارا عام ١٩٤٦م عندما ظهرت كديوان عن دار العروبة .. ومن الجميل أن الديوان نفسه قد ضم إبداعين لها . أولهما شعرى والآخر نثرى .. حيث أستهله بقصيدة غزلية فى القوس حيث إن للقوس فى الأدب العربى – منذ أقدم عصوره – وجودا يتجاوز حدود الواقع إلى الرمز.

وها هو الشاعر الفذ محمد حسن إسماعيل صديق محمود شاكر الحميم ينشد قصيدة ثم وينشرها بخطه الموسيقى الجميل استهلالا لديوان القوس العذراء . كانت بدايتها :

من قبل أن تخلق في غصنها والدهر يروى سرها للأزل

وأوسطها :

نوبتها نورا .. وشعشعتهـا عذراء في خلد ضحاه أهل

وخاتمتها :

ماهي قوس في يـــد نابل وإنما ألـــواح سحر نزل

أما الإبداع النثرى الذى ختم به ديوان القوس العذراء فكان بقلم الأستاذ عادل الغضبان رفيق صبا محمود شاكر حيث قال ضمن ما قال : «ليست الجوانب الفنية في قصيدة الشماخ ولا العواطف النبيلة فيها ، ولا الصلات الروحية بين الفن وصاحبه ، ليس كل هذا هو الذى حدانا لكتابة هذه الكلمة ، بل دفعنا إليها اغتباطنا بأن نجد الفن مجازا يصل بين الأرواح المجندة وموضوعا تجرى عليه رسائل الإخوان فترقى على سبحات الفن إلى سماوات الفكر وفراديس الأدب الخالدة» (١) ..

وربما كان لرفقة الأستاذ عادل الغضبان بصاحب القوس منذ الصبا أثرها في ظهور إبداعه في عام ظهور الديوان ، وأنه تسنى له قبل ذلك التعمق في القصيدة وفهم مراميها من زمن إنشائها .. ذلك أنه مرت ثلاثة عشر عاما من وقت نشرها حتى نشرت مقالة الدكتور زكى نجيب محمود عن القوس في نفس المجلة .. الأمر الذى يجعلنا نتساءل هل جاء نشر مقالة الدكتور زكى متأخرا .. أم أن إبداع شاكر استحوذ على كل هذا الوقت ؟ و .. في ذلك يقول «درة ساطعة هذه بين سائر

«مجلة الكتاب فبراير سنة ١٩٥٢» .

الدرر ، وآية هذه من الفن محكمة بين آيات الفن المحكمات .. هو كتاب في ست وسبعين صفحة صغيرة ،رقمت أسطرها صفحة صفحة ، كما ترقم حبات الجوهر الحر يصفها الخازن فى صندوق الذخائر ، لكى لاتفلت منها على الرائى جوهرة ، ولو كان قد كانت لى الكلمة عند طبع الكتاب لأمرت بترقيم محتواه لفظة لفظة ، لأن لفظه نقطة من سطر لؤلؤ» .

ثم يقول «والكتاب قصة ترويها صفحاته ، فإذا هى قصة الفن الخالد .. كيف تنبثق آثاره من ينبوع الفطرة الإنسانية فيظل يتملاه ثم يضيف إليه» .. ويظل الدكتور زكى يستنطق الكلمات بين السطور .. ليصل إلى أن المعنى الأخير للقوس العذراء يمثل أصول المذهب الطوبائى الحديث (١) .

ومضت الأيام والسنون حتى كان عام ١٩٨٢ حيث ظهر كتاب «دراسات عربية وإسلامية» فنجد اثنين من تلامذة محمود شاكر يهدونه طيه بحثين عن «القوس العذراء» معتذرين عن إرجائهم الكتابة عنها طوال تلك المدة .

وأول الأبحاث المهداة لمحمود شاكر في هذا الكتاب .. كتبه الدكتور إحسان عباس «فلسطين» فى ثلاث عشرة صفحة من القطع الكبير .. وضح فيها أن المحور الذى دارت حوله قصيدة القوس العذراء هو

---

(١) مجلة الكاتب سنة ١٩٦٥ .

العلاقة بين الإنسان والإبداع ، وأن محمود شاكر يؤمن أن العمل قد يقترن بالنفع بينما لايقترن الفن به ، ولكن كليهما لايتم خلقا سويا إلا بالإتقان ، لأن محمود شاكر كان ممتلىء النفس أيضا بقول الرسول الكريم : «إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه» وهو دعوة إلى الإبداع فى كل صعيد . وهو ظل لم يكن له أثر فى قصيدة الشماخ الجاهلية» .

وعندما حكم الدكتور إحسان على القصيدة ، قال : «كل خصائص هذه القصيدة ١٩٥٢م كانت ترشحها لأن تكون معلما على طريق الشعر الحديث فلمَ لم تصب هذا الحظ ؟ ولمَ لم تثر كثيرا من الاهتمام يوم نشرت ، ولعل ذلك كان فى العام نفسه الذى نشر فيه بدر شاكر السياب قصيدته «المومس العمياء» وهو أبرز الشعراء المحدثين وأرسخهم قدما ؟ ثم يعلل الدكتور إحسان ذلك بأن قصيدة «القوس العذراء» نشرت فى مجلة لم تكن ذات قراء كثيرين .. فلم يتعرف إليها النقاد إلا بعد أن وضعت فى صورة كتاب .. وكان الشعر الحديث قد قطع شوطا بعيدا ، وكان طولها حائلا دون توفر الصبر اللازم لجلاء ماتنطوى وما ترمز إليه ، أضف إلى ذلك أن القصيدة لاتستطيع أن تستغنى عن مقدمتها النثرية ، لأنها تكون جزءا أصيلا منها وهذا شىء قد أفقدها الاستقلال وجعلها مفتقرة إلى فاتحة ، ثم إن محمود شاكر ملوم أيضا .. ولو شفعها بنظائر لرسخت قدمه فى مذهب شعرى جديد .

أما المقال الثانى فقد كتبه الدكتور محمد مصطفى هدارة «مصر» وكان بعنوانين نثرى وشعرى الأول «القوس العذراء - رؤية فى الإبداع الفنى» والثانى :

ماهى قوس فى يد نابل .·. وإنما ألواح سحر نزل

وقال ضمن كلام جيد كثير عن صعوبة شعر الشماخ صاحب القوس وبداءة فكره ، وكيف أعاد محمود شاكر تركيب قصيدته و.. و.. إنه يحس نحو «القوس العذراء» على الهيئة التى انتهت إليها .. إحساسا قويا بأنها قصيدة تحكى حدثا وتتضمن مقدمة تهيىء الأذهان لهذا الحدث ، وتتابع الشخصية الرئيسية فى القصة وهى القوس نفسها، فتحكى ماحدث لها من تطور وتغير وقائع مرتبطة بحياة صاحبها . وهذه التغيرات أخذت تتعقد شيئا فشيئا حتى وصلت إلى الذروة ، ثم كان الحل بعد ذلك للعقدة التى تجمعت فيها خيوط الحدث .. وهى أن الإنسان القادر على صنع التمثال الجميل إلى درجة عشقه ونسيان مادته وتمثله وجودا بتعبده ، قادر أيضا على تحطيمه وإعادة صنعه والارتداد إلى الحقيقة التى نسيها زمنا .

وهذا الختام يعبر عن فلسفة التفاؤل والإيمان بقدر الإنسان وشموخه ، وبأنه مزاج حى للعقل والعاطفة والتخيل والواقع ، وبأن فى مقدور الإنسان أن يعود إلى العقل والواقع فلا يضيع فى ضباب العواطف والأوهام ، وبهذا كله أصبحت «القوس العذراء» رؤية جديدة وغير مسبوقة في الإبداع الفنى ، تأخذ مكانها فى الذروة من الأعمال

الرائعــــة فى أدبنا المعــاصــر ، بل فى الأدب الإنسـانى فـى كل زمـان ومكان .

ولايفوتنا أن ننوه إلى أن الدكتور هدارة وقد اعتبر «القوس العذراء» قصيدة قصصية قد أشاد بالمقدمة النثرية التي نعتها الدكتور إحسان بقـوله : «ألقت هذه المقـدمــة الأضــواء على الحـدث وتصـوره ، وعلى الشـخصية المحورية الحقيقية فيه وهى القوس ، والشـخصـية الثانوية وهى صـاحبها ، وأبانت كيف تطورت العلاقة بينهما منذ التقيا حتى حدثت مأساة الفراق» .

ولأن الدكتور محمد أبوموسى الأستاذ بكلية اللغة العربية جامعة الأزهر لم يدرك نشر إبداعه عن «القوس العذراء» فى الكتاب التكريمى ولطول هذا الإبداع وتناوله مشكلة التراث ورؤيته حيـاله .. فقد نشـر إبداعه بعد ذلك تحت عنوان «القوس العذراء وقراءة التراث» حيث رأى أن «دراسة التراث لاتقف عند استيعاب كل مافيه .. إنما العناية به وأن «نستخرج مضمره .. ونجهر بهمسه ونبين عن وحيه .. وهذا ما فعله الأستاذ محمود شاكر فى «القوس العذراء» وكثير من ودائعه وروائعه التى تحتـاج إلى المدارسة والتحليل والمناقشة ، لأنها منهج مستقل وطريق مغايرة» .

أما عن المقدمة النثرية التى كتبها محمود شاكر لهذه القصيدة ، فقد اعتبرها الدكتور محمد أبو موسى جوهر القصيدة .. لأن فحواها أو معناها : «أن إتقان العمل ، وأخذ النفس ورياضتها عن طريق المثابرة

فى ذلك ، هو فى حقيقته سعى دائب نحو اكتشاف الذات ، ورحلة تتوخى القبس الهادى الذى خبا فى اعماق الانسان ، وبمقدار مايحصل الإنسان من درجات الإتقان يكون قربه من شاطىء الحقيقة الأزلية المطمورة فى داخل نفسه ؟ والتى ضلها يوم قلق وحاد ، وهذه المعانى كما نرى غريبة مستورة ، لا أعرف أحدا من الذين يعالجون صنعة البيان شق حجبها بهذا التألق البيانى الفذ .. ولا أحسب هذه اللغة الشريفة كشفت عن جوهرها الشريف لواحد من أهل زماننا ، كما كشفت جوهرها الشريف لهذا العالم الجليل ، لما رأته حفيا بها أنبل ماتكون الحفاوة ، وفيا لها أكمل مايكون الوفاء .. كما أن التفكير فى هذه المسألة حين يقارن بما يقوله أهل النظر ، يرى حيويا وعلميا لأنه يجعل إتقان العمل والدأب فيه طريقا واصلا إلى استنباط ودائع الفطرة ، وإثارة كوامن الطاقات ، وبالمثابرة وحدها يمكن للمرء أن ينتقل من طور من أطوار الفكر والعمل إلى طور آخر ، أسمى وأسنى وقل مثل ذلك فى الجماعات والأمم» .

ويأتى عام ١٩٨٩ وفى شهر أبريل منه تنشر مجلة الهلال مقالة عاشق العربية محمود شاكر بقلم الدكتور شكرى عياد .. فنتوقف عندها بما ذكرته من قصيدة القوس العذراء حين أشار إلى أن «الشاعر القديم ، والجاهلى على الخصوص ، كان فيه حياء فطرى يمنعه فى معظم الأحيان أن يتحدث عن نفسه مباشرا ، ولكن عندما أدخل محمود شاكر قصيدته الخاصة فى قصيدته ، جاء النص الجديد يراوح بينهما

فى إتقان وإحكام .. حتى صار شعر شاكر ونثره حول قصيدة الشماخ كأنه مرايا تكبر وتصغر وتقرب وتبعد .

والعمل فى مجموعه عمل قديم فى قالب جديد يضاف إلى قالب المعارضات الذى لم يستنفد إمكاناته بعد ، بحيث إن القالبين يمكنهما أن يبدأ طورا جديدا وحديثا كل الحداثة عن أطوار الشعر العربى .

وليت الذين يتحدثون عن التناص ، أو تداخل النصوص ، من نقادنا الجدد يلتفتون إليه ، والشاعر الحديث يملأ قصيدته بالتفاصيل ، حيث يكتفى الشاعر القديم باللمسة ، ومن خلال هذه التفاصيل تترامى عاطفة الشاعر الحديث بل قصة حياته فى عشق العربية لغة وعروبة .

فالقوس العذراء: قصيدة فريدة فى الأدب العربى قديمه وحديثه والمظلومة أيضا بين كل ماكتب فى القديم والحديث» .

لمحة خاطفة عن

تفاصيل الشق التاريخى :

ترى ما هى الرواسب التى تراكمت فوق المنهج المستقيم ، الذى كان كالشمس المشرقة يهدى علماء هذه الأمة العربية السائرين على الطريق المستقيم حتى القرن الحادى عشر الهجرى أو السابع عشر الميلادى ، والذى استوجب الشق التاريخى فى منهج محمود شاكر الذى تجاوز منهج الجرجانى ، حتى تجلى نوره الوضاء - بعد عشر سنوات من البحث والمعاناة - ليسير عليه الخلف فيحقق أمجاد السلف ؟

يجيب محمود شاكر عن هذا السؤال .. بأن يأخذ فى رحلة إلى أعماق التاريخ لترى اللحظات الأولى للتصادم الصامت المخيف الذى حدث بين الثقافة العربية والثقافة الأوروبية حين سقطت الإمبراطورية الرومانية .. فعم الظلام .. والتى سماها أصحابها الأوروبيون «القرون الوسطى».

و «من القرون الوسطى» حتى جاء «عصر النهضة» فى القرن السادس عشر الميلادى كان الإسلام قد ظهر بدينه وثقافته وغلب على رقعة ممتدة من حدود اليمن إلى الهند، إلى أقصى الأندلس، إلى قلب افريقية، وأنشأ حضارة نبيلة متماسكة بعد أن رد النصرانية وأخرجها

من الأرض، وحصرها في الرقعة الشمالية و.. ومن ثم بدأت «الحروب الصليبية سنة ١٠٩٦م» - ٤٨٩هـ وقعت الواقعة .. فبعد أن أكتسحت الأرض المسيحية في آسيا ، في شمال الشام ، ودخلت برمتها في حوزة الإسلام . سقطت القسطنطينية عاصمة المسيحية ، ودخلها «محمد الفاتح» بالتكبير والتهليل، وارتفع الأذان في طرف أوربة الشرقي سنة ١٤٥٣م.

بيد أن هذه الواقعة الباطشة على عنفها ، وعلى سرعة ما تلاها من تدفق كتائب الإسلام منساحة في قلب أوربا ، لم تفت في عضد المسيحية الشمالية .. حيث دار الصراع بينها وبين الإسلام في مراحل أربع :

المرحلة الأولى : صراع الغضب لهزيمة المسيحية في أرض الشام ودخول أهلها في الإسلام ، والمرحلة الثانية : صراع الغضب المتدفق من قلب أوربا مشحونا ببغضاء جاهلة ، سفحت أول ما سفحت دماء أهل دينها من رعايا البيزنطية ، والمرحلة الثالثة : اندحار الكتائب الصليبية ، وإصلاح خلل الحياة المسيحية، بالاتكاء الشديد الكامل على علوم أهل الإسلام . أما المرحلة الرابعة : فهي مرحلة صراع الغضب المشتعل بلهب البغضاء والحقد وهو وحده الذي صنع لأوربا كل شيء من النهضة إلى يومنا هذا .. والذي رجه بقوة فتح القسطنطينية .. فأدى بهم إلى اليقظة الشاملة .

ومن يومئذ نحى السلاح جانبا وصارت القاعدة هي اجتناب

استثارة هذا العالم الضخم المبهم ، ثم العمل الدائب البصير الصامت الذى يتيح لهم يوما تقليم هذه الأظافر وخلعها من جذورها ، ثم استنفاد قوته بالمناوشة والمطوالة والمثابرة .. حتى يأتى عليه اليوم الذى لا يملك فيه إلا أن يستكين.

وكانت وسيلتهم فى تحقيق كل ذلك ، بعثه أعداد كبيرة ممن تعلموا العربية تخرج لتسيح فى أرض الإسلام ، وتجمع الكتب شراء أو سرقة ، وهم من عرفوا بعد ذلك بالمستشرقين ، حيث لبسوا لجمهرة المسلمين كل زى ، وتوغلوا بينهم يستخرجون كل مخبوء من الأحوال فى دار الإسلام عامته وخاصته ، وما هو إلا قليل حتى كان تحت يد «الإستشراق» آلاف مؤلفة من مخطوطات من كتب دار الاسلام نفيسة منتقاة، مشتراة أو مسروقة ، والتى عرفوا أن فى مكنونها سر تفوق العرب وتقدمهم وسموهم، وبهذا العلم التليد كسبوا هم المعركة، وعلى علم هؤلاء المستشرقين وخبرتهم التى امتصوا رحيقها من إرث العرب والمسلمين أرسيت دعائم «الاستعمار» ورسخت قواعد التبشير بما أصدره من كتب فى جميع مناحى العربية من شعر إلى فقه إلى تشريع إلى .. إلى .. باللغة العربية .. حتى يقرأها المسشرقون فى البلاد بالتبادل فى شتى الدول الاوربية الاستعمارية .

ويحسب جمع من المثقفين العرب أن هذه الكتب أثرت العربية ، لذلك يحذرنا محمود شاكر . لأن المستشرق لا يمكن أن يصل إلى شىء يثرى العربية وهو لم يعرفها إلا بعد أن استوى على سوقه .. ثم إن ثقافته

التى ارتضع لبانها مخالفة للثقافة العربية .. كما أنه ليس بعيدا عن الهوى بل إن الهوى هو الذى يحركه .. ومن ثم لن يستطيع الإمساك بشطري المنهج .

ولاحظ شاكر أيضا أن المستشرقين لا يطبعون أكثر من خمسمائة نسخة من كتبهم وابحاثهن الاستشراقية توزع على مراكز الاستشراق فى أوربا وأمريكا .. بينما لا ترسل سوى نسخة أو نسختان أو عشر على الأكثر للبلاد العربية . لأنها وضعت أصلا للمثقف الأوربى حتى يعادى المسلمين والعرب على السواء .

وينبه الأستاذ شاكر إلى من يتصور مثلا أن فرنسا طوال حياتها فى صراع مع إنجلترا .. وربما انعكس ذلك على اختلاف رؤى ومواقف مستشرقيهم .. لكنه يؤكد أن الاستشراق فى أوربا كلها هيئة واحدة .. وهدف واحد ، وبغضاء واحدة للعرب وشره لكنوزه وثروته لتحقيق الرفاهية الأوربية .. لأنهم فى الأصل همج هامج .. نشأوا جياعا فى صحراء مجدبة .

ثم يلفت محمود شاكر نظر كل من يقولون أننا نفىء فى ظلال اختراعات الغرب فيطلب منهج الفصل بين ما يسمى «ثقافة» وبين ما يسمى اليوم «علما بحتا» لأن الثقافة مقصورة على أمة واحدة تدين بدين واحد ، والعلم مشاع بين خلق الله جميعا فالجبر مقطوع من شجرة بينما للقصيدة أب يحميها .

لذلك يحذرنا من زخرف الألفاظ وتلألئها والتى دأب المستشرقون

على الترويج لها مثل الجديد والقديم ، والأصالة والمعاصرة ، والثقافة العالمية والحضارة العالمية فهذا كله تدليس يراد به سيطرة أمة غالبة على أمم مغلوبة . لتبقى تبعا لها، لأن الثقافة لارتباطها بالدين متعددة الأديان والملل.

ذلك أنه في الوقت الذى يقول فيه المستشرقون ذلك . فإن فجيعتهم بسقوط القسطنطينية مازال يعتمل أثرها فى نفوسهم .. حماسة وغضبا للمسيحية ، ويرسخ الإصرار فى قلوبهم على دفع غائلة الإسلام. عندئذ دخلت أوربا كلها فى عزيمة حاسمة لترد عن عرضها العار ، وبلغ السيل الزبى ، فكانت يقظة محسوسة في جانب ، وغفوة لا تحس فى جانب، وشال الميزان ، فبعد سقوط الأندلس ، انطلقت الأساطيل الأوربية تطوق دار الاسلام فى أطرافها البعيدة فإذا دار الإسلام محصورة فى الجنوب ، بعد أن كانت حاصرة للمسيحية فى الشمال ، وشيئا فشيئا فقدت دار الخلافة فى القسطنطينية هيبتها وسيطرتها، وصارت لأوربة هيبة مرهوبة وسيطرة مقدرة !

ورغم حدوث ذلك .. كان الفرق بيننا وبينهم خطوة واحدة تستدرك بالهمة والصبر والدأب والتصميم لا أكثر، بل أكثر من ذلك، فإن اليقظة الأوروبية كانت بعد فى أول الطريق وتتكىء اتكاء شديدا على ما كان عندنا .

عندئذ توجس بعض علماء العرب متفرقين على ساحة الأمة .. توجسا غامضا لشر مستطير آت لا يدرى من أين ؟ فانبعثوا يحاولون

إيقاظ الجماهر المستغرقة فى غفوتها عن إرث أسلافهم العظام الذى أصابه الخلل فى كل مناحيه .. من هؤلاء خمسة من الأعلام هم : «البغدادى ١٦٢٠ - ١٦٨٣» فى مصر ، «الجبرتى الكبير ١٦٩٨ - ١٧٧٤» فى مصر أيضاً ، «ابن عبد الوهاب ١٧٠٣ - ١٧٩٢» فى الجزيرة العربية «المرتضى الزبيدى ١٧٧٢ - ١٧٩٠م» فى الهند وفى مصر ، «الشوكانى ١٧٦٠ - ١٨٣٤م فى اليمن».

هؤلاء الخمسة .. كان لهم فضل المبادرة إلى يقظة بلادهم ، يقظة كانت حقا متباعدة الديار ، غير متماسكة الأوصال، ولكنها كانت قريبة التواصل ، وشيكة الالتئام ، لأنها منبعثة من داخلها ، ليس لها هدف إلا استعادة شبابها ونضارتها فى حدود الإسلام ، بعكس يقظة أوربا التى كانت متفجرة بحقد قديم مكظوم شيمته السطو الخفى، وشملها مجتمعهم بالضفينة المتقادمة ، بهدف العودة لاختراق دار الاسلام بالدهاء والخداع والمكر .

وكان أكبر الصراع المتوحش بين فرنسا وإنجلترا على الطرف البعيد فى الهند ، حيث لا تستطيع طليعة الإسلام فى دار الخلافة «تركية» أن تصنع لإنقاذها شيئا ذا بال .. فأنشأت إنجلترا «شركة الهند الشرقية البريطانية»، وتبعتها فرنسا ، فأنشأت «شركة الهند الشرقية الفرنسية» ، وظل الصراع محتدما حتى قضت الشركة البريطانية على الشركة الفرنسية ، قضاء مبرما .

وعندما عادت فرنسا من الهند تلعق هزيمتها ، كان الاستشراق قد

أعد لها وجبة دسمة .. وهى أن الحين قد حان لاختراق قلب دار السلام - مصر - من الشمال و حتى تداهم «اليقظة» التى أرقت منام الاستشراق كما هاجم الإنجليز اليقظة من الجنوب .. الامر الذى يفسر تطابق تواريخ تقارير المستشرقين عن مصر .. وتاريخ يقظتها .. ووجوب البدء في العمل لدى فرنسا لغزو مصر .

وهكذا فى أول يوليو سنة ١٧٩٨م ١٧ من المحرم ١٢١٣ هـ .هوى نابليون كالعقاب على مصر، وتستطيع أن تقف على حقيقة الحملة الفرنسية على مصر في «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا» فى مقدمة الطبعة الثانية من المتنبى . أو طبعاتها المتتالية التى أصدرتها «دار الهلال» منفصلة . حيث ركز فيها الأستاذ محمود شاكر على خطر رسالة نابليون - بعد أن هرب من مصر - إلى خليفته كليبر ، كما ركز على عمل المستشرقين فى تجنيد أعوان لهم من اليهود وشذاذ الأفاقين من الأرمن والأروام والمالطيين فى مصر .

حتى جاء الاحتلال الإنجليزى .. وبدأ الاستشراق الإنجليزى فى تكوين «حزب» قوى يناصره .. ووضع دنلوب أسس «التفريغ» الكامل لثقافة طلبة المدارس المصرية من ماضى أمتهم المتدفق فى دمائها مرتبطا بالعربية الإسلامية وقد أبان قصة هذا التفريغ في «لمحة من فساد حياتنا الأدبية» فى مقدمة كتاب المتنبى من صفحة ٢٠ حتى ٢٩ .

وهذا الفائت كله هو ما أحدث المناهج الأدبية الفاسدة التى أدركها الأستاذ محمود شاكر ورفضها رفضا صريحا قاطعا ، حيث بدأ وحده

تلك الرحلة التى كانت شاقة جدا وممتعة جدا، لأن الهدف الجميل هون عليه كل الضنى والتعب .

ووفقا لمنهج محمود شاكر بشقيه .. فإنه يعتبر أغلب من درسوا فى الخارج - وكانت أساتذتهم ومراجعهم استشراقية - «مستشرقين عرب» - وإذا كان المستشرقون عرفوا ما أقدموا عليه .. فإن أغلب أصحاب البعثات عميان ، بدليل أن لطفى السيد هاجم بعد عودته من الخارج اللغة العربية ، كما هاجم المجامع اللغوية وقال بعدم جدواها . ثم اشترك فى المجمع اللغوى بعد إنشائه ، بل رأسه عدة سنوات.

وإسماعيل مظهر كان يدافع قبل البعثة عن العربية لأنها التى تجمع بين البلاد العربية ، ولابد أن تكون موحدة فى اصطلاحاتها ، ولكنه لم يعد من البعثة بالداروينية التى تخالف الإسلام فقط بل اقترح أيضاً اتخاذ الحروف اللاتينية كرسم للكتابة العربية . وقد قرأنا من قبل ما قاله طه حسين .. وقال ذلك فى الكل إلا الدكتور زكي مبارك . الذى عقد مقارنات بينه وبين طه حسين فى الشكل والمضمون.

أما الأستاذ أحمد أمين وهو خريج المدارس الشرقية فإنه ما إن عمل مع الأساتذة المستشرقين أيام عمادته لكلية الآداب ، حتى رأيناه يهاجم الأدب العربى بل ثوابت ثقافتنا كلها، مما جعل الدكتور زكى مبارك يرده فى عدة مقالات سنة ١٩٣١ ، وما انشق الدكتور هيكل عن طه حسين ، إلا بعد أن عاد إلى الاسلام وقاطع العلمانية والفرعونية معا .

وربما كانت تلك التحولات الرديئة وراء عدم احترام محمود شاكر لبعض حاملي لقب الدكتوراه من الخارج فى علوم العربية وغيرهم من والمتهالكين على هذا اللقب ، بل يعتبر هذا البعض ذلك وباء وبلاء يضاف إلى السيرك الكبير والفهلوة من حولنا.

ولكنه لا يظلم منهم من أجاد فى عمله وبحثه واستمر فيه باقتدار على الابتكار والإضافة .. وإجلاله لكثير من هؤلاء الذين يشرفون أمتهم العربية الإسلامية أينما ذهبوا .. بل هو يستشهد بهم ويسجل ملاحظاتهم على كتبه .

ماذا قال نقاد منهج شاكر

إذا كان محمود شاكر قد أفصح عن منهجه التذوقى ص ١ «رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا» لأنه انتظر من سنة ١٩٣٦ إلى ١٩٨٧ م ولم يفز عنه بسطر واحد من ناقد، إلا أنه ما إن أفصح عنه حتى تلقفه النقاد الكتاب كل منهم يتفحصه من زاوية رؤيته .

فقد طار اليسار المصرى مثلا فوق شق التذوق فى الرسالة وركز على الشق التاريخى فكتب أستاذ الاقتصاد النابه الدكتور «محمود عبد الفضيل» فى جريدة الأهالى موافقا على ما أثبته «محمود شاكر» من اختراق ثقافتنا .

الدكتور «شكرى عياد» وجد فى صدور الرسالة فرصة للكتابة عن حبيبه محمود شاكر عاشق العربية ، منذ ان كان غضا فى السابعة عشرة من عمره المديد إلى أن توصل إلى منهجه التذوقى ،

الذى لم يتوقف فيه إلا فى أمر واحد، هو غرام المتنبى بخولة أخت سيف الدولة.

ثم كشف سر لماذا كان محمود شاكر بالذات هو الذى تمكن وحده - دون سائر المثقفين العرب - من الإمساك بهذا المنهج .. حيث قال :

«محمود شاكر فنان عالم ، وقد سهل عليه الجمع بين الفن والعلم .. لأن منهجه تذوقى، ولم يسهل ذاك على غيره ممن لم يتمرسوا بذلك المنهج، فنجدهم إذا كتبوا فنا جنحوا إلى تفيهق العلماء، وإذا كتبوا علما شطحوا كما يشطح أصحاب الفن، على أنى أرى الفنان فى شاكر أكبر من العالم ، وأراه فى عرضه لمسألة «التذوق» نفسها وهى مسألة علمية يحسب بروز جانب العالم فيها حسب ما وصفناه يشق ويخلب بصنعة الفنان».

أما عندما حلل هذه الرسالة صديق محمود شاكر الأثير ، الدكتور مجدى وهبه .. فى مقال تحت عنوان «غضب مرتقب» ونشره بالإنجليزية بمجلة «يوميات الأدب الغربى» . وهى مجلة تعنى بشئون الاستشراق الجديد .. الذى يستهدف بدء صفحة جديدة تخالف نظرة الاستشراق القديم ، أو تطمح إلى ذلك على الأقل ؛ فقد استهل تحليل الرسالة وتجليتها برسم الخلفية التى تبرزها ، فألقى الضوء على الاتجاهات الاعتزازية للاستشراق الجديد . ثم تتبع بزوغ الرغبة فى الحوار بينهم وبين المسلمين، ثم حدد أن يكون المحاور عن الإسلام هو صاحب «الرسالة» نفسه، ويبرر ذلك بأن الحوار المرتقب لن يجدى فتيلا إذا مثل

جانب الإسلام فيه نماذج مثل طه حسين أو المثقف شبه الماركسى الحديث ، أو حتى من يسمون بالإسلاميين المعتدلين، حيث لا يمكن للنظام الثقافى الغربى أن يدخل فى حوار مثمر مع صورته فى المرآة .

وإذا لم يستطع الغرب تقبل كل ما تقوله هذه «الرسالة» قبولا مطلقا .. فإنه من الضرورى أن يلتحموا مع الغضب والاستياء الذى تعبر عنه .. لأنها صوت أصيل معبر عن عاطفة مشبوبة وألمعية بارعة عن أثر ما أحدثه الاستشراق فى العالم العربى بعد اثنى عشر قرنا من المواجهة.

أما الذين شجبوا رسالة محمود شاكر .. فنجدهم فئتين :

الأولى ذات منطلقات عربية تجاذبه الرأى ليرد عليهم .. فيكون فى رده إيضاح لما غمض فى الرسالة ، ونختار نموذجا لها ما كتبه الأستاذ كمال النجمى.

أما الفئة الثانية والتى كان غرض شجبهم إثبات قدرتهم على التصدى لمن قامت شهرته على التصدى .. ولأن تصدى محمود شاكر - كما أوضحنا - كان صدقا وعدلا ، فإن أمر تصديهم له شئ يطول . ذلك أنهم يمثلون جماع مفردات صورة المستشرقين فى المرآة، ونختار نموذجا له ما كتبه الأستاذ الشاعر أحمد عبد المعطى حجازى (١) .

ونبدأ بما كتبه الأستاذ كمال النجمى إذ يقول بعد مقدمته الرائعة

---

(١) مجلة المصور .

التي أتينا عليها في غير هذا المكان : «على هذا الدرب مضت أفكار الأستاذ وأعماله وظلت ماضية فيه وسوف تظل في سبيلها .. يلقى من العنت ما يلقاه كأنه أبو الطيب المتنبي يقول :

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقى

وللحب ما لم يبق منى وما بقى

وإنه ليقف اليوم وقد انتهت إليه الرياسة في علوم اللغة وآدابها ، قائما بسلاحه على نفس الثغرة التي كان يدفع عنها «الأعداء» منذ ستين عاما ، منفردا متوحدا ، قد خلا الميدان إلا منه ، لأن حربه التي أعلنها على «الفساد» لا تضع أبدا أوزارها .

ولكن شيخنا على مرارة حفاظه واتقاد حميته ، لن يغضبه فيما نرجو ، أن نعترف له بأن الجديد - يقصد - في الطريق إلى ثقافتنا ، الذي شرح به منهجه التذوقي وتاريخ وظروف التوصل إليه على طرافته وطلاوته ، هو أشد كتبه عسرا على الأفهام ، فقد تدفقت فيه خواطره وسوانحه تدفقا بالغ العنف تضرب فساد الجو الثقافي كما تضرب أمواج البحر صخور الشاطئ ، فيستهويك عملها ، ويعجبك مدها ، ويطربك هديرها ، ولكنك لا تتبين أولها من آخرها ، ولا ترى منها إلا الزبد الأبيض ممزقا على صدر البحر الغاضب ، طافيا على سطحه ، يحجب ما في جوفه من كنوز اللؤلؤ والمرجان .

إن كلماته في هذا الكتاب عن منهجه في تذوق الشعر والنثر لمن أعلى طبقات الكلام ، ولكنه يوهم قارئه أن أدباء عصره، من أواخر

القرن التاسع عشر إلى الآن ، لم يحسنوا التذوق ، ولم يكن لهم فيه منهج صائب . وما نظن أن هذا رأيه على وجهه الصحيح ولكن الأستاذ أوشك فى حماسته لمنهجه أن ينكر التذوق على أدباء عصره أجمعين .

وهو يرى أن «الفساد» لم يدخل على ثقافتنا إلا بعد «التصادم المخيف الذى وقع بيننا وبين الثقافة الأوربية الحاضرة » أى منذ مائتى سنة تقريبا فى غزوة بونابرت لمصر ، ثم عصر محمد على الكبير .

أفيظن الأستاذ إذن أن ثقافتنا كانت قبل ذلك بخير ، فى أيام إبراهيم بك ومراد بك آخر مماليك العصر العثمانى ، أم يرى أنها كانت بخير قبل هذين المملوكين ؟

ويهيأ لى أننى لو سألت محمود شاكر الإجابة عن هذا المأخذ ، فإنه سيشرح لى الاختلاف بين أن تمر ثقافة أى أمة بأطوار من الركود بل الهبوط ، ولكن تبقى مع ذلك أصولها الراسخة سليمة مستقرة ، وهذا بالطبع مختلف عن الإفساد المتعمد الذى يحدثه الغازى الباغى لترويج نظرياته التى تطابق هواه هو ، فبعد أن يمحو كل ارتباط الأمة المستعمرة بجذورها القومية . يزرع فى نفوس مجتمعها أزرارا يحركها عن بعد فيحدث مرامهم ، حيث تفسد مناهجها لإغراقها بمناهج واردة .

والدليل على ذلك أنه بعد عصر هذين المملوكين ، جاء عصر الإحياء، على يد البارودى ، وشوقى ، والشيخ حسين المرصفى وغيرهم وغيرهم.

ثم إن المبدأ الذى يدعو إليه محمود شاكر فى الرسالة تقع مسئوليته على أبناء الأمة العربية ، وهو أن يكون تجديدهم نابعا من إرث قومهم

وليس اتكاء على التجديد الذى ينادى به المستشرقون .. لأنهم فئة لا تستطيع أن تكون محايدة فى نظرتها إلى تراثنا .

بعدها نأتى إلى ما كتبه الأستاذ أحمد عبدالمعطى حجازى ، والذى وصفناه آنفا بأن أمره سيطول - فنجده قد استهل مقاله بقوله : «لابد أن أعترف فى بداية حديثى هذا بأنى مشفق وجل من لقاء صاحب هذا الكتاب الذى أعلق عليه هنا ، فالرجل الذى أواجهه أستاذ واسع العلم راسخ القدم فى الثقافة العربية التى قدم فيها أعمالا متنوعة ممتازة ، آخرها هذا الكتاب » .

«فالأستاذ شاكر مع علمه الواسع رجل مقاتل ، يرى لنفسه فى حياتنا الثقافية رسالة مقدسة يؤديها بحمية ، ويدافع عنها بجدارة ، لأنه لا يستطيع الفصل بين الثقافة والدين ، ولهذا يحسب الدفاع عن آرائه فى الشعر والنثر جهادا دينيا يلبس له لباس الحرب، ويختال فيه اختيالا ، ويمعن فى ضرب خصومه إمعانا ، فلا يكتفى بتجريح آرائهم ، وإنما ينال من أشخاصهم بنعوته الجارحة ، لا يرده عن ذلك أن فيهم من كانوا أساتذته ، مثل طه حسين الذى يصف الأستاذ شاكر منهجه فى قراءة الشعر الجاهلى بأنه شئ لا أصل له ، ويكاد يكون بهذه الصياغة كذبا مصفى ، والمؤرخ عبدالرحمن الرافعى الذى يقول عنه إنه مؤرخ مدجن، ناهيك عما يقوله عن الدكتور لويس عوض وهو أشنع بكثير » .

وقبل أن نوضح لحجازى وللقارئ لماذا وصف الأستاذ شاكر هؤلاء

الثلاثة بهذه الأوصاف ، نسأل حجازى عن معنى وصفه الأستاذ بأنه «يرى لنفسه» .. «و«يحسب الدفاع عن آرائه» وهل هناك من يوزع على المفكر الرقعة التى يتحرك فيها ، وهل الأستاذ «يحسب» أم أنه فعلا وكما قال الأستاذ النجمى يقف قائما بسلاحه على نفس الثغرة التى كان يدافع عنها الأعداء منذ ستين عاما منفردا متوحدا ، قد خلا الميدان إلا منه ، لأن حربه التى أعلنها على الفساد لا تضع أبدا أوزارها .

وبعد فإننا نأتى إلى أحكامه على أعمال وأقوال هؤلاء الثلاثة فنبدأ بالدكتور طه حسين فنقول : إذا قرأت مثلا - وليس على سبيل الحصر - كتاب «المعارك الأدبية» للأستاذ أنور الجندى فى وصف منهجه فى قراءة الشعر لوجدته من أوله إلى آخره شجباً ، لهذا المنهج على الصعيدين الأدبى والسياسى حيث وصلت «قضية الشعر الجاهلى» مرتين إلى قاعة مجلس النواب والشيوخ ، بل إن المظاهرات الشعبية عندما تحلقت بيت الأمة .. ظهر زعيم المرحلة سعد زغلول ليهدىء الثائرين بقوله : إن الدين الإسلامى متين ولا يهتز لكلمات طائشة ، وأنهى خطبته بقوله : ماذا يضيرنا إن لم تفهم البقر ؟

ليس هذا فقط بل إن الدكتور طه حسين . عندما وجد أن من أخذوا عنه لم يسيروا فى معالجة «القديم» حتى يخيل للناس أنه إحياء للقديم وتجديد له بل كان الغالب على أكثرهم هو رفض القديم والإعراض عنه والانتقاص منه والاستخفاف به ، أحس الدكتور نفسه بالخطر ، وهو الذى أضاء لهم الطريق بالضجة التى أحدثها كتابه (فى الشعر

الجاهلى) وكان إحساسه بهذا الخطر الذى تولى هو كبر إحداثه ظاهرا جدا حتى عاد سنة ١٩٣٥ ينشر فى «جريدة» الجهاد مقالات انتهى منها فى ٢٢ مايو بسنة ١٩٣٥ ، وكانت محصلتها رجوعا صريحا عن ادعائه الأول فى سنة ١٩٢٦ .. استهلها بمقالة عنوانها « أثناء قراءة الشعر الجاهلى القديم الذى سبق وأشرنا له .

ثم قال بعد ذلك فى «حديث الأربعاء» : وقد تحدث إلي المتحدثون بأن أمثال صاحبى هذا قد أخذوا يكثرون ، ويظهر أنهم سيكثرون كلما تقدمت الأيام ، هذا الكلام ليس من عندى أو من خارج كتاب فى الطريق إلى ثقافتنا الذى يناقشه حجازى فى هذا المقال .. بل من شهادة الأستاذ شاكر فى ذيل رسالته صفحة ٢٤٩ ، حيث يردف الأستاذ قائلا : «وصدق ظن الدكتور ، فقد كان ذلك ، وكان ما هو أبشع منه» .

ويقول الدكتور طه : «والذين يظنون أن الحضارة الحديثة حملت إلى عقولنا خيرا خالصا يخطئون ، فقد حملت الحضارة الحديثة إلى عقولنا شرا غير قليل .. فكانت الحضارة الحديثة مصدر جمود وجهل ، كما كان التعصب للقديم مصدر جمود وجهل أيضا» .

«وأكاد أتخذ الميل إلى إماتة القديم أو إحيائه فى الأدب مقياسا للذين انتفعوا بالحضارة الحديثة أو لم ينتفعوا بها ، فالذين تلهيهم مظاهر الحضارة عن أنفسهم حين تلهيهم عن أدبهم القديم ، لم يفهموا الحضارة الحديثة ، ولم ينتفعوا بها ، ولم يفهموها على وجهها ، وإنما

اتخذوا منها صورا وأشكالا وقلدوا أصحابها تقليد القردة لا أكثر ولا أقل » .

«والذين تلفتهم الحضارة الحديثة إلى أنفسهم وتدفعهم إلى إحياء قديمهم وتملأ نفوسهم إيمانا بأن لا خياة لمصر إلا إذا عنيت بتاريخها القديم ، وبتاريخها الإسلامى ، وبالأدب العربى قديمه وحديثه ، عنايتها بما يمس حياتها اليومية من ألوان الحضارة الحديثة ، هم الذين انتفعوا ، وهم الذين فهموا ، وهم الذين ذاقوا ، وهم القادرون على أن ينفقوا فى إقامة الحياة الجديدة على أساس متين» .

هذه مقاطع من كتابات طه حسين التى يدين بها نفسه .. ومنها نتأكد أن «شاكر» كان على حق عندما وصف منهجه فى قراءة الشعر الجاهلى بأنه شئ لا أصل له ، ويكاد يكون بهذه الصياغة كذبا مصفى.

أما قولة شاكر عن المؤرخ عبدالرحمن الرافعى انه «مُدجّن» التى وردت فى «رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا» فقد كانت بسبب الأحكام التى تمثل حطه من قدر المصريين وإعلاء لشأن أى غريب عليها مثل الفرنسيين وأسرة محمد على فى مثل قوله : «بعد زواج مينو من ابنة السيد محمد البواب ، وكانت حادثة زواج مينو فريدة فى بابها ، لم يسبق إليها أحد من قواد الجيش الفرنسى ، فلا غرو أن كان موضع تهكم زملائه » .. مما أحزن الأستاذ شاكر ، فكتب يعلق على هذا

المقطع: يا سبحان الله ! بكل هذه البساطة والسماحة فى التعبير ، يعبر المسلم ويقول «تهكم زملائه» ؟ ثم يتساءل : ألم أقل لك إنها قصة مليئة بالمضحكات والمبكيات والآهات والحسرات ؟

ثم إن من يقرأ الأوصاف التى يزرى بها المؤرخ عبدالرحمن الرافعى على مصر .. لا يسعه إلا أن يصفه بمثل ما وصفه به الأستاذ محمود شاكر أما قولة حجازى «ناهيك عما يقوله عن الدكتور لويس عوض وهو أشنع بكثير » فهى تؤكد أن حجازى مع كل الذين علقوا على كتاب لويس عوض «أوراق العمر» وشجبوا فيه شاكر بغير اسم وإنما بمجاز من قال «أجاكس عوض» فإنهم جميعا ملكيون أكثر من الملك ذاته .. ذلك أن لويس عوض كتب فى مقدمة كتابه «على هامش الغفران » وهو مجموعة المقالات التى نقدها شاكر : «ولا شك أنى انتفعت بشئ قليل من نقد نقادى ، ولا سيما الأستاذ المحقق محمود شاكر ولولا جنوح قلمه لانتفعت من علمه كثيرا» .

إذاً فإن لويس عوض نفسه قد أقر بكل المآخذ التى أخذها عليه الأستاذ شاكر ، وكان من الممكن أن يستفيد منها كثيرا لولا جنوح قلم شاكر ، أو قل لضيق صدر لويس عوض .. الذى فوجئ بمن يرقبه، ثم تعبير دكتور لويس بعد ذلك بسطور بشططه فيقول : «وإنى قد أصيب وقد أخطئ فيما أكتب وفيما أرى ، ولكن شططى لا يوصد دونه باب الغفران لأنه من شطط الاجتهاد لا من شطط الضمير» .

هذه هى الأوصاف الجارحة لهؤلاء الكتاب الثلاثة ، التى جعلت

الأستاذ حجازى مشفقا وجلا وهو يتحدث عن رسالة الأستاذ شاكر «في الطريق إلى ثقافتنا» وها هى تذهب جفاء . بعد أن تكلم أصحابها.

وإذا كان حجازى قد قال فى مقالته هذه : «وليس من طلب السلامة وليست لى حرمة الرافعى أو طه حسين أن أقول اننى أتفق مع الأستاذ شاكر فى عدد من آرائه التفصيلية حول المنهج الصحيح للقراءة ، وحول فساد الحياة الثقافية الراهنة وضعفها ، ولكنى أختلف معه كل الاختلاف فى عدد من المنعطفات الأساسية التى قامت عليها آراؤه ، ومن هذه المنطلقات أن الثقافة فى رأيه ظاهرة قومية ، لها قوانينها الخاصة وأسرارها المغلقة التى لا يمكن أن تنفتح إلا لأبنائها ، وعلى هذا فلكل شعب ثقافة لا يشاركه فيها أى شعب آخر ، ولا مجال لظهور ما يسمى بالثقافة العالمية ، ومن المنطلقات التى يتشبث بها الأستاذ شاكر ولا أستطيع الاقتناع بها أن الصراع بيننا وبين الأوروبيين كان ولا يزال حتى الآن صراعا دينيا لا مجال فيه لوضع السلاح أو التعايش أو الحوار .. وأخيرا يرى الأستاذ أن نهضتنا الحديثة ليست إلا مؤامرة نسجها الاستشراق والاستعمار فكل ما جد فى حياتنا السياسية والثقافية بداية من أوائل القرن الماضى إلى الآن إنما هو نتاج لهذه المؤامرة .. وكل من ظهر من علمائنا وأدبائنا ومفكرينا فى هذا العصر الحديث .. إنما كانوا أدوات للمستشرقين والمستعمرين .. ثم يقول حجازى : «صحيح أن ثقافة الأمة واحدة لا تتجزأ بتنوع فنونها

واختلاف أشكالها .. فالثقافة فى حقيقتها هى روح الأمة تكشف عن نفسها في صور مختلفة وتعبر دائما عن خصائصها ، لهذا لا نستطيع أن نفهم آثارها مجزأة مفصولة ، بل ينبغي أن نتلقاها فى وحدتها وتكاملها ، خاصة ، إذا كانت مادتها واحدة ، كما هى الحال فى أدب اللسان » .

ونحن نتعجب من هذا النفى والإثبات المتلاحمين .. ولكننا نسير معه خطوة أخرى ، فنجده يعلق على الخطوات التى وضعها الأستاذ محمود شاكر ليكتسب منهجه فى قوله : «قلت لنفسى : الشعر كلام صادر عن قلب إنسان مبين عن نفسه ، فكل كلام صادر عن إنسان يريد الإبانة عن نفسه خليق أن أجرى عليه ما أجريته على الشعر من هذا التذوق الشامل فأقدمت إقدام الشباب الجرئ ، على قراءة كل ما يقع على كل كلام .. أيا ما كان هذا الكلام ، من كلام أسلافنا من تفسير لكتاب الله إلى .. إلى .. حتى العلوم البحتة».

ثم يصف حجازى شعوره : «وأنت لا تستطيع أن تدرك مدى سعادتى بقراءة هذا الكلام الجميل ، ليس لأنى لم أقرأ مثله من قبل، فالحقيقة التى يؤكدها الأستاذ شاكر نفسه فى كتابه أن من القدماء من سبق إلى كلام شبيه بهذا الكلام، ومن هؤلاء عبدالقاهر الجرجانى ، الذى كان يرى اللغة نظاما من العلاقات يتحقق فى أحسن صوره حين نضع كلامنا الوضع الذى يقتضيه علم النحو ، ويعمل على قوانينه

وأصوله ، وهذا سر جودة الكلام شعرا ونثرا ، بل إن هذا هو سر الإعجاز نفسه » .

ثم يعلق حجازى على ذلك : «الأستاذ شاكر لا يؤمن - إذاً - بنظرية الأنواع التقليدية ، ولا يتقيد في تذوقه للآثار اللغوية بالشروط الشكلية التى تميز الشعر عن النثر ، لأن ما يهمه فى النص اللغوى هو ما يتلقاه عن هذا النص ذاته بصرف النظر عن القالب الذى أخرجه صاحبه فيه ، بل إن الأستاذ يزيد على هذا فلا يتقيد بالشروط التى تميز لغة الأدب عن لغة العلم ، وهذه فكرة جديدة جريئة يتواضع الأستاذ فيرجع أصولها إلى عبدالقاهر أيضا ، والواقع أن أصولها ليست قديمة ، وليست عربية ، بل هى أوربية معاصرة ، فقد تعلم النقاد الاوروبيون الجدد من طريقة الماركسية والفرويدية والبنيوية أن العالم والنفس وأن المادة والفكر كلها فى حركة دائمة ، وفى جدل لا ينقطع ، وأن الإنسان مادام ذاتا واحدة فنشاطه العقلى بالضرورة متواصل متجاوب ، وهذا النشاط متنوع طبعا ، وصادر عن ملكات مختلفة ومتمثل فى أشكال متمايزة ، لكنه كله يعود إلى أصل واحد ، ويقوم على قوانين موضوعية ، أو ينطوى على بنية واحدة ، وإن كنا نرى هذه البنية الواحدة تجمع بين الصور اللغوية المختلفة .. هكذا تخلى النقد الأوربى الجديد عن نظرية الأنواع الأدبية ، وعن التمييز بين النظم والنثر وأصبح مستعدا للإقرار بوجود عناصر مشتركة تجمع بين لغة العلم ولغة الأدب، كما نرى مثلا

عند «موريس بلانشو» فى كتابه «المجال الأدبى » وعند «رولان بارت» الذى يقول ان الكتابة توجد حيث نشم الكلمات » .

والحق أننا أخذنا أنفسنا بشدة عن التعليق على مقاطع هذه المقالة مقطعا مقطعا لنؤجل الحكم مع نهايتها .. ولكننا مع هذا المقطع الذى بدأ «فقد تعلم الاوروبيون الجدد و .. و .» ، لا نستطيع ، لأنه لا يخرج عن مجموعة من الكلمات المتراصة عن تيارات شديدة التباين ، لا يجمعها فى الحقيقة خط فكرى واحد ، لذا جاءت منثورة على وجه المقال لتعطى صفة الموسوعية لكاتبها بغير حق فشتان بين الماركسية والبنيوية بل والفرويدية .. ففى حين تقر الماركسية بحركة الجدل وأهميته ، تنحى البنيوية إلى تثبيت الواقع من خلال أن يأتى من بنية محددة ، وإذا نحن تتبعنا تأثير هذه الحركات الثلاث على الأدب المعاصر ، وجدنا أن الماركسية أدخلت بُعد تأثير الظروف المادية والتاريخية على العمل الأدبى فى حين اهتم فرويد بالبُعد النفسى للمبدع أكثر مما يهتم بإبداعه ، على حين تركز البنيوية على العمل الفنى عينه بعيدا عن المبدع، فكيف نجمع هذه المناهج المشقشقة فى سلة واحدة .

بعد ذلك نستحلف القراء وحجازى نفسه: أى المناهج أقدم.. منهج الجرجانى الذى توفى ٤٧٤ هـ.. أى منذ ما ينيف على الألف عام ، هو الأقدم والأصل أم المنهج الذى ظهر حديثا عند «موريس بلانشو» أو «رولان بارت» هو الأصل؟! إنها لمغالطة ظاهرة حقا، فمن المؤكد أن

الأستاذ محمود شاكر، أسس منهجه على الأقدمين وليس على المحدثين من الأوروبيين وهو الذى قاطع أدبهم منذ وقت طويل.. بل إن هذا المنهج قد توصل إليه الأستاذ محمود شاكر عام ١٩٣٥.. أى قبل ميلاد البنيوية، وقبل تعاظم دور فرويد.. وليس لفرويد فى الأصل دور فى النقد.

وبعد هذا المقطع وبدون فصلات أو نقط نرى حجازى يقول: «لكن ما نراه فى رأى الأستاذ على صواب، لا يحجب ما نجده فيه من مبالغة، فاللغة العلمية تختلف لا محالة عن اللغة الشعرية، والنحوى الذى يعرف الحرف فيقول: إنه يدل على معنى فى غيره لا يبين عن نفسه - كما يقول الأستاذ- بل يبين عن حقيقة علمية ندركها جميعا سواء كنا من أبناء اللغة أم من غير أبنائها. نعم إن التعرف قد يحمل آثارا من مزايا صاحبه العقلية أو النفسية فيظهر فيه الذكاء والبلادة والبساطة والتعقيد، لكنه يظل مع ذلك فى مكان من الثقافة يختلف عن مكان الإبانة عن النفس. يظل لغة برهانية مقابل اللغة الشعرية، أو عبارة مقابل تعبير. لغة الشعر تشير الى الواقع النفسى، أما لغة العلم فتبرهن عليه، ونحن قد نتعلم الإنجليزية مثلا ونتلقى بها علوم الطب أو الهندسة أو الطبيعة فنتفوق فيها، حتى إذا أردنا أن نعبر عن ذات أنفسنا عدنا إلى لغتنا القومية لا محالة».

وذلك الكلام الذى جاء به حجازى لينقد به الأستاذ محمود شاكر، هو عين ما قاله فى منهجه، حيث أوضح أن هناك فرقا بين مفهوم الثقافة ومفهوم العلم ؛ فبقدر ما تتمتع به الثقافة من خصوصية وذاتية،

تفقد جوهرها بفقدانها، فإن العلم يتمتع بعمومية قوانينه ونظرياته.. فالكيمياء لا وطن لها.. ولكن اللغة لها وطن.. لذلك فإن أى عنصر خارجى أو وافد لثقافة أخرى لا يمكن أن يكتب له البقاء داخل ثقافة أى أمة إلا إذا تم هضمه وتمثله وفق قوانينها الخاصة كالذى حدث فى العصر العباسي عندما ترجموا الفلسفة، ولم يترجموا المسرح فدل ذلك لا على عدم التخل، بل لأن المسرح لم يكن فنا عربيا ، وإن جاء بعضهم بغير ذلك .. أى أن المسرح فن عربي.

ثم ينهى حجازى مقاله: «ولقد رأينا الأستاذ شاكر ينفى فى البداية قدرة الأوروبيين على النفاذ إلى حقيقة الثقافة العربية واستكناه سرها، لأنهم لا يفهمون لغة العرب حق الفهم ولا يؤمنون بالإسلام» .

وها نحن نراه فى الخاتمة يقول: «إن الاستعمار لم يحكم قبضته علي مقدراتنا إلا بفضل المستشرقين الذين تسللوا إلى صميم افئدتنا. حتى لقد ادعوا الإسلام وتكلموا العربية وجاوروا فى الأزهر الشريف».. فكيف وفق بين ما رآه فى البداية وما رآه فى الخاتمة، يقول: إن معارفهم عن العرب والمسلمين إن كانت فاسدة من وجهة نظرنا، فهى صحيحة مفيدة للأوروبيين لأنها تصدهم عن الإسلام وتساعدهم على قهر المسلمين. وهذا مقياس لا أستطيع أن أوافق الأستاذ على دقته فى الحكم على المعرفة» .

ونحن من جانبنا نقول: إن الأستاذ كان دقيقا فى الحكم على المعرفة، ذلك أن منهج هؤلاء المستشرقين كان قائما على فكرة الملاحظة

بالمشاركة، لأن حركة الأنثروبولچيا بالتوازى مع حركة الاستشراق الأولى للبلاد الإفريقية بشكل خاص، والثانية للثقافة العربية ذات الجذور القديمة المتماسكة هى فى النهاية معرفة للآخر، فالأوربيون يريدون أن يعرفوا عنا حتى يستطيعوا أن يتحكموا فينا، وأذكر هنا مقولة لأحد الأساتذة الفرنسيين فحواها: نحن نظام رأسمالى يحاول أن يستبق الصراع، بمعنى أنه يريد أن يسيطر على الصراع قبل حدوثه.

• ويختم حجازى مقاله بقوله: «ومهما يكن الأمر فليست النوايا هى التى تهمنا وإنما الآثار والنتائج. فإذا كان حقا أن نشاط المستشرقين لم يكن مفيدا كله، فلاشك فى أن فيه جانبا عظيم الفائدة، حيث نرى صورتنا فى مرآتهم.. لا لنرى أنفسنا بعيونهم. أو نتخذ ما يقولونه عنا دينا وعقيدة» ... وتلك مغالطة أخرى.. ألا يعلم الأستاذ حجازى حتى بحكم احتكاكه ومجاورته للسوريون - كما جاورنا المستشرقون فى الأزهر الشريف - أن النية تعادل القصد فى فلسفة الفمونولوجيا، وأنها مقابل لفكرة اللاشعور عند التحليل النفسى الفرويدى، والذى يقول عنه صاحبه «اللاشعور».. وبلغتنا العربية : «النية» إنه مثل جبل الجليد يختفى ثلاثة أرباعه تحت الماء. فكيف تنتج النوايا السيئة آثارا ونتائج سليمة كما فى فكرة النية، كما يعرفها كلود ليفى شتراوس بأنها ذات طبيعة رمزية لا شعورية؟

وهكذا نرى أن كل ما أتى به حجازى لا يخرج عن مغالطات يريد بها أن يتماسك فوق الجسر الهزاز الذى يقف عليه محاولا مجابهة

رجل يقول الحقيقة الموضوعية ، رجل كانت شهرته الأولى هى المجابهة.

نسينا فى زحمة المراجعات، المنطلق الثانى الذى لم يستطع حجازى الاقتناع به فى آراء الأستاذ محمود شاكر، من أن الصراع بيننا وبين الأوربيين كان ولايزال حتى الآن صراعا دينيا، فإنه اقتنع به.. ليس بعد أو وقعت حروب سراييڤو والشيشان، وإنما فى مقالتيه» المنافقون يتلعثمون» و «أسباب التفاؤل» المنشورتين فى الأهرام بعد فلاحه في نقد منهج الأستاذ محمود شاكر. حيث قال فى الأولى: إن هناك من الأوربيين والغربيين عامة من لا يحملون لنا غير المقت والكراهية، فكل طريق نسلكه خطر يهددهم.. هذا كان موقفهم منا فى الماضى البعيد والماضى القريب، كما هو موقفهم منا الآن.. و.. وأما فى المقالة الثانية.. وبعد تفاؤله بجمعيات الصداقة بيننا. فإن هذا التفاؤل ينطفىء بعد البيان الذى أعلنه بعض المثقفين الفرنسيين بشأن تأييدهم لهجرة اليهود السوڤييت الى فلسطين: و.. انظر إلى سياسة فرنسا الثقافية فى بلاد المغرب العربى، سترى أنها تعرقل سياسة التعريب، بقدر ما تحاول المحافظة على الوضع الممتاز الذى تتمتع به اللغة الفرنسية دون حق، إذ هى لغة أجنبية تستطيع أن تكون الأولى فى بلاد المغرب، ولكن لا ينبغى أن تحل محل اللغة القومية وهى العربية.

محمود شاكر .. مفكرا مسلما

فى مقالاته التى نشرتها «الرسالة» التى تعرض فيها الدكتور محمد

حسن عواد الأستاذ بجامعة الأردن لموقف محمود شاكر من الإسلام ورؤيته الإسلامية يقول إنه مفكر تقوده الرؤية الإسلامية. وما تفرع عنها من ثقافة مختلفة الألوان، فهو يفهم الدين الإسلامى لا على أنه ضرب من الشعائر التعبدية المنفصلة عن واقع الحياة، بل على أنه جامع لكل تصرف يتصرفه المرء المسلم فى حياته منذ يستيقظ من نومه إلى أن يئوب الى فراشه، ولإثباته لهذه الرؤية يسلط الأضواء على بعض القضايا التى يعج بها المجتمع الإسلامى فى العصر الحديث، مستخرجا ما فيها من فساد وخبث آت من الأصول الفكرية الغربية، وإنها لقضايا متعددة الألوان.

قضايا ذات لون اجتماعى: منها رفض تعبير «رجال الدين» حملا على رجال الدين المسيحى، الذين يقصرون حياتهم على الطقوس الدينية وينقطعون النظر في مسائلها، ووفقا لذلك يرفض أن يعد الأزهر معهدا دينيا.. وهو بالتداعى قد شن حربا على الجاهلية الوثنية - بكل أشكالها كالفرعونية والفينيقية ونحوهما - التى طهرها الإسلام، الذى ختم الله به النبوات والأديان على هذه الأرض..

أما عن مقالاته السياسية التى يعرض فيها قضايا العالم الإسلامى مع الاستعمار، وسلط عليها الأضواء مكثفة تدل على حس سياسى عميق، وتحليل دقيق للأحداث ومتابعة ظاهرة لها، كل ذلك ببيان كاللهب يفيض حماسة وقوة واعتدادا، فهو لا يقنع فيها بتحرير البلاد من أقدام

الاستعمار، بل يتجاوزه إلى تحرير البلاد من أفكار هذا الباغى وقيمه وعاداته وتقاليده.

ومن آرائه السياسية أيضا، إعادة النظر في شأن الجامعة العربية، والذى يدل اسمها على أنها لا تريد أن تخرج عن الأصل الذى وضعت له. وهو جامعة العرب، أو جامعة الإسلام، أو جامعة الشرق.

اما عن التجديد الذى تلهج به طائفة من المثقفين ثقافة عصرية ليس إلا تمنطقا بالكلام، لأن حقيقة التجديد أنه حركة دائبة فى داخل ثقافة متكاملة يتولاها الذين يتحركون فى داخلها حركة كاملة دائبة.

واللغة (١) العربية لغة القرآن حرص عليها محمود شاكر أشد الحرص فمنحها حياته، وأخلص لها، ونافح عنها، وكشف الخطط الرامية إلى تدميرها، وإضعافها كالدعوة الى اصطناع العامية. أو كتابتها بالحروف اللاتينية.

القسم الثانى: عن فساد حياتنا الأدبية.. فى هذا القسم نجد تحليلا عميقا للأسباب التى أدت إلى فساد الحياة الثقافية والفكرية فى العالم الإسلامى عامة وفي مصر خاصة. ويئول هذا الفساد إلى الحضارة الغربية التى تختلف فى أصولها الفكرية كل الاختلاف عن الأصول الفكرية للحضارة العربية، فحضارتهم الأدبية العصرية للقرن العشرين هى حضارة حيوانية الفضائل ليس فى أعمالها إلا فتنة بعد فتنة، ولا

---

(١) الأستاذ محمود شاكر لا يحب أن يسمع كلمة «العربية» تعريفا لها، وكأنها ليست لساننا .

نقول هذا فى العلم – معاذ الله – فإن العلم الحاضر قد استطاع أن ينفذ فى بعض أسرار الكون بأسباب المعجزات، وهذه التفرقة الذكية بين الحضارة والمدنية، تصلح أساسا لهداية الحيارى ودرسا قاسيا عميقا لقادة الثقافة فى العالم الإسلامى، عندما اتخذوا من تمجيد حضارة القرن العشرين تدليسا يفتنون بهِ الناس عن حقيقة الإنسانية الروحية المتجردة من أغلال الحيوانية النازلة.

القسم الثالث: طريق الإنقاذ: ويقوم عند محمود شاكر على أساسين هما: إنقاذ العالم الإسلامى من أسر التعبد للحضارة الغربية، وإنشاء مدنية منبثقة من الدين الاسلامى، فالقانون الإسلامى العظيم هو روح الحضارة التى يجب ان تسود العالم.

ولكن كيف يتحقق ذلك؟.. والجواب عن هذا السؤال عند الأستاذ شاكر أن هذا الركاز الباقى بعضه قائما فى العالم الإسلامى خليق أن يدفع العرب إلى حمل أمانة القرآن بحقها مرة أخرى، وحمل أمانة لغة القرآن بحقها مرة أخرى.

والأستاذ شاكر يغمره الأمل والثقة بهذا الجيل من عباد الله المطوى على صلاح كثير وخير عميم وقوة خارقة [1] .. وهو غير قانط من خير أمتنا بل لعله أشد إيمانا بحقيقة جوهرها وطيب عنصرها، وكرم

---

(١) ولذلك نبغ أبناء العرب فى إثبات جدارتهم العلمية ، عندما ذهبوا إلى الغرب ، مثل الدكاترة «الباز» فى الفضاء، و«زويل» فى الفيزياء، و«يعقوب» فى القلب ، وغيرهم كثير.

غرائزها، بل لعله أشد إيغالا بأنها صائرة الى السؤدد الأعظم والشرف السرى، والغلبة الظاهرة، وهذه التمنيات الحارة الصادقة المنبعثة من قلب مؤمن واثق بدينه تستحق التحية والاحترام.. ولا أتردد - والكلام للدكتور محمد حسن عواد، أستاذ الأدب العربي بالجامعة الأردنية - فى مشاركة الأستاذ شاكر فى كل ما ذكره، ولكن الطريق يظل فى النهاية طريقا عاما يحتاج الى تفصيل أكثر، وبيان للخطوات العملية التى يسير فى ضوئها الشباب المسلم حتى تتحقق الغاية المرجوة.. وننال الهدف الذى نصبو اليه، وهو سيادة هذه الحضارة الإسلامية.

هذا تكثيف شديد.. لمناقشة الدكتور محمد حسن عواد، لما كتبه الأستاذ محمود شاكر بمجلة «الرسالة» المصرية واعتمد فيه على واحد وسبعين عددا منها مع أضواء من كتبه «أباطيل وأسمار» و «مقدمة الظاهرة القرآنية» و«المتنبى».. وما كتبه فى مجلة الثقافة المصرية.. ويأمل الدكتور عواد لمن يريد الوقوف على هذه القضايا وقوفا متأنيا فليرجع إليها.. ولما كنت لا أستطيع إيجاد حيز لهذا الزخم من المراجع فإنى أشير له بأن مجلة الرسالة قد جمعت حديثا فى مجلدات.

محمود شاكر والعقيدة

لا نقصد بالعقيدة هنا التعريف الشامل لها من الخلق والعمل العادى، أو تقسيماتها إلى علم الكلام، وعلم الأخلاق، وعلم التصوف وعلم الفقه.. وما إلى ذلك، بل نقصد بالعقيدة اليقين والتسليم لله تعالى ورسوله فى القرآن الكريم والسنة المشرفة عند محمود شاكر.

فاليقين والتسليم عند هذا الرجل من القوة بحيث إن الموضوع الوحيد الذى لا يتكلم أو يفتى فيه هو العقيدة. ولكننا استشففناها عنده من بعض المناسك التى أديناها معه فى بيته أو خارجه.

فصلاة الجماعة فى بيته هى أروع منسك أديته فى حياتى بهذا الخشوع والانغمار ؛ ذلك أننى قبل زيارته ورغم أننى ابنة عالم أزهرى لم أكن أقوم بها بانتظام، ربما لأن تيار الوسط الثقافى والفنى الذى كنت أحيا وسطه طوح بى عنها، فبدأت مع دخولى إلى بيته أستعيد ما كنت عليه وأنا صغيرة ناسكة بل عاكفة عن مخالطة حتى أهلى.. بل كدت أتخيل أحيانا أننى سألد المسيح المنتظر، وعندما سألته عن كلمات التحيات، التى اختلف أداؤها بين كل من سألتهم، أجابنى لأنى كنت وشيكة الدخول الى جلسته.. وترغيبى فى الصلاة.. أن فى العالم الإسلامى ثلاث عشرة طريقة للتحيات.. أما أنا فأقرأها هكذا.

سألته يوما على أى المذاهب هو.. فنظر إلىّ مليا ولم يجب كما هى عادته.. فرحت أقول لنفسى.. هو بالطبع ليس شيعيا حيث يشجبهم مع المعتزلة لاحظت أيضا أنه لا يضع يده على قلبه، كما يفعل بعض المريدين الذين يؤمهم من الشافعية، وإن كان أستاذه المرصفى، كما هم أهل بلدته «مرصفة – بنها» على الشافعية - رغم أن إحكامه الشديد لوضوئه - حتى أثناء مرضه - تعيدنى إلى قول السيدة نفيسه يوم وفاة الإمام الشافعى: «كان يحسن الوضوء، رحمه الله» وعندما نوهت أمامه أن شهادة والدى للعالمية كتب فيها أنه على المذهب

الحنفى، قال بأنها كانت مذهب الحكام.. ورغم تشدده فى أداء المناسك وكثرة استشهاداته برأى أحمد - الذى ظننت أنه يقصد شقيقه أحمد - قبل أن أتبين أنه الإمام أحمد بن حنبل الإمام المعروف.. فهو ليس بحنبلي. قلت له يوما إنك تشبه مالك بن أنس فى كثير من الأوجه ، فارتاب فى كلامى.. ويهيأ لى من مجمل هذا كله مع تصرفاته أنه على مذهب أهل السنة والجماعة.

والآن فى سنة ١٩٩٦.. وأنا أكتب عنه.. يحز فى نفسى كثيرا أن يوكل غيره فى إمامتنا ويصلى منفردا جالسا على مقعد.. وأرجوه دائما أن يتغلب على مرضه ويعود فيؤمنا، لاسيما وهو يصلي فى المسجد واقفا فيصمت ، وكأنه يقول إن الامامة شىء والصلاة شيء آخر، ذلك أننى أحيانا أراه أمامى بين صف الرجال وهو يحاول الصلاة معنا فيتطوح مرة فيسنده من بجانبه ويثبت أخرى وفقا لحالته الصحية والأدوية التى يتناولها.

ومن اليقين والتسليم عنده كراهته أن يتناول أحدهم سيرة أهل بيت الرسول بغير هيبة ولا خشوع، فقد كان أيام فتوته إذا سمع ذلك ينتفض ويستقيم هادرا بصوته الحاد: «هؤلاء آباء وأمهات المسلمين، فلا تتكلموا عنهم وكأنهم ناس عاديون».. أما مع تقدمه فى السن فقد صار يكشر عن وجهه ويوليه الجهة الأخرى رفضا للحوار، أما إذا قرأت استهلال كتبه فسيهولك هذا اليقين والتسليم، فيخيل إليك

أنك تقرأ لمراهق حديث عهد بالتدين يتحسس خطوه، ويستعين بالأدعية، اقرأ مثلا مقدمته للطبعة الثانية للمتنبي: «الحمد لله حمدا يبلغني رضاه، وإن كان جهد الحمد لايفي بشكر نعمة واحدة من نعمه، اللهم تجاوز عن تقصيري في حمدك ومرضاتك، اللهم إني فقير فاغنني، وضعيف فقوني، وحائر فسددني، ومريض فاشفني، وجاهل فعلمني، وعاص مذنب فتب عليّ إنك أنت التواب الرحيم، اللهم صل على محمد صلاة أزدلف بها إلى مغفرتك، وسلم عليه تسليما يحشرني في زمرة أوليائه ويدخلني في شفاعته يوم لا شفيع إلا بإذنك ، وصل اللهم على أبويه الرسولين الكريمين إبراهيم واسماعيل، وعلى سائر المخلَصين من أنبيائك ورسلك، رب اغفر لي وارحمني برحمتك التي وسعت كل شيء.»

وهو لايطيل التسليم في استهلال كتبه بمعرفة أن القارىء متمهل بطبيعته، ويطيل بها إذا تكلم أمام حشد قلق لسماع الخطبة نفسها كما حدث في الكلمة التي ألقاها عند تسلمه جائزة الملك فيصل العالمية، أو استهلاله لمحاضرته «في الطريق الى حضارتنا».

أما المناسبة التي أكدت لي صدق يقينه واستسلامه فقد وافتني وأنا أرافقه وأسرته في رحلة الحج إلى الأراضي المقدسة . لقد شاهدت كيف يتحول هذا المارد إلى طفل يرتجف من لقاء الله عز وجل ، بل كاد بكاؤه الطفولي يخرجني من الانغماس في هذا الجو

الإيماني، بل لقد خرجت منه بالفعل، عندما وزع أحدهم علينا - أو ل ما أحرمنا - أورادا نلبى بها، إذ وجدت الاستاذ محمود شاكر ما أن قرأها حتى جمعها من بين اصابعنا ثم شطب تلبية زائدة عن المتوجب.. ضحكت لأن دقة التذوق لم تغادره وسط بكائه وارتجافه.

أما ما أحزننى وأبكانى أنى بعد طواف الاستقبال ، وقفت معه أتأمل طواف الملايين حول الكعبة المشرفة، فعن لى ، وكنت وشيكة استكمال معرفتى آتية إليه من وسط مخالف له ، أن أعبر عما أراه وكأنه مشهد بحكم ما تعودته فى عملى ، وقلت: آه يا أستاذ محمود لو صاحب هذا الطقس - أعنى الجو - نوع من النداء او اللحن لاشك أنه سيصل لعنان السماء، ولم أكمل ملاحظتى حتى وجدت الاستاذ محمود شاكر يلتفت إلى رافعا كفه مرتعشا ساخطا : «طقس ياكافرة.. هل هذا «طقس» الكفرة الذين أتيت منهم ؟ إنها مناسك شريفة.. إنها.. إنها..» وقد كان سلوكه المفاجىء لى كضربة كرة فى حائط.. حيث رددت عليه على الفور: هؤلاء أنتم عائلة شاكر .. ألم يصطدم أبوك مع الشيخ محمد عبده ؟!» عندئذ فقط هدأ ليقول لى إنهما ماتا صديقين..

وقد ظل طوال فترة الحج أشعث أغبر، لا يمد يده إلى شعره، ولا جبهته ينفض الغبار عنهما، وكان فى كل مناسبات المناسك يشرح لنا اسبابها، وبعد أن أتممنا السعى بين الصفا والمروة.. وعدنا إلى منى للتحلل، لم يحلق فقط بل حلق لابنه «فهر» ولم يتجاوز

السادسة، وعندما توجهنا في اليوم التاسع من ذى الحجة الى جبل عرفات، تبعنا رجل لا نعرف مذهبه، استقر معنا في خيمتنا، ولكن الأستاذ محمود شاكر أشار لنا بطرف عينه ألا نبادل هذا الغريب الحديث، ولكن سرعان ما أخرج الغريب من حقيبته صفحة جريدة سعودية وقدمها لرفيقنا الأستاذ جمعة ياسين وطلب إليه أن يقرأها.. وكانت قصيدة طويلة في رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبعد ان أتم جمعة ياسين قراءتها طلب منه الغريب تفسيرها .. ولما كان تحذير الأستاذ محمود شاكر مستمرا .. فقد اعتذر جمعة عن عدم المناقشة بحجة أنه لايعرف المعاني، تعجب الغريب : كيف لاتعرف المعاني وانت لم تلحن في حرف طوال قراءتك للقصيدة.. فرد عليه : هكذا أنا اعرف القراءة ولا أعرف المعانى، وتم كل هذا ونحن في عجب من رفض الأستاذ محمود شاكر محاورة هذا الرجل، وفجأة أُذن لصلاة الظهر فقمنا وقام الغريب وراء الاستاذ محمود شاكر، ولكن الغريب سرعان مافتح عينيه في الصلاة، ورأى محمود شاكر وقد ترك صدره عاريا، فما كان منه إلا أن ختم الصلاة واستل نفسه منه ثم اخذ خفه وخرج من الخيمة.. تم هذا كله وماقبله ونحن ذاهلون لا نعرف هذه اللغة الخفية المتبادلة بين علامتنا والغريب.. وبعد تمام الصلاة والدعاء شرح لنا أستاذنا محمود شاكر أن هذا الغريب الذى قال إنه مغربى وأستاذ جامعى ومجاور في الحرم، إنما هو شيعى يريد لنا لا أن نتحاور بل أن نتجادل.. وقد

أمرنا الله أن نتعوذ من شتات الأمر فى هذا اليوم الكريم.. لأن «الحج عرفة» كما قال صلى الله عليه وسلم، ولأن الجدل منهى عنه فى الحج!

ومن بعد هذه الحادثة.. راح علامتنا فى كل مناسبة من المناسك يلفت نظرنا إلى أفعال أمثال الغريب الذى صحبناه فى عرفة.. ففى المدينة وعندما دخلنا إلى مسجد الرسول أخذنا نسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ، لفتنى الأستاذ شاكر فسمعنا جماعة يسلمون على النبى صلى الله عليه وسلم بقولهم :«ياحامل الأذى بين جنبيك» وشرح لى أنهم يقصدون بالأذى - واستغفر الله - ابا بكر وعمر عليهما السلام.. لأنهما حجبا الخلافة عن سيدنا على.. اما عندما كنا نطوف طواف الوداع فقد لفتنى الأستاذ الى جمع منهم وقد تماسكوا بالأذرع والأرجل ووسطهم رجل يصلى على حجرة صغيرة وقال.. إن الصلاة بمحاذاة الكعبة حرام لأنه يعوق فى سير الحجاج والمعتمرين، وهاهم يخالفون السنة، أما هذا الحجر الذى يصلى عليه الرجل الذى يتحلقونه فهو، من كربلاء التى يعتبرونها أطهر من الكعبة رغم أنها بدعة ضلال!

ترى لو أننى أديت مناسك الحج مع غير أستاذى محمود شاكر، إذن لفاتنى كثير من ذخائر ما حزته من المعرفة والمدارك لاسيما عن الشيعة، لأننا بلد لم يعرف هذه النحل منذ عودة صلاح الدين وقضائه على الفاطميين فى مصر، وعودة الأزهر إلى تدريس المذهب السنى!

وكما يعاف الأستاذ شاكر الشيعة.. فإنه لا يقدر العلماء الذين يعتمدون في بعض كتبهم على آراء المعتزلة، كما أنه لا يقر الصوفية لأن الإسلام دين حياة وإن كان لا ينكرها على المراهقين كمرحلة.

وبالإجمال يرى الأستاذ محمود شاكر أن الدين يكون قويا أو ضعيفاً، متهالكا هامدا أو حيا، حسب ما يعتقده أتباعه وما يحسونه ويشعرون به.

شاكر والحرية والثورة والالتزام

إن الأستاذ محمود شاكر لايرفض المادة والتاريخ ، ولايقف إلى جانب خصومهما حتى فيما يعارض روح الإسلام ومبادئه وجوهر دعوته كلها.. لكنه لايقف بجانب الظالمين في مواجهة المظلومين.. ويحكي ابن أخيه في مقالته عن عمه في الكتاب التكريمي السابقة الإشارة إليه: «ذهبت إليه - في ظل تأمل ما خلق الله - منتميا إلى إحدى الجماعات الدينية، فارتضى أشياء ولم ترضه أخرى، أهمها حكاية السمع والطاعة لأحد من خلق الله، في ظل حماسة تنقصها الرؤية والنظر وتحصيل العلم بأمور ديننا ودنيانا الذي هو أساس لكل عمل صحيح».

«وكان أن ذهبت إليه مرة اخرى - بعدها بفترة - في صورة من الفكر السياسي مناقضة تماما لما كنت عليه، ودخلت معه في

مجادلات لا آخر لها، فيها كلها مايخالف رأيه وعقيدته وعلمه، ولكن ذلك لم يكن يغضبه، وإنما كان توجيهه أن على أن أقرأ وأعرف أولا قبل الاندفاع في هذا التيار أو ذاك.. وبالمناسبة فالتيارات (المتطرفة) لدى الشباب عنده تصدر كلها من ينبوع واحد هو «الانفعال الشعرى» أكثر منه الدرس الصحيح، وأن امتلاك «أدوات التفكير» ـ على حد تعبيره ـ بالمعرفة، ينبغي ان يكون سابقا على تكوين الرأى او التعصب.

أما رأيه فى ثورة عام ١٩٥٢ ، فكان هو من أشد المتحمسين لإنجازاتها الاولى فى القضاء على حكم أسرة محمد على وطرد الاستعمار البريطانى ، وتحقيق العدل الاجتماعى ، عبر الإصلاح الزراعى، بل كان من رأيه أن هذا القانون كان شديد التساهل إزاء الطبقات المستغلة التى شكلها محمد على والإنجليز من خدمهم وأتباعهم وعملائهم وأعوانهم على قهر الشعب المصرى واستعباده.

وكان هذا الرأى من جانبه صدمة لفريق كبير من المتدينين من أصدقائه الذين كانوا يبدون حساسية مفرطة إزاء تلك الاجراءات ويحاولون أن يلصقوا بها تهمة (١) مخالفة الشرع، وانتهاك حق الملكية المقدس وأنها تفوح منها رائحة اليسارية المستهجنة لديهم،

---

(١) ألا يذكرنا ذلك بتوقيعه علي برنامج الحزب الوطني الجديد.. فتحي رضوان وتملك الدولة لمؤسسات الإنتاج.

لكنه استمر على رأيه وخطأهم طيلة فترة الصدام بينهم وبين السلطة.. حتى كانت الوقيعة الكبرى بين الفريقين وزُج بالساخطين - إخوان مسلمين وشيوعيين - فى السجون والمعتقلات ، ووصلته أنباء عما يدور فيها من وسائل التعذيب .. فكان له رأى آخر يجاهر به فى كل مجلس ولايخفى سخطه امام من كانوا يعتبرون «شخصيات مسئولة» في الدولة، يحاصرهم باستنكاره لهذا الأسلوب فى معاملة المخالفين ، وأذكر بعض تعبيره فى الدفاع عن حرية الإنسان فى رأيه مهما يكن مخطئا، وأنه لاشىء يسوغ للحاكم أو لغيره أن يمتهن كرامة الانسان من حيث هو إنسان.. ولم يبال بأى نصيحة ليكف عن مهاجمة ماتفعله السلطة ، وتحذيره من مغبتها، وكان ان دخل السجن لأول مرة سنة ١٩٥٣ ، كما دخله مرة أخرى بعدأن نشر مقالاته المعارضة لفكر د. لويس عوض، حيث أغلقت الرسالة «الجديدة» سنة ١٩٦٥.

ويقول الأستاذ عبدالرحمن شاكر إن عمه قال له بعد خروجه من السجن أن نبأ الهزيمة قد دوخه حينما بلغه فى السجن حيث رأى الاستعمار يفعل بجمال عبدالناصر وحركته، مافعله من قبل بمحمد على وحركته، احتواها من الداخل ثم دمرها لمزيد من تدمير الامة ودفع ابنائها الى اليأس من كل شىء.

لذلك فهو يتشيع جدا للرئيس أنور السادات ، فهو الزعيم الذى استطاع أن يحول الهزيمة إلي نصر ، يتشيع له ثم يقول: لقد رفع

الفاصل بين الجغرافيا والتاريخ.. يتشيع له مع التسليم بمساوئ الانفتاح وتعاظم الرغائب عند المصريين، ولا ينكر الدوافع الوطنية للجماعة التي قتلته إلا أنه يؤكد أن المخابرات الأمريكية «C.I.A» كانت على علم بهم وسهلت أمرهم، لقد عمل العدو بكل الحيل على قتل بطلي حرب أكتوبر «السادات» و«فيصل» في عقري داريهما.. فيصل في حضن أسرته.. والسادات وسط أهله وجيشه..

وهذا.. وذاك.. يوضح أن محمود شاكر لا يقف إلى جانب الجمود والمحافظة والتقليد الكلاسيكي، الذي يصمه به أعداؤه وعلى حساب الحركة التي أمر بها الإسلام بتحصيل المصالح وتكملتها وتعطيل المفاسد وتقليلها.. ولن يتم لنا ذلك في رأيه إلا بالاجتهاد الذي تحوطه الضمائر اليقظة والنفوس الجسورة القادرة على التجديد بما يشد أزرنا في لحظتنا الراهنة هذه، ويقيني أن محمود شاكر هو الكاتب الذي حقق الالتزام ، سواء بمعناه العام أومعناه عند سارتر.. لقد كانت ساحة الأدب في وقته مليئة بالأسماء الرنانة.. ولم يكن أحد منهم مثله قادرا على أن يلتزم بهذه الطريقة وبهذا التجرد عن الغاية، في مجابهة الغزو الثقافي الغربي وصده عن حياتنا حتى ارتبطت العربية به وارتبط هو بها.

فبينما كان شابا من أسرة كريمة في رغد من العيش، ترفع عنه مطالب الحياة وشقوتها، يستطيع أن يحيا غرا هائما سابحا في

سماوات الفكر واللهو الصافى مع صحبة زملائة بالجامعة وبعدها يتخرج فيعين مدرسا.. أو يواصل البحث ليكون أستاذا فى الجامعة، لبحثه وترقيته وقت معلوم، نراه بدلا من ذلك يزج بنفسه فى معتركات مهلكة، اعتقد بتلقائية ما صادفه فى حياته أن يوجبها على نفسه.

فنراه حين عزم على البحث عن خلاصه ونجاة أمته، وقد حرس نفسه من أن ينفذ إليها ضعف يحول دون تفعيل طاقاته واستثمار كل حواسه وقواه، فجمعها. حتي استطاع أن يهيىء لفكره فضاء هادئا مستريحا فيه بين آلاف من كتب أجداده سنة بعد أخرى ، نسى نفسه وزهرة عمره وسعادته وثرثرته حتى صار لا يعرف عن نفسه شيئا ، وإذ عن له يوما أن يتحسس ذقنه فذهب ليحلقها.. عندئذ رأى وجهه فى المرآة وقد تكلح.. فحدث ما حدث كبشر لابد أن تتسلل السآمة إلى نفسه من العمل المكرور .. ولكنه ارتد أكثر قوة وصلابة وواصل المسيرة حتى جاء منهجه فى مدة السنوات العشر هذه كعمل من الأعمال الخارقة، صحيح أنه ذكر طى منهجه أو «رسالة فى الطريق إلى ثقافتنا» – أن الجبرتي الكبير قضى عشر سنوات ١١٤٤ حتى ١١٥٤ فى جمع كل العلوم التى كانت تراثا مستغلقا على أهل زمانه، وعكف عليها حتى ملك ناصية الرموز كلها، ولكن عصره ليس كعصر محمود شاكر حيث الشواغل الاجتماعية والسياسية تلهى العابد عن عبادته!

ومع ذلك الإرهاق، وبالرغم من كل هذه الكدمات نجد محمود شاكر

يصف هذه السنوات العشر بقوله: «وقد مضى الشباب وطوى بساطه، ومضت تلك الأيام الغوابر المضيئة فى حياتى حتى كان عام ١٩٣٥، وأنا في السادسة والعشرين من عمرى حيث استوى المنهج واستبان»

ولكن هل وضع قلمه أو سيفه بعد ذلك واستراح؟

تعرفون أن ذلك لم يحدث إلى الآن.. مما يجعلنا نصفه بالثائر والمناضل الثقافى (١) فأنت حينما تقرأ له لا تجد ألفاظا على قرطاس، وإنما تحس بدم يتدفق ويترقرق أحمر قانيا ينبثق حارا فائرا لأنه عاش طوال حياته ممتشقا سيفه المهاب، كاشفا عن صدره لملاقاة أعدائة من المستشرقين والمتغربين من أمته مجابها إياهم ، ومبطلا دعواهم فى استحسان العامية على الفصحي أو كتابتها باللاتينية، شاجبا مناهجهم الفاسدة الفاشية، بغية تمزيق آخر عقدة فى الحبال والأسلاك التى أوثق بها الاستعمار جسد الأمة، وتبديد آخر سحابة سوداء تحجب سطوع الشمس عليها.

ثم ألم يصارح الكاتب محمد عودة عندما طلب منه الرفق بلويس عوض بأن غرضه ليس لويس وإنما هو الدفاع عن أمة برمتها (٢) ، «هى أمتي العربية، وقد جعلت طريقى إلى أن أهتك الاستار التى عمل من ورائها رجال فيما خلا من الزمان، ورجال آخرون

---

(١) فتحي رضوان، «الأسلوب والرجل» الكتاب التكريمي.
(٢) مقدمة كتابة «أباطيل وأسمار» ، الكتاب التكريمي.

قد ورثوهم فى زماننا .. وهمهم جميعا كان : أن يحققوا للثقافة الغربية الوثنية كل الغلبة على عقولنا و ..و ..

ويقول عن مجابهة ذلك كله : «فصار حقا علىّ واجبا ألا أتلجلج أو أحجم أو أجمجم أو أدارى ، مادمت قد نصبت نفسى للدفاع عن أمتى ما استطعت إلي ذلك سبيلا، وصار حقا واجبا أن أستخلص تجارب خمسين سنة من عمرى ، قضيتها قلقا حائرا ، أصارع فى نفسى آثار عدو خفى شديد النكاية، لم يلفتنى عن صراعه شيء ، منذ استحكمت قوتي، واستنارت بصيرتي و ... و ..»

ولكن هل نجح المناضل محمود شاكر بكل جهده البطولى الشاق المضنى والانتحارى في أن يوقظ هذه الأمة العربية الإسلامية من غفوتها ، وأن يجعل الإنسان يتقن عمله حتى يصير أكثر سعادة ؟

لقد نجح فى أن يبلور عبر إنتاجه الفكرى تأليفا وتحقيقا .. رسالته إلى الناس .. حيث رأب صدوعا كثيرة نخرها فى الإرث العربى أصحاب الاستشراق وأصحاب الثقافات الغربية ، وحال دون هدفهم البعيد الغور فى انهيار الكيان العظيم الذى بناه أباؤنا وأورث تلامذته - وهم كثر - على امتداد الساحة العربية والإسلامية - الشغف بالنظر فى الإرث العربى على أنه كتاب واحد ، بحيث لاينشغلون بعلم فيه عن علم ، مع تأكيده لهم على قراءة الشعر العربى ، وبخاصة الجاهلى منه لأنه أفصح كلام العرب، ولأنه مفتاح العربية كلها، كما علمهم ترك الثرثرة بالكلام الغامض والمصطلحات المبهمة التى يتشدق بها الأدباء في مجالسهم

هذه الأيام، كما ركز فى تعليمهم أن يكون عملهم خالصا لمرضاة الله .. وأن يمضوا فى إذاعة ما تيسر لهم من الإرث العربى دون أن يطلبوا به ذكرا عند النـــاس. مع تأكيده على الدقة والحذر فى التفسير عند القراءة (١) .

ولكن ظلت الأسماء التى عملت على انحراف العربية .. وروجت للتسطيح والتلخيص - كالدكتور طه حسين - والتى دخل بسببها عشرين معركة - تطن فى الآذان من كل جهات الإعلام الأربع، وكأنه أبو الهول الثاني لمصر .. مما يجعلنا نصدق أن أصحاب الآراء الإبتداعية الخاطئة لهم حالات شهرة من الدرجة الأولى أما مكتشفو هذه الآراء ومصححوها ، فإن كلماتهم تذهب أدراج الرياح وسرعان ما يطويهم النسيان مع الزمن، وإن كان هذا لن يحدث فى مواجهة محمود شاكر - كما سنرى - بل إن ما روجوه تسطيحا وتلخيصا مازال يغطى الساحة الفكرية .. فالكسالى صاروا يرفضون التراث - بقدر أو بآخر - لأنه لايتفق وحداثتهم أو إطارهم الذهنى المحدد الآفاق بالغرب، والذى لايكلفهم الجهد المضنى ، والثقافة العربية الحقة ليست إلا الجهد الشاق المتعب ، بل لقد سمعت من أستاذ دكتور يشغل الآن . منصبا يحرك المجال الفكرى قولا أغرب من الخيال ، إذ قال بمناسبة الاهتمام بالتراث: «إذا كان إرث الأمة هو والدها .. فعلينا أن نقتله كما قتل «أوديب اليونانى أباه وتزوج من أمه» وإذا ناقشنا هذا القول العبثى

---

(١) من الغريب أن يذكر د. «زويل» - خبير الليزر - في العالم - أن الدقة في الابتداء هي التي كتبت له النجاح .

وكأنه قول معقول ، فسنجد أولا أن أوديب عندما قتل الملك لم يكن يعرف أنه أبوه ، ولم يكن يعرف أن قتله أبا الهول سيؤدى لزواجه من جوكستا - التى هى أمه - أو ارتقائه العربية، ولو عرف هذا ما أراده .

كان بوسع هذه الكلمات ومثيلاتها أن تجعل اليأس يتسلل إلى نفس محمود شاكر وتحيطه فيقوم بحرق مكتبته كما فعل أبو حيان التوحيدى إلا أن هذا لم يحدث لأنه أكثر تفاؤلا . بل إنه يبتسم لمثل هذه الأقوال وغيرها لأنه يعرف أكثر منها هولا، فقد كتب سنة ١٩٤٨(١) أنه يعلم أن بعض رجال السياسة عندنا لايعرفون إلى أين تمضى أهدافهم، وهم فوق ذلك قد لوثوا ضمائرهم وعقولهم وأخلاقهم وعزائمهم بأشياء لايمكن أن تؤدى إلى خير ، وهم أشربوا فتنة بأخلاق الطغاة التى امتحن بهم الغرب .

وهو (٢) يعلم أن بعض رجال العلم، من أى أقسامه كانوا ، لايزالون يتعبدون أنفسهم لكثير مما لانفع فيه لأممهم ، بل يبسطون ألسنتهم بسطا شديدا ، فيصفون شعوبهم بالفقر والجهل والمرض ، ثم يصرفون وجوهم إلى أوربا وأمريكا . كأنهم منها ومن صميمها .

ويعلم أيضا أن بعض أهل السلطان فى هذا الشرق لايزالون يعيشون فى عزلة لايبالون قليلا ولاكثيرا بما فيه خير بلادهم.. وهم فئة قليلة فتنتها النعمة والترف واللذائذ ، حتى لاتبالى أن تصب على أممها ضروبا من المظالم .

بل (٣) يعلم أن أهل الدين - إلا من رحم ربك وعصم - قد رعوا

---

(١) ، (٢) ، (٣) من مقال «لمن أكتب» المنشور بمجلة الرسالة سنة ١٩٤٨ .

بدينهم ظهريا ، وإن لبسوا لباسه وشبهوا على الناس وغروهم باسم الدين . وهم يأكلون باسم الدين نارا حامية .. وبذلك أصبحوا كالعامة التى تحتاج إلى من يقودها ويهديها .

ومع كل هذا الفساد الذى عم جميع المجالات ينادى الكثيرون بالثورة الثقافية ولكننا نجد مفكرا كبيرا ، كالدكتور جمال حمدان ، ينادى فى كتابه «شخصية مصر» بأننا لانحتاج إلى ثورة فكرية ، وأخرى سياسية، وثالثة اجتماعية .. بقدر ما نحتاج إلى ثورة على أنفسنا .

أما أعمال شاكر جلها فتقول : إننا قوم لاتعوزنا الثورات والانقلابات وإنما يعوزنا الرجوع إلى أسلافنا . أعمالهم ورجالهم، وأخلاقهم ، حتى نواصل ماحققوه .

ملامح في نفس محمود شاكر

إذا كانت الأيام قد أنضجت محمود شاكر فكريا .. فدرس وألف ونقى وترك للتاريخ ثمرة حياته ورسالة عمره .. إلا أنها التهمت كل نضجه الوجدانى، وتذكرون أين كان فى العاشرة، والثالثة عشر، وفى وفى .. لذلك تراه وسط ظهرانينا طفلا مايزال فى السادسة والثمانين، أو التسعين هجريا كما يحلو له أو حين نتمنى لعمره أن يطول المائة بكثير جدا إن شاء الله .

نعم وأقولها عن معايشة ربع قرن .. إن محمود شاكر عندما يمسك القلم غير محمود شاكر وسط مريديه وأهله وعشيرته .. ففى بداية

معرفتي به مثلا كتلميذة سابقة للدكتور محمد مندور .. كان يغايظني مداعبا فينتقده قائلا : كان رحمه الله «يحرث فى النقد كما يفلح الريفى فى الحقل» .. فأجبته . ها أنت تحقق ماقاله عنك . فاستفهم؟ قال أنك كنت زميلة فى الجامعة، ولكنك جننت في السنة الثانية .. بل إنك أنت المجنونة . ولاشك، ومع ذلك فإن محمود شاكر عندما أمسك القلم وكتب عن مندور .. تراه قد كتب عن صديق يجله ويحترمه يذكر ماله وما عليه.

ومن هنا أقول أن مثل هذا الرجل إذا صدرت منه أى هفوة عابرة سرعان ما أعيدها إلى طفولته الأبدية ، لأنه لو كان يحتد أو ينفعل عن سوء طوية ، لأثر ذلك فى أعصابه ودمرها، وهذا لم يحدث بحمد الله ، بل انه الطفل يريد التفاحة سليمة وإلا رماها على طول ذراعه ، ومن هنا نستطيع أن نفسر اعتزاله المجتمع الذى حفظ كرامته وكرامة قلمه إلى غضبة الطفل إذا مس أحدهم متاعه الأثير، وكأنه يباهيهم بأنهم لم يحوزوا ماحازه من العلم .

تابعه هنا يودع حبيبته «التفاحة الكاملة» التى آلمه فراقها كثيرا ستجده لايبكى على أطلالها أو يروح ليدمن شيئا يلهيه عنها ، بل يرميها على طول ذراعه أو على حد تعبيره عن «الفرزدق»: كان فحلا من فحول الشعر ، كان ينفض الشعراء بلسانه نفض النداف ضريبة القطن، بعد ذلك يضعها على السفود» .. أو على الأصح يطبق على العلاقة منهجه التذوقى وكأنه نص ، يريد التبحر فيه ، وليس آدميا يجب أن يغفر له .

اقرأ هذه القصيدة وهى بعنوان «لاتعودى» : .

لاتعودى أحرق الشك وجودى .. لاتعودى
اذهبى ما شئت أنى شئت فى دنيا الخلود (١)
واتركى النار التى أوقدتها تقضم عودى
هى بدر وسلام يتلظى فى برودى !!
فاأسعدى فى شقوة الروح ولكن لاتعودى

، و ، و

أنت والأقدار !!! كم قاسيت منهن ومنك
هى تأتى بيقين خائن فى إثر شك
ثم أنت الشك فى إثر يقين لم يخنك
وأنا سائلك الحيران عنهن وعنك
فأجيبى واذهبى إن شئت لكن لاتعودى
اللظى زادى !! فهل ينفعنى زاد مميت؟
اللظى روحك ؟ أم روحى سعير مستميت؟
كلما مرت به النسمة من وجدى حييت؟
أهى تحيينى إذا مرت بنارى أم تميت!!
خبرينى ، واذهبى إن شئت لكن لاتعوى

ويستمر الأستاذ محمود شاكر على طول ستة عشر مقطعا مختلفة يجيل النظر فى علاقته بهذه الحبيبة وما أشاعه هجرها ووداعه لها من ألم.

---

(١) تشي هذه اللفظة أن الحبيبة مبدعة .. تبحث عن الخلود .. فتفارقا.

وقد يتناول التكرار في هذه القصيدة دارس لعلم النفس فيقول: إنها تدل بلاشك على أن صاحبها من أولئك الشخصيات الحوارية .. أولئك الذين ينظمون الحياة وفق مشيئتهم ، بحيث أن أى اختلال ولو كان بسيطا لأدى هذا الاختلال التنظيمى إلى إثارة القلق ، لأنهم مرتبطون بالقواعد ، القاعدة عندهم مقدسة، يا ويل من يخرج عنها أو عليها، لأنها حماية وأمانة عندهم ضد القلق والاضطراب .

وهنا أتذكر قول الدكتور عبد الصبور من أنه عندما ترجم كتاب «الظاهرة القرآنية» للمفكر الجزائرى مالك بن نبى - وكان مهندسا كهربائيا اشتغل بالفلسفة - خاف من أن يخالف المؤلف فى رواية النصوص فكان يترجمها كما هى على مسئولية المؤلف ، وعندما ذهب يهديها إلى الأستاذ محمود شاكر - وهو صديق للمؤلف - وتصفحها وتمعن فى بعض صفحاتها ، التفت إلى وشوانى شيا على السفود - كما يقولون طيلة ثمانى ساعات من الظهر إلى ما بعد العشاء.. علمنى فيها أن على المترجم أن ينقل النص بالعربية التى تليق وليس بالعربية التى تحاكى النص الفرنسى، فهذا نمط من الحرفية يضر أكثر مما ينفع بحيث تستعبدنا النصوص التى يرويها المستشرقون ومن لف لفهم، فإذا كانوا يتكلمون عن آيات قرآنية أو أحاديث نبوية فينبغى أن نتتبع هذه النصوص فى مظانها وأن نحققها ، وأن نأتى منها بالصحيح وأما الخبيث فننفيه أو نعلق عليه .

ويقول الدكتور عبد الصبور شاهين فى حديث إذاعى أنه بعد هذه

الجلسة قام متوجها إلى بيته : «وحملت فى تلك الليلة صحائفى تحت إبطى كأنما أحمل خيبتى تحت ذراعى ، وأنا أبكى من مصر الجديدة إلى الإمام الشافعى – تخيلى : يقول للمذيعة – وسرت فى تلك الليلة وحدى لا أدرى بالطريق من الدوامة التى لفتنى، وشوانى، وأقول شوانى شيا مازالت أشعر بآثاره حتى الآن» .

ويردف الدكتور عبد الصبور فيقول : «ثم عدت إليه بترجمة أخرى لكتاب الظاهرة القرآنية .. والتى ترجمتها طبقا لمنهج الأستاذ محمود شاكر فشرفها بأن كتب لها مقدمة ، مع أنه ضنين فى كتابته لهذه المقدمات ».. أى أن شاكر غفر له وصالحه .

وإذا كان الدكتور عبد الصبور وصف عنف كلام محمود شاكر عليه بأنه سار باكيا فى الطريق بين مصر الجديدة إلى الإمام الشافعى .. فإن آخر كان نائبا لرئيس الجمهورية أرجع سبب استقالته من هذا المنصب بسبب عنف كلام محمود شاكر ، فقد حكى الأستاذ حسن الباقورى (١) : «لقد استدعانى عبد الناصر وأسمعنى تسجيلا لأحد أصدقائى المقربين والتسجيل بصوته يتحدث مع الأستاذ يحيى حقى ، الذى يبلغه أن عبد الناصر رفض الوساطة له بأن يبقى سفيرا ، فرد عليه محمود شاكر بالقولة المعروفة : يمتحن الحر بأبناء «.....» ولما كانت المخابرات قد قوى جناحها وصارت تتجسس على الأماكن التى يتردد

---

(١) كتاب «ثائر تحت العمامة» لنعم الباز، الهيئة العامة للكتاب .

عليها الوزراء ، فقد اعتبروا أن التعبير الذى استعمله محمود شاكر كان يسب عبد الناصر فى عرضه وحينما استنكر يحيى حقى هذا الأسلوب منه قال له محمود شاكر: «جبان وخائف من عبد الناصر .. والشيخ الباقورى جنبى أهو سامعنى»، وكنت أصلى وعندما فرغت كانت المكالمة قد انتهت .. فقلت له يا أخى ذلك عيب ولايصح، ولكن التسجيل قد انتهى، ثم ذهب الى بيته ومكث فيه لايغادره خمس سنوات وخمسة شهور وخمسة أيام .

وأذكر من قبل هذه الأحداث أننى كنت يوما فى طريقى للأستاذ محمود شاكر فقابلت الدكتور عبد الغفار مكاوى، فعرضت عليه أن يصحبنى .. فرد معتذرا : هل أذهب إلى من جعلنى أخاف الإمساك بالقلم لمدة سنتين ؟ ولذلك ما يبرره فقد كتب الدكتور عبد الغفار مكاوى لمجلة «المجلة» عن الشاعر الألمانى جوتة - كما ألمحنا - : أما الخطأ الذى وقع فيه الدكتور عبد الغفار عندما ذكر قصيدة الشاعر العربى «تأبط شرا» التى تأثر بها جوتة ، فقد ترجمها عن الألمانية ولم يرجع الى النص الأصلى العربى للقصيدة مع هفوات فى الترجمة : ورغم اعتذار الأستاذ يحيى حقي - الذى كان رئيس تحرير مجلة المجلة وقتئذ - إلا أن الأستاذ محمود شاكر كتب أربع مقالات شديدة اللهجة أحزنت الدكتور عبد الغفار حتى أنه فكر فى اعتزال الكتابة .

وعندما وصلت إلى بيت الأستاذ محمود شاكر حدثته عمن قابلته فقال لى :

إنه – أى الدكتور عبد الغفار – رجل طيب .. ألا يعرف المثل القائل: دواني بالتى كانت هى الداء» وقد نقلت هذا إلى الدكتور عبد الغفار فوافق على ذلك .

وعندما سألته : لم لم تأت معى يوم الجمعة الذى قابلتك فيه ؟ «قال: الحق أن أصدقاء لى ألمان كانوا يزورون مصر ، فأردت أن أطلعهم على المتحف الإسلامى، ولكنه كان مغلقا فقد كان يوم جمعة» .. ولما أفضيت إلى الأستاذ محمود شاكر بما حدث . فقال : «إن هذا يثبت مأخذى على هفواته .. فهو رجل نَسَّاء بجانب طيبته .. وهذا غفران آخر» .

يومها همسته لأقرب زميل لى فى الجلسة وكان الشاعر حسانى حسن عبد الله : وهل يتسع صدر محمود شاكر ويتسامح ليشمل أحد الرجال كالأستاذ عبد الله القصيمى الذى كتب عن العرب كتابا ضخما مضمونه وعنوانه «العرب ظاهرة صوتية» ؟ فقد هيىء أن المقابلة ستنتج عنها نافورة من الشرر تسقط شظايا علينا جميعا فنهاني حسانى عن محاولة تحقيق مثل هذا اللقاء ، والذى لن يتم ، وكانت حدة رد حسانى ملفتة لنظر الأستاذ محمود شاكر فسأل حسانى عما كنت أهمس به إليه، فأفصح بوجل عما كنت أعتزمه ، ومن العجب أن الأستاذ التفت إلىّ قائلا : «ولماذا لا تصحبيه معك يوما ، إنه رجل فاضل كتب أعظم كتاب عن الشيعة» قلت لنفسى : يبدو أن الأستاذ محمود شاكر – ويا للعجب – لم يطلع على التطورات التى حدثت فى أفكار الأستاذ القصيمى والتى أفضت به إلى أن يصدر كتابات متطرفة مخالفة لما ورد

فى كتابه عن الشيعة .. حتى أن المجلات التى تنشر مقالاته تمنع من الدخول الى البلاد العربية .. وفكرت أن أصطحب الأستاذ القصيمى يوما إلى منزل شاكر فأحظى بلقاء تاريخى مشهود بينهما .

ولأن جلسة الأستاذ القصيمى - وهو جارى فى السكن - تكون يوم الجمعة ، فقد انتهزت فرصة وجود الأستاذ محمود شاكر فى المغرب لقضاء فترة النقاهة بعد إجراء عملية جراحية لعينه في أسبانيا . عند الطبيب المشهور «باركير» بعد أن أرهقت عيناه من طول القراءة والتحصيل، ثم من المغرب الى أسبانيا لاستكمال العلاج .

اتصلت بالأستاذ القصيمى لأعلمه بأنى سوف أزوره يوم الجمعة الآتى ، وبالفعل ذهبت إليه ، فبادرنى : ما هو سبب حضورك بعد طول انقطاع من سنة ١٩٦٩/١٩٨٢ وقبل أن أجيبه ، فاجأنى قائلا: إياك إياك أن يكون حضورك لتحقيق غرضك فى ارتطامى بالأستاذ محمود شاكر .. دهشت لذلك واحترت فى كيفية معرفته لذلك ، ثم تذكرت أننى كتبت عن هذه الأمنية فى مقال ، ثم أردف الأستاذ القصيمى : لقد أتى أصحابى بمقالك المنشور بمجلة الدوحة القطرية .. وقد حذرنى عالم سعودى جليل هو صديقى وصديق الأستاذ محمود شاكر قائلا : احذر أن تقودك عايدة لهذا الصدام الذى لن تتحملاه ، معا على أرض واحدة يعد ضربا من المستحيل وإن المكان الوحيد لوجودكما كما معا هو اللقاء على الورق .

عند ذلك ابتسمت لأن مقالى وجد أذنا مصغية ، وكففت عن أى طلب

وأخذت أتحاور مع جلساء ندوته فوجدت لحوارهم طعما مختلفا عما كان من قبل ، فلقد كنت أشعر بذوبان هشاشة حلاوة «غزل البنات» في فمي وابتسم عندما كان يشتطوا في الحديث عن المقدسات .. أما في جلستي هذه فكنت أشعر بالغضب والضيق فأعارض وأدافع بحدة عن المقدسات مما دعا أحد الجلساء - وهو من اليمن الجنوبي - أن يقول : الظاهر أن الكويت ثبتت إيمانك - وكنت وقتها عائدة من الكويت حيث كنت أعمل - لكن الأستاذ القصيمي قال: بل إن أستاذها محمود شاكر وراء ذلك .

وعندما نقلت مادار في الزيارة إلى الأستاذ محمود شاكر بعد عودته من العلاج ، نهاني عما كنت أحاول تنفيذه ، لأنه تأكد من تحول الأستاذ القصيمي نهائيا عن كتاباته القديمة، فكان الرفض من الجانبين.

واذا كنت لم أحقق هذا المطلب لنفسي.. فقد حققت مطلبا آخر أكثر منه صعوبة .. فقد كنت قد عاهدت نفسي أن أزور الشاعر عبد الرحمن صدقي بعد انفضاض من كانوا حول كرسيه - كل يوم أحد بمصر الجديدة - فقد حدثت حوائل عن أن أزوره فترة، وعندما زرته يوم جمعة وأنا في طريقي للأستاذ محمود شاكر استقبلني متهللا وهو يقول: «والله لقد أنقذت حياتي من الموت يا عايده.. لقد خلت أنك أيضا قد قاطعتني».. قالها وشاب صوته نبرة حزن عميق تنبئ بتحرقة في وحدته، فتأسفت وعرضت أن أخرجه من هذه الوحدة بأن يصحبني إلى الأستاذ محمود شاكر، فتردد فترة قبل أن يقول لي: ليس قبل أن تعلميه بذلك، أو

تبقى معى، لم أعرف سبب ذلك، فاتصلت بالأستاذ محمود شاكر أعلمه بأنى سأقضى اليوم مع صدقى وزوجته، ولكن محمود شاكر رد بعفويته وطفولته: «ولماذا لا يتفضل هو بزيارتى» .. وكان .. وكانت جلسة شيقة للطرفين.

ولما هبط المصعد بالأستاذ صدقى مغادرا منزل شاكر .. التفت أنا إلى الأستاذ محمود شاكر قائلة: إن الأستاذ صدقى كان متخوفا من زيارتك، فقال: أعرف ذلك ومتأكد منه.. فسألته: لماذا؟ قال: إن لهذا تاريخا، فعندما عملت كمدير لتحرير مجلة المختار «ريدرزدايجست» كان على أن أكثف أطول ترجمة مقال إلى صفحة أو صفحتين على الأكثر، وعندما فعلت ذلك بترجمة الأستاذ صدقى ثار وأربد وسأل عمن فعل ذلك.. وحين عرف شتمنى.. وهو متأكد أن هذا كله قد وصلنى.

أما عندما اصطحبنا - صدقى وأنا - صديقه الكاتب المترجم الكبير على أدهم، وكان لدى الأستاذ محمود شاكر صديقه التليد يحيى حقى - أو جاء بعدنا لا أتذكر- فحدث أن تكلمنا فى موضوعات شتى طالت أربعة أقران ثقافتهم واهتماماتهم المتباينة، وفجأة توقف الحديث عند جمال الدين الأفغانى، فقد كان لويس عوض ينشر هجوما عنه بالأهرام ، وجدتهم كلهم يتعجبون من غموض هذه الشخصية، قال يحيى حقى - على ما أذكر - أن هذا الرجل نزل إلى بلاد شتى..

فرنسا ، تركيا، روسيا، إنجلترا، ومصر.. وفى كل مرة كان سكنه هو «الجيتو» أو حارة اليهود و«الخرنفش» في مصر،» ثم استدرك صدقى قائلا: بل إن مذكرات ابن أخيه - أو أخته - عنه ذكر أن هناك شهرين فى السنة كان يغيب فيهما الأفغانى عن خريطة الوجود المعروف لدى عارفيه، ويعده نوه الأستاذ على أدهم إلى ماسونيته، وأنه كان - ربما - عميلا صهيونيا ثم دلل على ذلك بأن السلطان عبد الحميد لم يضع له السم فى علاج أسنانه إلا بعد أن عرف بصلته «بهرتزل» و.و... وأخيرا قال شاكر : لماذا تحتارون وتتلمسون .. سأريحكم وأذكر لكم أن الأفغانى والشيخ محمد عبده أغريا والدى بالانتساب إلى الماسونية ورفض وقاطعهما فى الوقت الذى يرى البعض أن الأفغانى ومحمد عبده استهوتهما الماسونية فى البداية من زاوية مظاهرها الأخلاقية والتطوعية لفعل الخير، وعندما اكتشفا مراميها البعيدة والخبيثة انفضا عنها!

قلت - مشاكسة - الأستاذ محمود شاكر : أخيرا تلاقت آراؤك مع آراء لويس عوض .. فقال: لا لم تتلاق، فأنا أذكر ماسونية الأفغانى للحقيقة.. وهو يذكر الأفغانى بسوء ولحساب الجنرال يعقوب، وقد يستمهلنى أحدهم ويسأل: ها أنت تذكرين من وقعوا ومن نجوا من مراجعات شاكر ولا تذكرين ما حدث معك.. رغم أنك أفصحت أنك هدمت جدار الغربة سريعا بينك وبينه .. بل أنك كنت تشاكسين أيضا.

وأقول: لقد تحملت كثيرا لدرجة أننى فكرت أكثر من مرة أن أتوقف عن زيارتى له وان أكتفى بقراءة ما يكتبه كما كنت أفعل قبل تعرفى به، وعندما كنت أحاول ذلك، كان دائما يسترضينى فأعود مرة أخرى.

وكان وقع كلامى عليه يختلف تبعا للحاضرين الذين يتصادف وجودهم فى لحظات المشاكسة، فإن كانوا ممن يرتاح لهم ويحبهم فإنه يكون متسامحا جدا معى إذا كانت مشاكستى له من قبيل الاقتصاص الضاحك لهم وكانوا ممن راجعهم يوما، أما إن كان بين الحضور من لا يرتاح لهم .. كما حدث يوم أن شاكست قولة الأستاذ «يحيى حقى» بأنه تعلم من الأستاذ محمود شاكر سليقة اللغة العربية و.. و.. حيث زل لسانى بأن الأستاذ شاكر لا يعرف كثيرا من معارف يحيى ، يومها كتم غيظه إلى أن ترك هؤلاء المجلس فالتفت إلىّ ليعاتبنى مرة ثم يقلب الأمر على وجه آخر فيعاتبنى مرة ثانية، وثالثة ورابعة حين أستقل العربة وهو يوصلنى مع أسرته، وأخرى عندما أودعه لأدخل بيتى، ثم يتصل بى فى اليوم التالى ليقول إن يحيى علمنى الكثير ولكنى نسيته، أى أنه صالحنى.

بعد هذا لم يعد فى استطاعتى البعد عنه وعن مجالسه، لأن تكرار مغاضبته وتكرار إرضائه لى، قد أبانا عن جوهره الثمين، ولم يكن تعنيفه لى بهدف إغضابى ولكنه يتمثل فى عبارة كتبها يوما: أن

من يخوفك حتى تلقى الأمن أشفق عليك ممن يؤمنك حتى تلقى الخوف!

إن غضبه الثائر لم يكن إلا قشرة خفيفة تخفى تحتها روحا متسامحة وطيبة عميقة لاحد لها، وأتمنى من كل قلبى أن أعرف كل من نقدهم بطبعه الحقيقي، وهو الغفران الذى لا نهاية له، والذى يود به أن يصالح كل من نقدهم ويطيب خاطرهم ويمسح أثر كلامه باحتضانهم.. وما أقول ذلك تبريرا لعدم القدرة على مقاطعته بل أقوله عن تجربة عايشتها.

ذلك أنه فى يوم من أيام عيد ميلاده «عاشوراء» حيث يجتمع حوله تلاميذه ومريدوه وأصدقاؤه وعائلته.. هذا يلقى كلمة وهذا ينشد قصيدة، جاء على لسان أحد الحاضرين الحديث عن التلاميذ الذين قاطعوا صاحب الحفل.. فما كان من الأستاذ محمود شاكر إلا أن بكي بحرقة، لأنهم لم يفهموا طيبة قلبه عندما كان يغلف إرشاداته لهم بالعنف.

وربما تذكر الأستاذ محمود شاكر فى هذه اللحظة، مقاطعة تلميذه الأثير ناصر الدين الأسد يوم أثبت مغاضبته لأستاذه فى كلمته للكتاب التكريمى[1] حيث قال: «والمسارعة إلى الارتياب فى الناس، والحدة فى الطبع، وعنف القول شأنان عرفناهما فى هذا العالم الجليل، فقد كانت

---

(١) كتابات «دراسات عربية وإسلامية، مهداة إلى أديب العربية الكبير أبى فهر «محمود محمد شاكر» بمناسبة بلوغه السبعين»، مطبعة المدنى القاهرة ١٤٠٣هـ /١٩٨٢م.

تشن علينا من حيث لم نكن نحتسب، وما أكثر ما كنا نطلب رضاه فى أمر فإذا هذا الأمر يصبح ذاته مبعث سخطه حتى إذا ما سخط هاج عظيما لا يترك أحدا ينجو منه حتى أقرب الناس إليه وأعزهم لديه، فيحطم كل وشيجة، ويدمر كل صلة».

ورغم أن الدكتور ناصر وضح أنه «إنما ذكرت ما ذكرت وأطنبت فيه لأفسر جوانب من صفات هذا العالم الجليل والتى كانت سببا فى أنه لم يغن المكتبة العربية بما كان يتوقع ممن كان في مثل علمه، وسببا فى توقفه عن إكمال ما بدأه من كتب وبحوث: فكثيرا ما كان يركبه حران يمسكه عن المضى فيما كان شرع فيه فيتخلف، وقد كان السابق، ويسيطر عليه ما يجعله يبطئ به عن الشروع فيما كان حقه الشروع فيه، وكان يستبد به هاجس ارتياب فى الناس وعلاقتهم به .. يتدرج به من مرحلة إلى مرحلة حتى يفضى به إلى رفض كل ما يقترحونه ويعرضون عليه أو يشيرون به من قيامه بعمل علمى أو نشرهم له، إلى أن أصبح فى السنوات الأخيرة يستقل وحده بالأعمال كلها، فهو المؤلف أو المحقق، وهو الطابع بمطابع خاصة، وليست بدور نشر، وهو الموزع لما يطبع مستعينا بأصدقائه وتلاميذه في بعض الأقطار العربية».

حزن محمود شاكر من هذه الكلمات التى قفزت من تحت سن قلم تلميذه الأثير ورفعها من النشر فى الكتاب التكريمي، ضاربا بكل ما جاء بها من حسنات مثل قولة الدكتور ناصر: وعلى ذلك فإن ما أصدره

هذا العالم الجليل من نفيس النتاج، شرحا وتحقيقا وتأليفا، ليعد ذخيرة عظيمة حقا من حيث عددها ومن حيث قيمتها على مدى خمسين عاما متواصلة منذ نشر عام ١٩٣٠ فصلا من كتاب «الأم» للشافعي في جريدة البلاغ و.. و...

وربما نجد ما يساند هذا الكلام عن الحدة في محمود شاكر في كلام صديقه فتحي رضوان وصفيه الدكتور محمود الطناحي.. وإن كان قد بررها كل من وجهة نظره.

فالأستاذ فتحي رضوان عرف الخطوط الرئيسية في شخص محمود شاكر بأنه: «أولا صعيدى.. ثم مصرى ، ثم عربى، ثم مسلم، وعلى ذلك تكون «خاصية الغضب النفسية والخلقية التى تبرز من بين خصائصه وصفاته الأخرى، هى رد فعل صادق ومباشر لهذه الانتماءات، فهو يتقلب على مثل الجمر، لما يراه من مظاهر الضعف والانحلال، والهزيمة والاستسلام، الجهل والادعاء فى الأركان التى تقوم عليها حياة أهله وقومه، وأخذ الأمور كلها - ما دامت تهمه وتحرك وجدانه - بالشدة والصراحة والصرامة، إلى حد الإيلام أحيانا . ولكنك لا تخطئ فى جميع الظروف طيبته وبساطته وربما سذاجته».. وأقول أنا: «وطفولته».

أما صديقه الدكتور محمود الطناحى[1] فقال: «ودعوى حدة

---

(١) كتاب الدكتور محمود الطناحى «مدخل إلى نشر التراث» وقد ألمحنا إليه من قبل.

الأستاذ وبأسه وتعاليه من الكذب الخبيث. ولقد عرفت هذا الإمام الكبير وخالطته فى غضبه ورضاه سبعة عشر عاما - ظهر الكتاب ١٩٨٤- كنت خلالها قريبا منه جدا، وأشهد أننى ما رأيت مثله، فى صفاء نفس، ونقاء قلب.. تراه فى حال غضبه ثائرا فائرا كسماء مرعدة مبرقة، فإذا ألقت سماؤه بأوراقها عاد كنسمة هادئة فى إثر ماء طهور، وإذا الذى بينه وبينه عداوة كأنه ولى حميم و.. و.. وأعود إلى تلك الحدة الكاذبة المزعومة، فأقول نعم.. إن فى شيخنا حدة، ولكنها تظهر منه إذا انتهك حد من حدود العلم، فهى الحدة التى جاءت فى الحديث الشريف، «الحدة تعترى خيار أمتى» وقال مجد الدين بن الأثير: الحدة كالنشاط والسرعة فى الأمور والمضاء فيها، مأخوذة من حد السيف والمراد بالحدة هنا المضاء فى الدين والصلابة والقصد فى الخير ومنه الحديث «خيار أمتى أحداؤها» وهو جمع حديد «شديد وأشداء» و.. و.. ومهما يكن من أمر فقد حارب الأستاذ محمود شاكر، فى جبهات كثيرة، كما رأيت وهو صلب عنيد فاتك، ألقى الدنيا خلف ظهره ودبر أذنيه، فلم يعبأ بإقبالها أو إدبارها .. وكان ما كان من إقصائه من محافل الأدب وعضوية المجامع، ومؤتمرات الفكر، وبريق الجوائر، فلم يزده ذلك إلا إصرارا وثباتا، ووقف وحده فى ساحة الصدق شامخ الرأس مرفوع الهامة، يرقب الزيف، ويرصده، ويدل عليه، ولم يجد خصومه وأعداؤه فى آخر الشوط إلا أن ينفروا الشباب عنه، ويبغضوه إليهم ، بما أشاعوا عنه من

حدته وبأسه وتعاليه، فنكص من نكص مسيئا فى نكوصه وثبت من ثبت محسنا فى ثباته.

على أنه رغم بلوغه الرجولة الكاملة - أى التعادل الذى ينسيه كل الأفكار المؤلمة - ورغم تقدمه فى تجربة الحياة.. وخبراته وإنتاجه الذى عم وطف.. ورغم أنه صالح الدكتور طه حسين كما أورد فى كتبه بل إن الدكتور طه هو الذى رشحه لعضوية المجمع... وكأن المرارة التى تخلفت فى نفسه من هذه التجربة كانت من القوة بحيث لم تفلح كل نجاحاته فى محوها من نفسه.. محققا بذلك ما قاله الأستاذ النجمى أن غضبته مع طه حسين.. تفسر ما كتبه أو قاله أو عمله طوال حياته الأدبية المريرة الوارفة الظلال، فهو حين أدرك أن ميول ابنه فى الالتحاق بكلية الآداب قسم اللغة العربية - التى كان طالبا فيها من قبل - علمية كأبيه فى سنه . لكن انزعج لذلك.. فرضخ الابن إلى رغبة أبيه، بل إن الأستاذ محمود شاكر أخذ يشجعه على التفوق حتى كان الطالب الوحيد بقسم الامتياز.. وأعفاه هذا من المرور بمرحلة الدبلوم التمهيدى للماچستير.. فكان وقتها أصغر المعيدين سنا بهذا القسم.. وكأن محمود شاكر يقول للدكتور طه .. ها هو بضعة منى يفوق كل دفعته فى التخرج.

ويوم أن هيأ القسم الأول «سيمنار» أو محاضرة يلقيها فهر على الأساتذة والمعيدين، عن «الأسطورة فى الشعر الجاهلى» صالح محمود شاكر» جامعة فؤاد الأول - القاهرة الآن - بعد أكثر من ستين عاما

سنة ١٩٨٩، يومها خرج بعد أن استمع إلى فهر منتشيا فخورا ودودا.. فقد أدرك أن غرسه الإنسانى والثقافى قد أينع فها هو ابنه فهر يخطو أولى درجات البحث الأدبى الشاق بقدمين ثابتتين.

فى هذه اللحظات كان الأساتذة - بعد أن فرغوا من الإبن - قد تحلقوا حول الأب سائلين إياه عن شعوره وهو داخل الجامعة مرة أخرى بعد فراق زاد على ستين عاما، منذ ١٩٢٨ «إثر احتدام الخلاف بينه وبين أستاذه الدكتور طه حسين».

وربما لأن هذه الذكريات.. وتلك الواقعة على وجه التحديد كانت توجع مشاعره.. فقد أخذ يسوف فى الإجابة - على عادته - عندما لا تكون محببة إلى نفسه أو لا تنسجم مع حالته النفسية، أو لأنه يعف عن خوض مسأله خاضها من قبل مرارا وتكرارا، فهو تارة يتطلع إلى أبهاء الجامعة ثم يقطع انتظار الإجابة عن السؤال الذى يحاصره، بقوله: «لم يكن عالمى بالأمس على ما هو عليه عالمكم اليوم».. ينظر إلى أبهاء جامعة القاهرة - الآن - من حوله ثم يواصل حديثه عن عالمه هو: «كانت كلية الآداب التى درست فيها هى قصر الزعفران التى تحولت من بعد إلى مقر إدارة جامعة عين شمس. وكان الملك فؤاد الأول قد أخلى هذا القصر ضمن عديد من قصور أسرة محمد على لاستيعاب كليات الجامعة التى حملت اسمه».

ويحاول أحد الأساتذة أن يستنهض ذكريات الأستاذ شاكر حول الجامعة، وأنها كانت قد تبرعت بها الأميرة فاطمة إحدى أميرات الأسرة

المالكة، لكنه لا يستجيب لنداء الذكريات بل يذكره اسم فاطمة بابنته زلفى، فيبحث عنها بعينيه وسط الحاضرين حتى يجدها، فيقدمها إلى الجميع: «هذه ابنتى زلفى التى ستنتهى دراستها بكلية التجارة».

سأله أستاذ آخر فى دهشة: «كنا نظنك لفهر فحسب، لأنك توقع على معظم كتبك بأبى فهر وكأنه وحيدك».

هكذا حاول الأساتذة أن يستحثوا ذكرياته وهو يدخل الجامعة لأول مرة فى أعقاب خلافه مع الدكتور طه حسين.. وحين أدرك أخيرا أنه محاصر ولا سبيل للمراوغة عندئذ قال: «بادئ ذى بدء أود التأكيد على أن خلافى مع الدكتور طه حسين شئ.. ودخول فهر كلية الآداب شئ آخر فقد قلت لفهر الذى يعلم عن هذه الحادثة. ويقرأ عنها كثيرا: إنك ما دمت قد ارتضيت الجلوس إلى مقاعد الدرس فلابد أن تحترم أساتذتك وتجلهم، وتستمع إليهم وتناقشهم بالحسنى.. وللعلم فإنى رغم خلافى الشديد مع طه حسين لم أشعل يوما سيجارة فى حضرته.. ولا وضعت ساقا فوق ساق وأنا جالس أكلمه فى أى موضوع بعد ذلك».

وعندما سأله الدكتور «عبد المنعم تليمة: » هل تنصح «فهر» ألا يأخذ عنى شيئا لاختلافنا البين فى الاتجاهات السياسية والفكرية، عندئذ تأبطه الأستاذ شاكر فى حنو قائلا: أبدا، أبدا يا تليمه.. وتعال أعرفك بابن أخى عبد الرحمن شاكر.. رغم أنه على مذهبك.

تهلل الدكتور عبد المحسن بدر موافقا: أنا متأكد أننى على الرغم

من اختلافي فكريا مع الأستاذ شاكر إلا أنه عندما سيكتب عنى فلن يذكرنى إلا بالخير، فرد علامتنا: «لأنك دائما صادق مع ما وصلت إليه».. ثم شكا الدكتور عبد المحسن للأستاذ شاكر الطلبة وتقاعسهم عن التحصيل كلما حل وقت تخرجهم.. وذلك لأنهم يعرفون ما ينتظرهم من مشاكل فى التعيين .. ثم قلة العائد الذى لا يمكنهم من تحقيق آمالهم وطموحاتهم حيث لا يتمكنون من مواجهة غلاء المعيشة، ثم حيرة المعيدين بين السفر الذى يخلى بينهم وبين إتمام رسائلهم.. وعدم الإستقرار الذى يؤجل محاولتهم لتكوين أسرة .. ثم يخبره كيف أنه يسقط فى يده وهو ينصحهم .. فهو يجد نفسه غير قادر على استبقائهم لمعرفته أن البحث عن لقمة العيش أصبح أكثر إلحاحا من التفرغ للعلم.

أجاب شاكر: «إن كلامك عن حيرة المعيدين، بين السفر والبقاء كشفت وأجابت على مشكلة تؤرقنى بالفعل، عندما أسمع آسفا عن أساتذة بالجامعة يعطون لتلامذتهم دروسا خصوصية، أو يبيعون كتبهم ويغيرونها كل عام حتى يباع أكبر قدر منها – وأعتبره عيبا فادحا، رغم ظروف الضنك التى نمر بها.. لأن المدرس لابد أن يتبتل فى العلم وأن من يعطى الدرس أو يبيع الكتاب فهو يحط من منزلته وكأنه يبيع نفسه لطلبته فلن يحترموه أبدا..

بعد هذه المحاورات والمداعبات.. ودع الأساتذة محمود شاكر، الذى سار نحو عربة فهر ، وكأنه يمتطى السحاب مقرور النفس والروح.. حتى تمنيت فى هذه اللحظات أن تشرف جامعة القاهرة بإهداء الأستاذ

محمود شاكر الدكتوراه الفخرية كما كتب الأستاذ سامح كريم، يوم شاعت فكرة إهداء محمود شاكر الدكتوراه الفخرية بعد حصول الأستاذ يحيى حقى عليها من جامعة «المنيا».. لأن جامعة القاهرة وليست المنيا هى وحدها القادرة على مصالحة محمود شاكر على نفسه.. ففى قاعاتها ضاق صدره بالجامعة كلها ومل على أثرها المقام فى وطنه لكنه كان فى قمة الرضا والسعادة عندما حصل ابنه فهر على درجة الدكتوراه بامتياز مع مرتبة الشرف الأولى من جامعة القاهرة.

هذا هو محمود شاكر كما عرفته.. ولو كان قد أدلى إلىَّ ببعض دخائل نفسه وأسراره لكان عملى أكثر نضارة.. وأقصر سردا.. وأحسب فى النهاية أن كتابا واحدا لا يستطيع أن يغطى هذه الشخصية الثرية من أطرافها حتى لأقول مع الأستاذ حمد القيسى : «فليس أبو فهر ممن يقدر عمره بالأعوام حين تزول وأن عمره مالا يزول إن زالت، وليس أبو فهر ممن تقوم حياته بأوراق التقويم حين تبلى، وإن فى حياته مالا يبلى أن يلبث، وإنما تحسب بما فيها من معانى العلم والحكمة ونواحى الفضل والهمة.. وهى صفات لا يستوى فيها من يستوون بالأعوام والسنين».

ربما لاحظتم أننا فى الكتابة عن محمود شاكر لم نلجأ إلى أسطورة تروى عن حياته، ذلك أن تصرفاته وسلوكه ومتاعة النفس أسطورة بحد ذاتها .

وهل يجوز لى بعد ذلك القول أن الأستاذ محمود لا يغير عادته ، فهو يستيقظ مبكرا، يتناول الإفطار وهو يقرأ الجرائد، ويخرج لصلاة الجمعة، ويذهب يوم الإثنين إلى المجمع، ولا يخرج بعدهما إلا للضرورة القصوى كالتهنئة والتعزية وعندما ألم به ألم الظهر نصحه أطباؤه بالسير الطويل.. ففعل ولكن بعد ذلك استبدله بالدراجة الطبية. وهو يتناول طعام الغداء فى الثانية والنصف.. ولا ينام بعد الظهر إلا إذا كان متعبا.. وهو يتابع بشغف مباريات كرة القدم عندما تذاع عبر شاشة التليفزيون، ويهلل إذا أعجبه اللعب، ويتحسر عندما يكون سيئا يتذكر لعب زمان، كما يتابع أيضا المسلسلات العربية والأجنبية إن أعجبته.. وينادى أم فهر كى لايفوتها مشهد، وهذا كله لايثير الابتسام لدى عارفيه والتعجب لدى غير عارفيه الذين يتصورون أنه رجل جهم نذر كل حياته للدرس، ولو شاهدته وهو يتابع برنامج «عالم الحيوان» بعد عودته من صلاة الجمعة لأدهشك حب هذا الرجل للكائنات - مثلى - وهو من لفت انتباهى إلى هذا البرنامج الرائع.

والأستاذ محمود لايسهر بعد الثانية عشرة، حتى فى أيام شهر رمضان ولكنه سهر إلى مابعد الواحدة - فى أخريات حياته - عندما شاهد مسرحية «الزعيم» لعادل إمام.. وهو كان من المغرمين جدا بهذا الفنان ومعظم أعماله التى يذيعها التليفزيون!

وهو قوة نفس وقوة بدن، ولاشك أن حفظه للقرآن الكريم وعلومه قد

حفظه في حياته.. فهو الآن فى الخامسة والثمانين من عمره المديد.. يصلى بنا قائما راكعا مطيلا.. وهو فى تناوله - حتى - للأدوية مقبل نشيط متذكر لمواعيدها، وقد لاحظتم كيف هى صراحته وصرامته وحدته.. فهو لايحب الرياء ولا الاغتياب مع الحضور القوى والبشاشة عند الاستقبال.

ومن أبرز خصاله أيضا عدم حرصه على المال، وليس الاشتغال به من شهوات نفسه وهموم فكره، فقد رأينا أنه لم يكن يتقاضى مردودا لمقالاته· بل إن دار الهلال طبعت «الطريق إلى ثقافتنا» ثلاث مرات، ورفض أجرها، لأنها كانت مقدمة الطبعة الثانية لكتاب «المتنبى»، وعندما صار له منزل صغير رفض أخذ مقدم إيجار أو خلو رجل.. بل أن يتسلم إيجارا أقل من العقد، بل لايطلبه إذا لم يكن الساكن قد استقر به.. أو أن أمواله ضاعت فى خلاف سياسى مع ال[illegible]ل، ولأن صمته عن المناقشة فى المجمع اللغوى «كما قال لى عضوه المحامى الشهير المغفور له أحمد مرعى»، بعد أن ضم المجمع من لايعرف العربية. صار يصف بعض الكلمات بالصعوبة التى يجب تذليلها، مع أنها كلمات وردت فى القرآن الكريم الذى يتردد على العامة صباح مساء ويفهمونها، فإن محمود شاكر لم يصرف الشيكات التى تصله من المجمع، وعندما شاهدها تلاميذته نصحوه بصرفها لأن للشيك تاريخ صرف.

وإذا ظن أحدهم أن محمود شاكر قد أثرى من مردود جائزة الملك فيصل العالمية.. فليعلم أنها لم تدخل فى ذمته المالية.. كل الذى حدث

بعدها أن صديقه محمود المدنى.. صاحب دار المدنى للطباعة كان يشكو له.. من قدم المطبعة. وأن إصلاحها يستحوذ بالكامل على كل مردودها.. فما كان منه إلا أن أعطاه قيمة الجائزة ليجدد بها مطبعته.. وحتى يحقق لنفسه هو - محمود شاكر - أن يطبع وفق مايختاره من كتب على هواه.

وهذه الزاوية فى شخصية محمود شاكر هى التى ألمحت إلى أنه يشترك فيها مع الأستاذ نجيب محفوظ.. حيث يرضى بأقل أجر.. وكلاهما لايحب الفخفخة ولا المباهاة، وإن كان نجيب محفوظ يمتثل لأجهزة الإعلام لتفتيشه.

هل نال محمود شاكر حظه من التكريم ؟

ونأتى إلى ختام الكتاب فنتساءل .. هل كرمت الأمة العربية والإسلامية محمود محمد شاكر كما ينبغى له التكريم «؟» .

– بداية نجيب بنعم ، وربما استشهدت أيضا بما جاء فى مقال محمود شاكر منجم الأصالة العربية «الذى نشرته مجلة الهلال القاهرية» بعددها التذكارى «عمالقة وأحداث ١٩٨٩» .

واستهلته بـ : «شهدت حقبة الثمانينات من هذا القرن اعترافا متتابع الخطوط بمكانة «الأديب العربى الكبير محمود محمد شاكر» .

– انتخب عضوا مراسلا فى مجمع اللغة بدمشق عام ١٩٨٠ .

– حصل على جائزة الدولة التقديرية من مصر عام ١٩٨٢م ثم جائزة الجدارة أيضا عن كل جهوده فى نفس العام .

– أخيرا عضوا عاملا بمجمع اللغة العربية فى مصر ١٩٨٣ تتويجا لحياة طويلة أمضاها فى البحث والدراسة والتنقيب .

– حاز على جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربى عام ١٩٨٤ عن كتاب «المتنبى» وفى عام ١٩٨٩ منح وسام العلوم والفنون من الطبقة

الأولى عن أعماله التى خدمت القرآن الكريم والسنة الشريفة سلمه له الرئيس حسنى مبارك فى احتفال وزارة الأوقاف بمناسبة المولد النبوى الشريف . وقد أهداه تلامذته على ساحة الأمة العربية والإسلامية ، كتاب «دراسات عربية وإسلامية» بمناسبة عيد ميلاده السبعين حيث قدم له الدكتور رشاد سالم من «مصر» ثم أهديت له الأبحاث مع الكلمات عن شخصه الكريم .. عن الدكتور إحسان عباس «فلسطين» الدكتور إحسان النص من «سوريا» ، القاضى إسماعيل بن على الأكوع «اليمن»، الدكتور حمد عبيد الكبيسى «العراق» ، الدكتور عبدالسلام الهراس من «المغرب» ، الدكتور عبدالله الطيب من «السودان» ، الدكتور عبدالله عبدالرحيم عسيلان من «السعودية» ، الدكتور محمد حسن عواد من «الأردن» ، الدكتور محمد يوسف نجم من «فلسطين» ، ثم عدد كبير من علماء مصر بينهم الدكاترة أحمد مختار عمر ، أيمن فؤاد سيد ، حسين نصار ، رمضان عبدالتواب ، عادل سليمان ، عبداللطيف عبدالحليم ، محمد عبدالخالق عضيمة ، محمد مصطفى هداره ، محمود الربيعى ، محمود على مكى ، محمود محمد الطناحى والأساتذة أحمد فؤاد سيد ، رجب إبراهيم الشحات ، السيد إبراهيم محمد ، أحمد حمدى إمام ، عبدالرحمن شاكر ، والشاعر شوقى على هيكل .

وقد تسترسل وتذكر أن الأستاذ محمود إبراهيم الرضوانى ، حصل بدراسته عن «شيخ العربية وحامل لوائها أبو فهر محمود محمد شاكر» بين الدرس الأدبى والتحقيق «على رسالة الماجستير من كلية دار

العلوم ، وفى الطريق - كما قال الدكتور محمود الربيعى - رسالتا «دكتوراه» أولاهما عن طريقة التنقيط في كتب محمود شاكر والأخرى عن طريقته فى فهرسته لكتبه .

وانهالت عليه الدعوات للمؤتمرات فى المغرب حيث الدروس الرمضانية التى يعقدها الملك محمد الخامس ، وتركيا ، والسعودية ، والكويت ، ولندن حيث أنشأ الدكتور زكى اليمانى مؤسسة الفرقان للإهتمام بمخطوطات التراث ... وغيرها وغيرها من البلاد العربية .

لكن هل اعتبر محمود شاكر هذا كله تكريما له ؟ لمعرفة ذلك نتوقف على سلوكه حيالها بعد أن عرفنا سلوكه نحو المجتمع ، فكان لزاما على أصدقائه وتلاميذه ومريديه اقناعه بضرورة قبوله لجوائز الدولة .

وعندما ذهب لإستلام جائزة الدولة التقديرية من مصر ، وكان الذى يسلمها رئيس الوزراء فؤاد محيى الدين ، وما أن نودى على اسم محمود شاكر إلا وصعد لاستلامها ، فاندهش فؤاد محيى الدين وراح يصافحه ويشد على يده «شاكر جدا لحضورك .. شاكر جدا لحضورك» لأن القائمين على الحفل ربما قد أوحوا له أن الأستاذ محمود شاكر لن يحضر لأنه رجل عازف عن الحياة العامة وعندما حمل إليه الدكتور حسين نصار جائزة الجدارة حيث تسلمها عنه - فقد أعادها

إلى الدولة مع الدكتور حسين نصار .. الذى أُرهق فى إقناعه باستلامها لأنها خرجت من خزينة الدولة واعادتها لها ، غير معروفة الإجراءات .. أما جائزة الملك فيصل فقد شهدنا كيف حاول رفضها فى البداية لولا رده تلامذته لأن موقفه يضر بهم .. وعندما اتصل به الدكتور محمد على محجوب وزير الأوقاف ليعلمه بيوم تَسلم وسام العلوم والفنون من الطبقة الأولى اعتذر له بشدة عن الحضور أو الحصول عليها من الأصل . فما كان من الدكتور محجوب إلا أن اتصل بالدكتور عبدالله محارب المستشار الثقافى لدولة الكويت ليقنعه بالذهاب ونجح فى ذلك .

ويحكى الذين حضروا معه بعض المؤتمرات التى لباها قصصا كثيرة من رفضه مثلا ركوب عربة كبيرة «باص» تقل العلماء من الفندق إلى المؤتمر .. واشترط أن يكون لكل عالم عربة خاصة .. بل أنه عندما جاء دوره فى مصافحة ملك المغرب حيث يكنى بأمير المؤمنين .. يجب الإنحناء لمصافحته وتقبيل يده صافحه محمود شاكر وهو مرفوع القامة . — حقا ما قيل إن التكريم يتراءى الناس شيئا محبوبا ، وحقا إن الذى لا يأبه للتكريم هو الذى يستحقه .. لأن لا يستوجب الدول ولا الناس الذين لا يعملون بنهجه .

إن محمود شاكر لم يكن شغوفا ولا آبها ، لأن يضع وساما على صدره .. أو وشاحا على كتفه .. أو أموال توضع له كرصيد فى بنك ..

ولا لقبا «كشيخ العربية» يطلق عليه .. وإنما هو محتاج أن تتخذ كتاباته مكانها في عقول المثقفين من أبناء الأمة العربية والإسلامية .. أن يحيا نهجه الذى نادى به فى قلب مسئول يعمل على تنفيذه .. أن يقرر منهجه في الجامعة كما نادى الدكتور شكرى محمد عياد .. أن تختار إحدى صفحات كتبه للمطالعة والإملاء فى مدارسنا الإبتدائية والثانوية ..

لقد جاء هذا التكريم متأخرا جدا عما كان ينبغى - وكأنهم [١] ألقوا له بطوق النجاه ، بعد أن وصل إلى الشاطئ - لقد [٢] كرموه أخيرا لأنهم لم يجدوا أحدا ممن هم دونه يمكن أن يغالط به ويصلح لتوجه إليه التقديرات التى وجهت له أخيرا .. فان هذه التقديرات قد نالها قبل الآن من لا يقارنون به من بعيد أو قريب فى فضله وخدمته لثقافتنا العربية قديما وحديثا .

وإذا قال أحدهم أن هذا التقدير المتأخر يعود بالدرجة الأولى إلى اعتزاله الكتابة للصحف وعزوفه عن الظهور فى أجهزة الإعلام جميعا .. بحجة أن هذه الأخيرة ترسل للتسلية وليس للتثقيف .. فهناك كتبه التى لم ينقطع هديرها كما قرأنا فى سرد حياته .. وعلى ذلك نقول [٣] إن

---

(١) هذه كلمة قالها الأديب الانجليزي برناردو شو عندما رفض جائزة نوبل .

(٢) هذا تفسير قاله لي الأستاذ خليفه التونسي أحد قلائل منصفي العربية «رحمه الله» .

(٣) هذا قول الأستاذ محمد علي ماهر «رحمه الله» .

محمود شاكر لم يكن منزويا بقدر ما كان المنزوى هو قدرة الجو الثقافى العربى عن الحقيقة الكبرى التى يمثلها هذا الكنز البشرى أو الفكرى العربى الكبير . إن هذا التكريم المتأخر ليس اكتشافا لمحمود شاكر بقدر ما هو اكتشاف لأنفسنا ولقيام المؤسسات الفكرية واللغوية بدورها الحقيقى ، الذى كان يجب أن تنهض به منذ مطلع شباب محمود شاكر .

ويتساءل المولع بشاكر : إذا كان هذا التقدير المتأخر كان بسبب سطوة تلاميذ طه حسين فيا لهول وجبروت طه حسين .. وإذا كان نتيجة وصول تلامذته فى مصر وغير مصر إلى النفوذ الثقافى .. فيالبطء وصولهم .. وإذا كان بسبب اعتزاله لأجهزة الإعلام فيالسطوة هذه الأجهزة .

ولقد كنت أداعبه دوما بأنى كنت الفأل السعيد عليه ، وإن كتاباتى المستمرة عنه عرفته للعامة بعد الخاصة .. أقول له : «قبل أن أكتب عنك ، لم يكن يعرفك أحد لدرجة أننى كنت عندما أقول لأصدقائى إننى ذاهبة إلى الأستاذ محمود شاكر يسألونى هل هو ممثل ؟ ذكرينا بأدواره ؟ ، فى أى تمثيلية أو فيلم ظهر ؟ بل إنه يوم ظهور أول مقال لى عنك بمجلة الإذاعة انهالت المكالمات على رئيس ومدير التحرير سعيد عثمان ومحمود سالم . فقالوا لى ماذا حدث بالكون اليوم ، إننا ننشر منذ عشرات السنين ولم يحدث لنا هذا ، والحق أن مكالمة

بالذات قد أغاظتهم وكانت من المذيع اللامع أحمد فراج .. إذ قال لسعيد لو أنك لم تفعل شيئا رائعا فى حياتك فقد حققته اليوم بنشرك عن محمود شاكر .

ولن أنسى يوم ذكر الشيخ على الطنطاوى اسمه فى تليفزيون الكويت .. حين حكى عن ذكرياته فى مصر . حيث تعرف على الشيخ أحمد محمد شاكر ، الذى كان محدث الجيل بلا منازع ، وأخيه محمود محمد شاكر الذى ليس فى بابته نظير فى الأدب .

بعدها تلقيت المكالمات بل الرسائل يبلغنى أصحابها من الأصدقاء .. أنه استمع للشيخ طنطاوى وأنه يوافقنى الآن على الاستمرار فى الكتابة عن محمود شاكر ، أما الأصدقاء الذين عادوا من السعودية .. فقد زفوا لى أنهم تعرفوا على محمود شاكر الذى أكتب عنه ولا يكادون يعرفونه من قبل ، لمجرد أنه أثار بكلماته الساخرة ضحكات العاهل السعودى الملك خالد بن عبدالعزيز خلال لقائه به فى الرياض .

وقد شاهدت صديقا فى معرض الكتاب بالكويت ينوء بحمل كتب كثيرة .. وصافحنى وهو يقول : لقد اشتريت كل كتب محمود شاكر الذى تكتبين عنه دوما .. وعندما نظرت فيما يحمله وجدته عن آخره كتب تاريخية .. فقلت للصديق أنها ليست لأستاذى وإنما لمؤرخ سورى له كنيته (حرستى) فحذفها ليوهم الناس أنه محمود محمد شاكر

«أبو فهر» فحزن حزنا شديدا .. بل إن رؤساء تحرير الصحف الكويتية عندما تبينوا الحقيقة صاروا يطالبونني بالكتابة عنه ، بعد أن كان مطلبهم في السابق أن أكتب عن الأستاذ نجيب محفوظ .

كنت أقول له ذلك مشاكسة .. لأنى أعرف أنه استحق هذه الجوائز عن جدارة ، وعن تراكم أعمال التهمت زهرة شبابه ، كنت أقول له ذلك وأنا أعرف أنه ليس للحظ مكان فى حياته .. فكل ما ناله من تقدير واحترام وشهرة كان نتيجة عمل دائب وكدح مستمر ، ورغم أن محمود شاكر لم يجد الصدى المتوجب لأعماله وأقواله من الشعب العربى المسلم ، الذى يكتب له وعنه .. فإنه لا يسخط ، بل لا يستسيغ من يطلق عليه أوصاف «كالشعوب المتخلفة» أو «العالم الثالث» ، أو «الدول النامية» أو النائمة ، التى تغط فى نوم عميق ، فلو قذفتهم بالشهب أو الصواعق لناموا على وقعها أو إحراقها . لمعرفته أن ما يمر بالعالم العربى والإسلامي ما هو إلا مرحلة استثنائية – نتجت من أن الغرب المسيحى لم ينس أبدا احتلال العثمانيين لقلب أوربا (تركيا) ، وتحويلهم كنيسة أياصوفيا إلى مسجد ، مما آثار فزع أوربا من جيوش الإسلام التى كانت تهدد فرنسا ذاتها .

ولكن عجلة التاريخ لن تتراجع إلى الخلف مرة أخرى – والذى حدث مرة سيعود ويتكرر .. فطبيعة الإسلام نفسه ، وجوهره وماضيه

وكفاحه الطويل والتحديات الكثيرة التى قابلها وصمد لها وتغلب عليها تقول ذلك .

واختتم كلامى بكلمة صدق جرت على لسان الدكتور عبداللطيف عبدالحليم وهو من تلامذة العقاد «كلام محمود شاكر يعلم الزهو والمجد أولاً ويعلم الأدب والفكر ثانيا» ..

★★★

النهاية

عجلت باللمسات الأخيرة لهذا الكتاب بينما أستاذى محمود شاكر نزيل غرفة الإنعاش بمستشفى النزهة الدولى حتى انتهيت من مهمتى بحمد الله فجر الأول من أبريل عام ١٩٩٧ ، وكلى أمل أن أتمكن من إصدار الكتاب فى أقرب فرصة ، وإهدائه إلى السيدة الفاضلة «أم فهر» .. الزوجة الراضية الصبور التى تفهمته وغمرته بالحب ، ووفرت له أسباب الرعاية والإبداع ، وانجبت له ولنا خير خلف لخير سلف ، ووسع كرمها ومودتها أصدقاءه ومريديه وقاصديه من طلاب العلم .

«المؤلفة»

الفهـــرس

رقم الايداع
٩٧ / ١١٩١٧
I. S. B . N
977 - 07 -0558- 6

روايات الهلال تقدم

الطائر الفردوسى

تأليف

د . شكرى محمد عياد

تصدر ١٥ نوفمبر ١٩٩٧

كتـاب الهلال يقدم

عـــابر ســـبيل

بقلم

د. عصام الدين جلال

يصدر ٥ ديسمبر ١٩٩٧

مع الباعة وفى المكتبات الكبرى

سلسلة الكتاب الطبى

متاعب جهازك الهضمى

تأليف

د. عبد الرحمن نور الدين

صدر عن دار الهلال

الثمن عشر جنيهات

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢عددا) ٤٥ جنيها داخل ج . م .ع تسدد مقدما نقدا أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٠ دولارا - امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٤٠ دولارا - باقى دول العالم ٥٠ دولارا .
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لآمر مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣
للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N



مصر للطيران

هذا الكتاب

أول مؤلف يسجل لسيرة حياة شيخ العربية العلامة محمود شاكر الذى رحل مؤخرا عن عمر ناهز التسعين عاما ، مخلفا وراءه فيضا من عطائه المضنى فى تحقيق التراث ، وذخيرة من البحوث والابداعات الأدبية الثمينة ، وصفحات مشرفة من المعارك الفكرية التى خاض غمارها بشجاعة واقتدار منذ فجر شبابه وأثارت فى حينها جدلا شديدا لايزال متأججا حتى اليوم .

الكاتبة الأديبة عايدة الشريف مؤلفة الكتاب واحدة من أخلص تلاميذ الشيخ شاكر ، وعبر تواصل علاقتها الحميمة معه ، كان طريقها سالكا الى فهمه وسبر أغوار حياته وأفكاره ومواقفه ، والتصدى لتفسير أوجاع عزلته عن المجتمع الذى أبى أن ينصفه فى حياته .

وتشاء مصادفات الحياة أن ترحل المؤلفة قبل رحيل شيخها بأربعة شهور، بعد أن تركت لنا شهادتها الامينة عنه ، ولعلها قد فتحت الطريق أمام عشرات المفكرين والباحثين والنقاد والعارفين بفضله ، حتى يوفوا دينا ثقيلا فى أعناقهم لمحمود شاكر، ويجلوا صورته الوضيئة أمام الاجيال الجديدة ، حتى يتبوأ مكانته الرفيعة التى يستحقها عن جدارة كواحد من الفرسان الصناديد الذين أفنوا حياتهم دفاعا عن الثقافة والهوية والحضارة العربية الإسلامية .

